رواية
محمد سلمان كامل
هند بنت غانم النوبي
الطبعة الثانية
ساحر الكتب

شر

تلك الروح السوداء الخفية،

تتحرك في هذا الفضاء.

لن تتمكن من رؤيتها،

لكنك ستشعر بها بالقرب منك.

تمهيد

هذا اليوم رغم بساطته، كونه لا يعد امتداداً لي بالضرر الذي يحمله، إلا أنني لم أتخيل أن أعيش في زوبعة كآبته وأحزانه. رحتُ أحثُّ ابنيَّ الاثنين على إسراع الخطا في الخروج تحت تلك الأمطار الغزيرة، نرتدي معاطفنا على عجل، وأحذية المطر والقبعات. في اللحظة التي أصبحتُ فيها جاهزة، التقتْ عينيَّ بعيني زوجي القلق مبتل الثياب. قال لآخر مرة بتعب وبقلة حيلة من كثرة التكرار: "هل أنتِ متأكدة من هذا؟"

"يجب علينا المساعدة "، أجبتُ بحماس مبطّن بالعجز الخفي.

تنهّد بغير رضا، ولكنني قرأتُ في عينيه أنه يوافقني. أمسكَ بذراعي وحملَ مظلة، ثم خرجنا من منزلنا يلحقُ بنا ولدانا الشابان، كلٌّ منهما يحمل مظلتهُ، نسير بأسرع ما نقدر عليه وأجسادُنا تعاكس اتجاه الرياح المحمّلة بالأمطار، ورذاذ الماء يتسرب من تحت قبة مظلتي ويرتطم بوجهي. نقاومه بالمظلات لنبعد ما نستطيع من البلل عن ملابسنا، حتى وصلنا إلى منزل عظيم تنبثق الإضاءة من جميع نوافذه، وعند بابه حركة مستمرة لرجال ونساء، حينما اقتربنا من المدخل، أعطاني ابني حقيبة كبيرة

كبيرة كان يحملها، قبل أن أستلمَها منه حرصتُ أن لا أعين تراقبنا، ووضعتُ يدي خلف رقبته لأسحبهُ وأطبع قبلة سريعة على خدّه. فعلتُ ذلك مع ابني الآخر وأنا آمرهما معاً أن يتوخيا الحذر. سلّمني زوجي المظلة واحتضنني، ثم افترقْنا. ذهبوا هم بخطوات سريعة، وانضموا إلى مجموعة رجال كانوا يسيرون مبتعدين عن المنزل، ودلفتُ أنا إلى الداخل.

لم يستقبلني أحد، كانت الحركة كثيرة والجميع مشغولون، أعطيتُ الحقيبة لأول خادمة لمحتُها أمامي، وأخبرتُها أنَّ فيها شالين للوقاية من البرد، وقدر من حساء ساخن يمكنها تقديمهُ للرجال المنهمكين في البحث تحت هذه الأمطار القوية والتي لم تتوقف لثلاثة أيام. أعلمُ أن ما قدمته لم يكن ذا أهمية كبيرة لعائلة عريقة مثل عائلة لورينت، ولكن ما كان يمكن أن آتي خالية الوفاض لأواسيهم في محنتهم الصعبة. قبل أن أدخل إلى الصالة التي تعلو منها أصوات النساء، سألتُ إحداهن التي كانت تهم بالخروج منها: "هل من أخبار عن الصبي؟"

هزتْ لي رأسها بنفي بطيء. أخذت في إثره نفساً عميقاً، ثم زفرتهُ بحزن. ثبتتُّ عيني على والدة

الصبي الذي ابتلعهُ النهر الهائج إثر هذه الأمطار، والذي يبحث معظم رجال بارادايس شيل عنه الآن، آملينَ إيجاده حياً بأعجوبة. كانت مارجيت ستروم محمرة الوجه من كثرة البكاء، ولكنَّ ذلك لم ينقص من وقارها شيئاً. لم تكن منهارة تنتحب على الأرض، كانت تجلس مطرقة برأسها نحو الأرض، يهتز كتفاها مع شهقات بكاء مكتومة، لا تتوقف دعوات النساء من حولها رجاءً بعودة ابنها، وكلما اهتزت كتفا مارجيت أكثر، حرصنَ أن يرفعنَ أصواتهن في الدعاء المستمر، يمسحن على ظهرها، كلما قرّبتها أية امرأة ممَّن تجلسنَ إلى يسارها ويمينها إلى حضنها، تميل عليهنّ لدقائق، وبمجرد أن تتمالك نفسها وتستجمع أنفاسها، تعود إلى الجلوس مستقيمة بوقار.

وقفتُ عند المدخل لبضع دقائق وأنا أراقبها فقط، أمدُّ نظراتي إلى خارج النافذة بين حين وآخر، وكأنني موعودة بأنَّ المطر سوف يخفّ في أية لحظة، وسيتوقف هطوله، وستشرق الشمس في غضون ثوانٍ حاملة معها الأمل أخيراً بعد ألم ورعب امتدَّ ليومين، فأقتربُ من تلك الأرملة المسكينة، وأبشّرها أنَّ المطر قد رحل، وستجف دموعنا الآن، ولكن للأسف، لم أستطع أن أفعل شيئاً بسيطاً كهذا، للمرأة التي أعطت الكثير لنا نحن سكان

باراديس شيل، فاقتربتُ منها، وقلتُ بصوت بالكاد يكون مسموعاً بينما أحتضنُها بهدوء: "كوني قوية يا سيدة ستروم". اعتدنا منذ زمنٍ طويل، على كنيتها الجديدة، بعد أن تزوجت وتغيَّر اسم عائلتها الأصلي، من لورينت إلى ستروم. مسحتُ على ظهرها بينما هي شكرتني بصوت قد بحَّ من كثرة البكاء لكنه كان مايزالُ محتفظاً بهدوء وبرصانة السادة: "أشكركِ لقدومك".

أبعدتُ جسدي عنها بينما ماتزال يدي تمسح على ذراعها، حتى تمسكتُ بيدها بكلتا يديَّ وضغطت عليها قليلاً، ثم تركتها بلطف وأخذتُ مقعداً بين النساء، همساتهن تتضمَّن دعوات خالية من المشاعر، وتأملات لسيناريو أحداث مختلف يتساءل بكل منطقيّة وخبث ولوم عن السبب العجيب الذي جعل والدة طفل تقرر إخراج ولدها في طقس مشابه ليلعب قرب النهر الهائج، فقط لتعود هلعة بعد دقائق، تصرخ قائلة أنَّ النهر ابتلعَ ولدها، ويهبّ خدم عائلة لورينت في طلب كل مساعدة ممكنة من رجال باراديس شيل للبحث عن الصبي، الذي يتأمل الجميع أنه مبارك بأعجوبة، وأنَّ ملابسه ربما قد تكون علقت في غصن شجرة لتنقذه من الارتطام بصخور النهر الثائر، أو أن يكون النهر بنفسه قد قذفه من شرايينه إلى الأرض الصلبة الموحلة

بالسرعة التي ابتلعهُ فيها، وأن الطفل الآن يشعر ببرد قارس وهو يهيم ضائعاً في الغابة، يبحث عن منقذيه مثلما يبحثون عنه.

جفلْنا جميعاً دون استثناء لصوت ارتطام مفاجئ. في تلك اللحظة تعالت شهقات وصرخات النساء القصيرة، عندما اهتزت النافذة بعنف، توجهت جميع الأنظار إليها، حيث كانت الرياح قد حملت صندوقاً بلاستيكياً وألقتهُ علينا، لحسن حظنا أنَّ النافذة لم تكسر. لكن لم يكن هذا الحظ حليفَ منازل بارادايس شيل الأخرى، فقد علمتُ من همسات نساء الطبقة الفقيرة والمتوسطة في البلدة، أنَّ السبب الوحيد لوجودهن هنا هو الحالة المزرية التي آلت إليها بيوتهن، فقد تحطمت الأسيجة، وتكسرت بعض النوافذ، رشحت الأسقف، وسقطت بعض الجدران الخشبية، ذكرنَ اهتزاز تلك النافذة العنيف برعونة الأجواء الخارجية، وأظن أنهنَّ للحظة.ابتسمنَ لسذاجة الموقف الذي تسبَّب به هذا الرعب، ثم عاد السكون. انبعثت منا جميعاً دعوة تناشد أن يعود كل من في الخارج بسلام، برفقة الفتى الصغير، ولم نعد نسمع سوى شهقات السيدة مارجيت ستروم، السيدة التي فقدت الكثير،فقدت زوجاً،.. ابناً... كله لأجل هذه البلدة،... ولم يتبقَّ لها سوى ابنها الصغير رايان.. الذي أتمنى أن يكون

قوياً كأمه.. وأنه مايزال يتشبث بالحياة بطريقة ما.

* * * * *

استمرَّ البحث طوال الليل ولليوم التالي، كانت الأمطار قد أصبحت أضعف، وانضمَّ عدد أكبر من الرجال والنساء إلى البحث، حتى السيدة مارجيت نفسها، طال بحثنا عن الأمل لخمسة أيام، خمسة أيام لم تفلت فيها السيدة مارجيت قفاز يد ابنها، الذي انسلَّ من يده بينما كانت تحاول سحبهُ من المياه، الشيء الوحيد الذي تبقّى منه، والذي بقيتْ قابضة عليه بيدها منذ تلك الحادثة، بالكاد أكلتْ شيئاً في الأيام الماضية، وبسبب ذلك بالكاد استطاعت استكمال البحث، لقد كانت تعبة ومرهقة نراها تفقد روحها مع مرور الوقت، لم تكن تبتسم أو تتحدث سوى مع ابن شقيقها الأصغر بيتر، الذي كان ببراءة الأطفال يتجاهل تعليمات أمه بالبقاء في غرفته، ويأتي إلى عمته الحزينة ليتشاطر معها قطع الحلوى لأنه وجدها حزينة، فتحملهُ وتضمُّه إلى صدرها لفترة طويلة وهي تبكي، حتى تتدخل النساء لإبعاده ولتهدئتها، لا أدري كم مرة بكيتُ بدوري وأنا أشاهدُ حالها،كيف لأم أن تستطيع إكمال العيش بعد هذه التجربة المروعة!، أن تفقد فلذة كبدها عبثاً، دون أيّ مسوغ أو مبرر، بل كيف لامرأة

أن تستمر في العيش بعد كل ما مرت به السيدة مارجيت ستروم، خسرت عائلتها بأكملها واحداً تلو الآخر..

آلمني قلبي من شدة الغصة التي أشعر بها، فقد كنتُ أنا مثلها، امرأة لزوج وابنيْن، الفرق الوحيد أنهم مايزالون إلى جانبي، بينما لم يبقَ بجانبها سوى أشباحهم. لم يعد هنالك أمل في أن يكون الفتى على قيد الحياة، ليس بعد كل هذا البحث المضني الذي قطعنا فيه أميالاً، ولم نترك حجراً في الغابة إلا وقلبناه، جميعنا نعلم الحقيقة المؤسفة، ونظنُّ أنَّ مارجيت بنفسها تعلم ذلك، لكنها بقيت متشبثة بقفاز يد ابنها، وكأنما كان الأمل والقدر سيرثيان لحالها، وسيغيّران مجريات الأحداث المؤسفة التي لحقت بصغيرها.لم يعد الرجال يبحثون عن صبي حي... بل يبحثون عن جثّته، ليعيدوها إلى حضن والدته على الأقل.

في وقت لاحق من تلك الليلة، دخل شقيقها السيد أليكساندر أحد كبار رجال بارادايس شيل، ومن نظراته إلى شقيقته فهمنا كل شيء، وحينما التفتت النساء إلى السيدة مارجيت ستروم لينقلنَ كلمات عينيه لها باللطف والدعم المطلوب، كانت هي قد سبقتهنّ في ترجمة كل شيء. لقد علمت

ما يحترق في صدره منذ اللحظة التي خطا بها إلى داخل المنزل، اقتربَ منها واقتربت هي منه بدورها، وغاصت في أحضان شقيقها،تنتحب بصمت قاتل، يشبه ملامحهما الجليدية هي وشقيقها.

رأيتُ شيئاً آخر في عينيها... بريقاً لم أفهمه قط. إن أرادت الحياة أن تلعنني مثلما لعنتْها، فأنا لا أعلم إلى أي مدى ستصمد روحي.و لكن هنالك أمر واحد أعرفه بكل تأكيد.إن كنتُ في موضع السيدة مارجيت ستروم، فلن يكون لي بريقُ عينيها الحاد ذاك. ما كنتُ لأكون بقوتها وصلابتها قط، كنتُ سأموت حزناً وتعاسة.

الجزء الأول

لن ترى في هذا الظلام، سوى ذلك الخوف الدفين في الأعماق.

لن تسمع سوى الصمت الذي يخبركَ بأن النهاية قادمة.

مارجيت ستروم

حرَّكت الرياح تنورتي، بينما أنا أقفُ أمام البوابة الحديدية المغلقة للورينت هول. دارَ في خلدي سؤال: لماذا أنا هنا من جديد؟ كان المضحك هو أنني أعرف الإجابة، كما أعرفُ بأنه لا بدَّ لي أن أكون هنا حتى ينتهي كل هذا الكابوس. لابدَّ من العودة إلى هذا المكان، والذي كان خلاصي أنني تركتهُ سابقاً.. تركته فاقدة كل شيء، رحلتُ منه وأنا لا أملك سوى حياتي. أما الآن فأنا أعود طلباً لخلاص نهائي. أبحث عن الدفء، ولكن يبدو أنَّ يدي هذه المرة ستكون قريبة أكثر من النار. هنالك سبل يمكن أن نتوهَ فيها بحثاً عن النهاية، ونهايتها تكمن في نقطة البداية.

اليوم أنا في نقطة البداية من جديد. أنا في ملكية أبي، وأخي الكسندر من بعده، ومن ثم ستؤول لأبنائه. لم أطرق جرس الباب؛لأنني كنتُ متأكدة بأن لحظات وقوفي لن تطول حتى يأتي أحدهم ويراني هنا. استغليتُ لحظات الانتظار متأملة،أحثُّ ذاكرتي على استرجاع الشريط القديم كله. ذاكرتي لم تعاند أو تتعبني، بسهولة أدارت الشريط القديم كله.أغمضتُ عيني مسترجعة كل شي، وفتحتُها من جديد على سؤال بدرَ من صوت ذكوري:

"من أنتِ؟ ماذا تفعلين هناك؟"

سحبتُ نفسي وحركتُ أصابعي في خصلات شعري، التي غيَّر ترتيبها الهواء المار علي: "ستروم، السيدة ستروم". عقدَ حاجبية متسائلاً! أوضحتُ له: "مارجيت ستروم، شقيقة السيد لورينت". فهبَّ من مكانه ليسحب مقبض البوابة الحديدية الكبير. عبرتُ البوابة باندفاع يوضح مشاعر التحدي لهذا الخادم، الذي لم يكن ذنبهُ أنه لا يعرفني، فأنا تركت هذا مكان منذ سنوات طويلة بعد أن لم يعد طفلي موجوداً فيه. طوالَ هذه السنوات اتخذتُ أراضيَ عديدة منزلاً لي، ولم أتوقف عن التنقل بين المدن مبددةً ما حصلتُ عليه من بقايا ثروة أبي.

"اعذريني سيدتي، لم يخبرني أحد بقدومكِ، كما أنني لم أتمكن من التعرف عليك". لم يتغير تعبير وجهي ولم أبرر له شيئاً. آثرتُ ترك المبررات لأصحاب المنزل. مشيتُ تحت الجو الرمادي الغائم، تحت السماء التي أخفت الشمس. سرتُ على الطريق الحجرية متجهة إلى لورينت هول الكبير المخصص للعائلة.

"سيدتي، سآتي بعربة تنقلكِ بسهولة".

"لا أحتاج، سأتمشّى" قلتُ بصرامة؛حتى لا يطلب

مني ذلك مجدداً.

كلّما مشيتُ أكثر، كلما عادت الذكريات تُقذف في مخيلتي أكثر. ذكريات كان بعضها قد غفلَ دماغي عنهُ. ذكريات الحرب، ذكريات العائلة.. طفولتي.. وكل ما مضى. تذكرت وجه ديلان وكأنه أمامي الآن. لم يغب وجهه عني أبداً، أستحضرهُ كلما أغمضتُّ عيني، ولكن هذه المرة كانت ذكراه كاتمة على صدري، استوقفتني في مكاني لوهلة.

ديلان.. رايان.. وماتَ زوجي كذلك. استحضرتُ كل الوجوه القديمة. صرخ صوت في أعماقي راجياً: عودي. تجاهلتهُ وأكملتُ خطواتي قدماً إلى الباب. لستُ أنا من تنسحب. لستُ أنا من تخاف ودماء لورينت تمشي في عروقي.

يكاد يكون حجم الباب الخشبي ضعف حجمي،أو أقلّ منه بقدر ما. ضغطتُ على المقبض الثقيل ودفعتُ الباب. تسلل الضوء الرمادي على بلاط لورينت هول المنقوش بلونين أبيض وبني كما لو أنه رقعة شطرنج. على المستطيل المضيء لانعكاس الباب، انعكسَ ظلي كذلك وأنا واقفة تحت إطار الباب، قدماي متباعدتان كما لو أنني أقفُ وقفة استعداد.

مرت أمامي طفلة صغيرة بفستان قصير واسع،

وبيدها كرة صغيرة بيضاء. يبدو أنَّ صوت الباب هو ما سرقها وأتى بها إلى هنا. توقفت أمامي تتمايل محركة فستانها مع كل حركة. توزَّعَ شعرها الأصفر على جانبي رأسها. يمكنك أن تميز دماء عائلة لوربنت فيها ليس فقط لأنك تراها في منزلهم، بل بسبب لون بشرتها، ملامحها، لون شعرها، وعينا جانين لورنيت اللتان كانت الطفلة تملك مثلهما تماماً. عينان زرقاوان فيهما نظرة جليدية.

سألتها: "من أنتِ أيتها الجميلة؟". حاولتُ أن أنحني بقدر المستطاع لأظهر لها ودّاً.

أجابتني: "جيني". وأصبحت عيناها البريئتان أوسع. شعرتُ بأنها تتسائل:كيف دخلتُ إلى هنا وحدي؟ ولكن عائلة لوربنت لا بد أن تكون معتادة على توافد الزوار الغرباء دائماً.

"من هو والدكِ يا جيـ..". لم أكمل جملتي.

قاطعني صوت ذكوري يشبه المخمل في ملمسه: "عجباً،عمتي مارجيت!".التفتُّ لأرى صاحب الصوت، فكان ماركوس يقف عند طرف الممر الطويل المؤدي إلى الجناح الآخر من المنزل.

"هذه جيني ابنتي". تقدَّم ليأخذ ابنتهُ تحت ذراعه: "مرَّ وقت طويل ياعمتي".

"وهل كنتَ قلقاً أن أموتَ دون أن تراني؟". ابتسمتُ له محاولة أن أخفي الغيظ في جملتي.

أجاب: "لا، ولكن افتقدناكِ".

"ظننتُ بأنه لم يعد هناك من يذكرني حتى". قلتُ ذلك وتقدمتُ إليه بعد أن رأيته يأتي باتجاهي فاتحاً ذراعيه لي.

"نحن لا ننسى أيَّ فرد من عائلتنا". قالَ ذلك وهو يحتضنني مرحّباً بي.

"إن ابنتكَ تشبهكَ تماماً، تحمل عيني والدتك. في الواقع أنتما الاثنان نسخة عن جانين. على ذكر جانين، هل هي هنا؟". قلتُ وأشحتُ ببصري عنه ناقلة عينيَّ إلى أرجاء المنزل، متفحصة ما تغيَّر فيه وما بقي على حاله.

يتحدث ماركوس عن العائلة كما لو أنه والده، لكنه حتماً لا يعرف ما تعنيه الخسارة. قد تكون العائلة والدماء هي أثمن ما يملك، ولكن هناك خسارات لا يشبهها شيء.. غير قابلة للتعويض. قد يظن بأنه جرّبها، أو حتى واجهَ بعضاً منها، ولكنه لو جرَّب أن يتم تسليط الضوء عليه، لما كان يقف الآن أمامي ويتحدث عن دماء العائلة الواحدة.

"والدي في المكتبة، ولكن أمي ستعود فيما

بعد". أشار بيده إلى الأعلى، وكأنما يسألني: هل نذهب إليه؟ أشرتُ برأسي إيجاباً واتّجهنا نحو السلم. أردتُ أن أخبره بأنني مسرورة لعدم وجود والدته، ولكنها والدته في النهاية.

"جيني، لا تلعبي بكرتكِ هنا. سنلعب في الخارج عندما يكون الجو أفضل". قال ماركوس ذلك ونحن نصعد العتبات الأولى للسلم، وكانت جيني قد اختفتْ عن ناظرينا.

* * * * *

كان باب المكتب على غرار الأبواب اليابانية، يُفتح سحباً. فردَ ماركوس كلا ذراعيه ساحباً جزءاً من الباب بكل يد. انكشفت الغرفة ورأيتُ جزءاً منها وأنا أقفُ خلفه. ذكَّرتني الرفوف السوداء، نصف الأريكة الجلدية السوداء الظاهرة من خلف ماركوس والرائحة بوالدي. تذكرتُ كيف كنت أتسلل إلى مكتبهِ خلسةً، ويتظاهر هو بعدم رؤيتي رغم أنهُ يراني. ولَّت سنون طويلة على ذلك.. عمرٌ كامل قد انقضى.

ابتعدَ ماركوس فجأة من أمامي، فانفسحَ الطريق بيني وبين المكتب الأسود الفخم الموجود قبالة الشباك في منتصف الغرفة. توقفَ الكساندر فجأة بين المكتب وكرسيه، ومن خلفه النافذة والتي

كان ارتفاعها من الأرض حتى السقف. أنارَ الضوء الرمادي المتسرب منها ما يكفي من الغرفة، رغم أن الستارة الشفافة كانت مغلقة، كان شبك النافذة يبدو واضحاً خلف الكساندر.

شهقَ الكساندر متصنّعاً دهشة أكبر من التي كان يشعر بها. ابتسمَ بعد ذلك فوراً وقال: "آه، ماري.. أنتِ هنا من جديد، أهلا بعودتكِ". رأيتُ ماركوس بوجهه الذي يشبه قطعة السيراميك، ينقل نظراته الباسمة بيني وبين والده.

"نعم، أنا هنا من جديد. سأقيم في المنزل لفترة قصيرة إن كنتَ لا تعارض ذلك".

"بالطبع لا أعارض إنه منزلكِ أيضاً، ولكن أنا أتساءل عن سبب هذه العودة المفاجئة". قال ذلك وتحرَّك بوقاره المعتاد من خلف المكتب ليبتعد عن كرسيه الجلدي ويقترب مني. قبّل كفي وربَّتَ عليه بيده الأخرى قبل أن أستجمع كلماتي لأجيبَ عليه. لم يكن الكساندر عاطفياً، ويفضل دائماً إخفاء مشاعره الحقيقية. أما ما يقوم به الآن فهوَ نوع من أنواع المراوغة التي لم أكتشفها بعد، فهو لم يستخدم ذلك معي حتى اليوم.

"لا يوجد سبب، أردتُ فقط أن أعود إلى مكاني الأصلي". قلتُ

سألني ماركوس: "هل هذا يعني بأنكِ مستعدة للإقامة هنا للأبد أخيراً؟".

"لا أحد يعيش إلى الأبد ياعزيزي، سأقيم إلى.. ما لم تغير الظروف ذلك. في الواقع لم أحدد إلى متى". لم أكن متأكدة إن كان سؤال ماركوس دافعه الحماس، أم الخشية والصدمة لأنني سأبقى طويلاً.

قال الكساندر موجهاً كلامه إلى ماركوس: "أخبر الجميع بوجود عمتك معنا، سنتناول الغداء معاً اليوم. أخبر الخدم كذلك بتجهيز جناحها في المنزل". هزَّ رأسه وأكَّد ماركوس كلام والده، ثم تركنا فجأة.

أشار الكساندر بكفّه لي إلى الكرسي الثابت أمام مكتبه ذي الأذرع الجلدية. تحركتُ ببطء،ومن ثم جلستُ عليه مراقبة الكساندر وهو يتحرك عائداً إلى مكانه. غدا شعره أفتح من لونه الأصفر السابق بعد أن امتزجَ بخصلات بيضاء واضحة عن قرب فقط. وجههُ الوسيم لم يتغير رغم تقدم سنّه. تجاعيد حول عينيه تكونت وكذلك حول شفتيهِ. ساعدهُ وجهه الأملس وبشرته الصافية على أن يبدو أصغر من سنّه الحقيقي. كان يتحرك بسهولة، ورشاقته ماتزال موجودة لم تتغير.

"ما تزالين جميلة كما أنتِ يا أختي". ابتسمتُ له

رداً على ابتسامته. أكملَ: "إنها دماء آل لورينت".

"ذكرت الدماء في هذا المنزل مرات عديدة، رغم أنَّ وصولي كان منذ وهلة. ولولا عيناي البنيتان وشعري الأصفر لكنتُ نسيت أن دماء آل لورينت تسير في عروقي".

قهقهَ بطريقة مزيفة ولكنها متقنة التمثيل، وهذا ما يجيدهُ الكساندر.. التمثيل. "مهما ابتعدتِ لن تغير المسافة أبداً دماء آل لورينت، ولا حتى اسم آل ستروم الذي تحملينه رغم عراقته، فهو لا يساوي شيئاً أمام اسم عائلتنا".

"أهذا مديح أم ذم؟". سألتهُ

"مديح بكل تأكيد، لا يوجد فيكِ ما تذمّين عليه يا أختي". قاطعنا صوت طرق خفيف على الباب، وحين سمحَ الكساندر للطارق على الباب بالدخول، دخلت خادمة شابة، حيّتنا بحركة من رأسها، ثم أخبرتنا بأن السيدة لورينت قد وصلت.

"سأذهب إلى جناحي، حتى يجهز الغداء".

قالت الخادمة: "الغداء سيجهز حالاً".

التفتُّ إلى الكساندر الذي ابتسمَ وهبَّ واقفاً من جديد. طلبَ من الخادمة أن ترحل وأخبرها بأننا قادمان. مشى بالقرب مني إلى باب المكتب وقال

بصوت منخفض: "أرى ضغينة في صوتكِ، لقد كبرتما بما يكفي أنت وجانين لخوض هذه الحرب الباردة من جديد. هيا لنتناول الغداء، وبعدها يمكنك العودة إلى جناحكِ لترتاحي".

لم أعلق على كلامه، فقد كان حقيقياً.

* * * * *

عندما كنتُ أمشي نزولاً على السلم، لمحتُ جانين واقفة مديرة ظهرها لي. شككتُ أنها تعمدت الوقوف بهذه الطريقة، حتى تلتفت بطريقتها السينمائية وتُبدي اندهاشها من وصولي المفاجئ.. أنا متأكدة بأنها كانت تنتظرني وتعلم بأنني أسير خلفها الآن. أبطأتُ خطواتي لجعلها تنتظر أكثر أو تستسلم وتلتفت قبل وصولي. ضربتُ بحذائي الأرض مصدرة ضجيجاً يُعلمها أني وصلتُ، لكنها لم تستسلم ولم تلتفت حتى وصلتُ إلى العتبة الأخيرة.

"آوه، عزيزتي مارجيت". قالت ذلك، وتقدمت بخطواتها الرشيقة فاردة ذراعيها لي.

قلدتُ طريقتها وقلتُ وأنا أمد حروفي: "العزيزة جانين". وفردتُ ذراعي كذلك، ورغم أننا احتضنّا بعضنا إلا أن أجسادنا في الواقع كانت متباعدة.

"متى وصلتِ إلى هنا؟ وما سر هذه الزيارة المفاجئة؟". سألتني

قلت: "منذ وقت قصير، أما سر الزيارة فهو شقيقي الذي افتقدتهُ.. وفي الواقع هذه ليست زيارة،إنما قررتُ العودة إلى منزل عائلتي.. إن كنتِ لا تمانعين ذلك". رماني ألكساندر بنظرة ساخرة على تعبيري، حين قلت بأنني أفتقد شقيقي، فهو يدرك بأنني أكذب.

صرخت وهي تسأل بطريقة درامية: "أمانع؟ لماذا قد أمانع؟ أنتِ قلتها إنه منزل عائلتك. لكن عودتكِ المفاجئة أثارت فضولي لا أكثر. لماذا الآن؟". تغيرت نبرتها مع آخر كلمتين لفظتهما.

قلتُ: "الآن أو بعد عام لا يفرق الأمر كثيراً. أم أنكم وضعتم وقتاً للزيارة؟".

"ألم تقولي بأنكِ لستِ زائرة؟ نحن بالفعل نضعُ وقتاً محدداً للزيارة، ولكنك لن تحتاجي هذا الجدول". ابتسمت واستدارت مبتعدة عني خطوة واحدة. "دعينا لا نقف هنا، أنا متأكدة بأن رحلتك طويلة ومتعبة، وبأنك جائعة".

"إحساسكِ يصيب دائماً يا عزيزتي جانين".

طرق أحدهم باب غرفتي، بينما كنتُ أخلي حقائبي

التي وجدتها واقفة تنتظرني في منتصف الغرفة، بعد أن أنهيتُ غدائي بصحبة الكساندر وعائلته. كانت وجبة الغداء صامتة لم يشوبها سوى القليل من الكلمات. أبدت العائلة اندهاشها لعودتي، وهذا ما كنتُ أخشاه وأتمنى مروره سريعاً.. والآن زالَ انهاشهم، لم يبقَ سوى شعوري بعدم رغبتهم بوجودي بينهم.

هذا المكان مكانكِ قبل أن يكون لهم.. حدثتُ نفسي، ليس هامّاً إن كانوا يرغبون بوجودكِ معهم أم لا، إنه منزلكِ. أزحتُ تلك الأفكار من رأسي وتغاضيتُ عن صورة وجوههم على مائدة الطعام. أخرجتُ أغراضي من الحقيبة المفتوحة. ما أن رفعتُ كومة من الملابس الموضوعة، حتى وجدتُ قطعة قماش وضعتها بنفسي تحت الملابس؛ كيلا يُتلف ما كان بداخلها. أزحتُ القماش عن المستطيل الصلب النحيف الموجود تحته. سحبتُ القماش فجأة راغبة بأن أصدم عينيَّ مجدداً بالصورة،رغم أنني أراها كل يوم. ظهرَ الزجاج المحاط بالبراوز الذهبي المنقوش بالورود نظيفاً، والصورة كانت واضحة. في الصورة كنتُ شابة جداً، أرتدي معطفاً أسود بلون قبعتي الدائرية. كان المعطف مغلقاً، بالكاد يظهر جزء من رقبتي. بجواري كان زوجي المرحوم مات يقف، في مقدمة الصورة يقف ولداي،و لم يكن الأكبر

وهو ديلان أقصر مني سوى بالقليل، وفي المنتصف رايان بسرواله القصير وقميصه الأسود الرسمي، والذي يشبه قميص مات. كذلك ربطات عنقهم كانت متشابهة. كانت الصورة باهتة قليلاً، ولكن وجه ديلان وابتسامته كانا واضحين جداً. كلما رأيتُ الصورة شعرتُ بأنني أراه يلعب أمامي. كانت الصورة تجمع السعادة في إطار.

السعادة تلك لم تعد موجودة اليوم، ومن بين أفراد الصورة لم يتبقَّ سواي على قيد الحياة. سقطت دمعة وحيدة على الزجاج. أدهشني اصطدامها بالزجاج فلم أشعر بها وهي تتولد في عيني. مسحتُها بإبهامي،ولم يتبقَّ منها سوى أثر الرطوبة على الزجاج.

قطع خلوتي صوت طرقات على باب غرفتي.

"تفضل" قلتُ دون أن ألتفت.

سمعتُ صوت الباب يُفتح، وبعد وقت قصير من ذلك سمعتُ صوت شاب ينادي: "عمتي مارجيت".

التفتُّ لأجد نسخة أصغر من الكساندر ممزوجة بملامح ماركوس، لكنَّ شعره المجعد كان يختلف عن شعر ماركوس المسرح بطريقة دقيقة جداً.

"بيتر، لقد كبرتَ جداً". ابتسمَ وتقدَّم ليحتضن يدي

كما فعل والده.

"أكنتِ تتوقعين أن تجديني ما أزالُ طفلاً صغيراً؟". صمتَ لبرهة ثم سألني مجدداً: "عمتي، مابكِ أكنتِ تبكين؟".أخفضَ عينيه إلى يدي التي كانت تحتضن الإطار.

أخفيتُ البرواز بين طيات تنورتي: "لا أدري لماذا تصورتُ بأنني سأجدك طفلاً لم تكبر".

"لم تجيبيني. أكنتِ تبكين؟"

"لا، لم أكن". سحبَ البرواز من يدي، وتأمل الصورة مبتسماً.

"ماتزالينَ شابّة كما كنتِ هنا. أين سنضع هذه الصورة؟".سحبتُها من يده وأعدتها إلى الحقيبة وأنا أخبره بأنني لم أحدد بعد مكان وضعها؛ فلم أكن أرغب بأن يراها الكساندر.

"أيها المخادع، نكاد أنا ومن بهذه الصورة أن نكون شخصين مختلفين". بعد صمت قصير تقابلتْ خلاله عيني بعينه الزرقاء، والتي رغم لونها إلا أن الجليد لم يكن موجوداً فيها. رغم شتاء عينيه كان الدفء فيهما. أكملتُ: "هل ستسألني لماذا عدتُ؟ ماذا أفعل هنا؟"

"لا لن أفعل، أنا سعيد بعودتكِ. أشعر بأن ذكريات

طفولتي هلّت معكِ ما إن عدتِ". كان الوحيد الذي التمستُ الصدق في كلامه، فحتى شقيقي الكساندر لم يكن في كلامه لي أيَّة عاطفة حقيقية.

أخليتُ حقيبتي الأولى من كل ما كان فيها، وقبل أن أهم بسحب الأخرى، طلب مني بيتر تركها للخدم حتى يخلوها، وعندما رفضتُ ذلك، عرضَ عليَّ مساعدتي بنفسه. توترتُ دون سبب، لم أكن أريده أن يفتح الحقيبة معي ولا أريده أن يشعر برفضي له. أخبرته بأنني تعبتُ من الترتيب وطلبتُ منه أن نخرج من الغرفة.

"هناك بعض المشاوير القصيرة التي يجب أن أقوم بها". أخبرته.

"هل تريدين مني أن أقلكِ بسيارتي؟ أو أن أخبر السائق أن يوصلك حيثما تريدين؟"

"لا سأتدبر أموري، أرجو ألا يعبث الخدم بأغراضي فتضيع".

تستثير ذاكرتي الأشياء الصغيرة أمامي، الزوايا تلك. أتعجَّب لروح المكان الخفية القادرة على استحضار مشاعر حية.. أتساءل: هل يمكن أن تصبح المشاعر جماداً خفيًّا في أعماقنا؟ حتى أسوأ الأشرار يملكون مشاعر طالما مازلنا نعتبر الكراهية والحقد مشاعر.

السكون هنا مُؤرق، وكأنهُ عندما يمتزج بهذا الدير القديم تتفعّل قدرته السحرية على إدخال الرهبة في أقوى القلوب وأقساها. شمس الظهيرة مازالت مختفية، وهذا المكان المخيف كان يحتاج إلى كامل شعاعها ليطمئن قلب زائريه. أبث قدماي أن تطأا حجر أرضية الدير، وظللتُ واقفة في الخارج لوهلة طويلة.

في النهاية قررتُ العودة أدراجي، فالعربة كانت تنتظرني عند نهاية الطريق الرملية والتي تبعدُ عن الدير أمتاراً قليلة. أحنيتُ رأسي خائبة مهزومة. كم خسرتِ يا مارجيت؟ كم خسرتِ؟

ترنحث خطوتي المرتجفة.. الخائفة، بينما أنا أترك الدير وأعود إلى الطريق. ولكنَّ صوتاً جهورياً استوقفني فجأة قائلاً من خلفي: "كنتُ أعلم بأن غيابك مهما طال، فإن له نهاية". التفتُّ بعد أن تغلغل الصوت في أعماق قلبي مستثيراً رهبة طفيفة لم أكن مستعدة لها. أكملَ كلامه: "الفرع لا يترك الأصل، وإلا مات".

"لكنني لم أمت، بل روحي ميّتة وقلبي تحجَّر.

"لهذا عدتِ من جديد". قال مبتسماً. رأس أوين مارشال الحليق كان مميزاً، أمَّا نظراته التي تخترق الروح كالسهم الحاد، فيمكن لأصغر فرد في

برادايس شيل أن يميزها. راقبتهُ وهو يتحرك ببطء شديد على سلم الدير الحجري القصير، بينما كان رأسه البيضاوي ثابتاً وعيناه تحدقان بي.

"أهلا بعودتكِ بين عائلتك، هذا هو عالمكِ". قال

"لستم عائلتي، ليس لديَّ سوى الكساندر. وأنصحكَ بألَّا تعبثَ معي بكلامك هذا، فليس لديَّ ما أعطيكَ إياه الآن. لا فائدة مني. اعذرني على صراحتي يا سيد مارشال".

"من قال بأنني أريد منكِ أكثر من وقوفكِ هنا. نحن كالجدار إن سقطَ حجر واحد منهُ فقد ترك ثغرة للشر لتدخل بيننا، وهذا ما لا نريده يا مارجيت. نحن نحارب معاً وغرضنا نبيل. ما أريده هو توفير الأمان لكم لا أكثر".

ابتسمتُ نصف ابتسامة مستهزئة: "الأمان! لمَن؟ لم يعد هناك من أخاف عليه. أنا معكَ ولستُ ضدك". قلتُ كاذبة. ابتلعتُ ريقي بصعوبة وأكملتُ: "ولكن أخشى بأن لا طائل من وجودي معك".

مدَّ كفه من بعيد وقال: "أخبرتكِ، لا أريد أكثر من وجودكِ هنا. أنتِ من أهم الأسماء في هذه البلدة، وعائلتكِ من أسمى العوائل. أنا أرحّب بكِ بين عالمكِ من جديد". لم أكن أنتظر ترحيبه، ولا

حتى ترحيب عائلتي البارد ذاك. أنا أعلم لماذا أنا موجودة.. ولا أنتظر من أحد أن يُظهر عاطفته لي.

لم ألوّح لأوين، إنما استدرتُ مبتعدة عنه وعن الدير، وبداخلي رغبة بأن أضع كلتا يديَّ على صدري؛ لأهدّئ قلبي الذي يكاد يخرج من مكانه. مشاعري كانت مزيج: خوف، كراهية، حقد، وحماس. لم أحرك يديَّ؛ فلم أكن أريد لنظرته التي تراقبني أن تستشفَّ قلقي، فخوف الآخرين هو ما يتغذى عليه هذا الشخص.

عدتُ إلى العربة، وصعدتها بقفزة واحدة كادت تلوي قدمي. أمرتُ السائق: "إلى وسط المدينة، وسأدلك على باقي الطريق".

تحركت العربة نزولاً على الطريق الرملية. اختفى أوين مارشال عن ناظري، ولم يتبقَّ لي من مكانه سوى قبة الدير المدببة تظهر سوداء تحت السماء الداكنة المليئة بالغيم. أخذ الدير شكلاً مصغراً للقلاع التي تصورها القصص القوطية فوق الجبال وتسكنها الأشباح. تحركت العربة نزولاً أكثر على الطريق إلى أن اختفى الدير عن ناظري تماماً. ألقيتُ نظرة عندما ابتعدنا قليلاً عنه، فكان قد اختفى بين أشجار البلوط الضخمة المحيطة به.

تتجاوز العربة الطريق الرملية، وتصل إلى الشارع

المصبوب بالحصى الصغيرة بين المباني الحجرية الأطول. تزداد سرعة العربة متجاوزة الشارع الجانبي لطرف المدينة البعيد عن البحر. يضيق الطريق قليلاً بين المباني الفيكتورية القديمة الموجودة على الجانب القريب من الغابة، وهو الجانب الأقدم من المدينة، ويمتد حتى الساحل. بينما قلب المدينة كان عمر المباني فيه أحدث قليلاً.

لم تتغير معالم المدينة كثيراً، إنما ازدادت مبانيها، وضاقت شوارعها قليلاً. هناك العديد من الوجوه الغريبة يمشي أصحابها في الشوارع. لقد حدثَ هذا التطور في فترة قصيرة جداً.

تحركت العربة إلى آخر الطريق، وعند تقاطع طريقين عريضين انعطفت العربة يميناً. طلبتُ من السائق أن يهدّئ من سرعته، كان جسدي يترنح في المقعد بسبب إطارات العربة التي كانت تتحرك كما لو أنها تقفز، والأرض المغطاة بالحصى كانت غير مستوية. توقفنا أمام صف مبانٍ قصيرة متشابهة. ضربتُ مقعد السائق وصحتُ طالبة منهُ أن يتوقف على جانب الطريق بالقرب من الرصيف. ترجلتُ من العربة بسرعة،و كلَّمتُ العامل الذي اختفى وجهه تحت قبعته الثقيلة.

لكزتُ كتفه بعد أن ناديته ولم يجب عليَّ، استيقظَ مجفلاً وبدأ يمضغ رغم أنَّ فمه كان خالياً من الطعام. مسحَ بظهر كفّه طرف فمه، ومن ثم رمشَ مرات عديدة. سألتهُ دون أن أنتظر منه استعادة تركيزه: "هل تيموثي بارنز يقطن هنا؟"

"تيموثي.. تيموثي مَن؟" سألني وبدأ يتلفَّت في مكانه، وهو جالس على كرسيه الأبيض.

"تيموثي بارنز.. شخص ما كان يعمل في سلك الشرطة".

"آه.. تقصدين ذلك المُدمن الحقير. لم يعد يقطن هنا، ولا أدري أين يعيش، كل ما أعرفه أنه آثرَ أن يشتري الشراب بدل أن يدفع الإيجار". تفحّصتُ المكان بنظري. كان المبنى نظيفاً وجديداً فيما سبق، ولكنه الآن يبدو بحالة مزرية، وعلى زوايا الجدران تجمعت طحالب خضراء غريبة.

"ألا تعلم إلى أين انتقلَ؟"

"وأين تتوقعين إيجاد مُدمن؟ أراه دوماً في الحانة نائماً في إحدى زواياها". سألتهُ أن يصف لي طريق الحانة، وعندما دلني تركته ذاهبة إلى العربة دون أن أشكرهُ حتى. وصفتُ الطريق ذاته للسائق، كما وصفه لي الحارس.

صاحبة الحانة

بينما أكملُ غسل ما بقيَ من الصحون المتسخة في المطبخ الداخلي استعداداً لفتح أبواب الحانة بعد ساعة ونصف، سمعتُ باب الحانة الرئيسي يُفتح، عقدتُ حاجبيَّ في تساؤل والغضب يعتريني، و أنا أتوعَّد ابنتي بالمعاقبة. لقد خرجتْ وتركتْ باب المدخل الرئيسي غير مغلق مرة أخرى، والآن عليَّ طرد أيّاً ممَّن كان قد دخل، وباشرتُ بذلك قبل أن أخطو خارج المطبخ وتلتقي عيناي بالداخل حتى "المكان مغلق".

وبعدها فقط، وقفتُ أتساءل عن السبب الذي سيجعل امرأة أنيقة يبدو أنها في نهاية عقدها الثالث، تقف عند باب حانتي التي لم ولن ترقى إلى مستواها بكل تأكيد، حتى وإن كانت تلك المرأة لا ترتدي ذلك المعطف الغالي، أو تنتعل حذاءً ذا كعبٍ مرتفع، فقد كانت هالتها الرفيعة هي التي لم تتناسق مع ديكور حانتي الخشبي المتواضع!.

تجاهلت المرأة كلماتي، واندفعت أكثر إلى داخل حانتي، متجهة إلى الطاولة الرئيسية الخشبية، فاقتربتُ بدوري وأنا أشعر ببعض الارتباك، تتحرك عيناي تلقائياً لتمسح سطح الطاولة وأرضية الحانة بحثاً عن أية أوساخ، لأني لم أكن قد انتهيتُ من

تنظيفها بعد، بينما قد مسحتُ أرضية الحانة ووضعتُ كراسي الطاولات مطوية على طرفها، ومفارش الطاولات كانت مكومة فوق سطحها الخشبي. سحبتُ الهواء إلى رئتيَّ بصورة متتابعة لأتأكد من عدم وجود أية روائح كريهة في المكان. لحسن حظي أنَّ المكان عبقَ برائحة الهواء البارد الداخل من النوافذ القليلة المفتوحة، تغيرت الرائحة فور وصولي إلى الطاولة، فأصبحت مزيجاً من رائحة الهواء النقية ومسحوق تنظيف الأرضيات والصابون، شعرتُ بالراحة لذلك؛ فأنا الآن مستعدة للتحدث معها بكل ثقة وقد أتمادى لأكسبها زبونة لديَّ، سأفتح لها الحانة بأكملها إن قررت الجلوس إلى طاولتنا الآن!

"لديَّ سؤال". قالت بصوت خرجَ منها بنبرة واحدة لم تتغير.

قلتُ وأنا أمسح يدي بمنشفة تشبه التي كانت مكومة على الطاولة. وأنا أحاول تعديل ما يمكنني تعديله من شعري ذي لون الكاراميل الذي أفخرُ به كثيراً: "بالتأكيد، هل أنتِ جديدة في البلدة يا سيدتي؟ هل يمكنني أن أقدم لكِ شيئاً؟"

أجابتني بصوتها الرزين: "ليس تماماً، تيموثي بارنز، هل يتردد على هذه الحانة؟".

لوهلة لم أصدّق ما سمعتُ، قلت: "ذلك الحقير الذي لا يسدد ديونه أبداً. لماذا قد تسأل سيدة مرموقة مثلكِ عن نكرة مثل تيموثي؟". زممتُ شفتي ورفعتُ حاجبيَّ. تساءلتُ إن كانت هذه فرصتي للحصول على بعض المال أخيراً من محفظتها،بعد كل الخسائر التي سبَّبها لي ذاك الرجل!

"طبقتُنا الاجتماعية لا تحدد علاقاتنا".قالتْها بجمود يؤكد لي أنها لن تدفع عنه فلساً، سألتني: "أتعلمين أن يقطن؟".

أعطيتُها ظهري لخيبة أملي، ومشيتُ بتكاسل متعمد وأنا أبحثُ عن أغلى زجاجة عندنا، وأجبتُ بطريقة ناعسة سبُبها بحثي بين الأسماء": لا أعلم أين يقطن تحديداً،ولكن يمكنكِ انتظاره بكل تأكيد،.. أتحبّين احتساء مشروب"؟. قلتُ ذلك وأنا أستديرُ بسرعة والزجاجة بيدي أعرضُها عليها لتدرك الكنز الذي ربما ما توقعتْ أن تجده في هذه الحانة المتواضعة، لكنها شكرتني ووضعت ورقة نقدية على الطاولة، سألتني: "سؤال أخير، متى يأتي إلى الحانة"؟

كانت تلك الورقة شكرُها المتواضع لي، لم تكن تنوي احتساء أي شيء، ولكن لم يعنِ هذا انعدام

الأمل، فما دامت تسأل عن وقت قدوم تيموثي، هذا يعني أنها تنوي العودة،وربما ستحتسي معه الشراب الغالي عندها! أجبتُها فوراً: "يأتي في العاشرة، لا يتأخر دقيقة واحدة، ويبقى لساعتين أو حتى أطردهُ في الساعة الواحدة".

شكرتني واستدارت لتغادر، لسبب ما وقفتُ مكاني أبتسم، والاحتمالات تغزو رأسي بخصوص الربح الكبير الذي قد أتمكّن من جنيهِ اليوم، ونظرتُ إلى الباب بابتسامة متسعة أكثر عندما فُتح على عجل فجأة، قالت لي ابنتي وقد وقفت مكانها تُناظرني بتساؤل ممزوج بخوف وتوتر: "أنا أعتذر؛ لقد نسيتُ أن أغلق الباب".

"كلا يا عزيزتي! أحسنتِ صنعاً".

عدتُ إلى المطبخ وأحلام اليقظة تعيثُ فساداً في عقلي، أحرصُ على تلميع الصحون والأكواب بجهد إضافي عمّا اعتدتُ عليه كل يوم، بحماس لم أشعر به منذ زمن طويل، مضت ساعات التجهيز بسرعة، ومنذ زمن طويل لم أستقبل الشرطي المتقاعد تيموثي بارنز بتلك السعادة الغامرة، فرحتُ وأنا أراه يمشي مشيتهُ الثقيلة المعتادة نحو كرسيه المعزول في زاوية الحانة، والذي أصبحَ شبهُ محجوزٍ باسمهِ، يجلسُ عليه مولياً جميع من في الحانة ظهره ليقابل

الجدار، فيحتسي الشراب وهو ينظر في الجرائد أو يقلب بين صفحات دفتره المحمول الصغير، ولا يلحق بمَن يجلس بقربه إلا سوء الحظ. فعلى الرغم من أنَّه سكّير منعزل، إلا أنهُ لا يصمت عندما يبدأ بالحديث عن قصص مرعبة مقيتة وقضايا قديمة تُضعف القلوب. كثيرون من زبائني أصبحوا يتجنَّبونه، ولولا أنه يدفع لي ديونه المتراكمة كاملة بين فترة وأخرى، ويزيد أحياناً في المبلغ كما يقول لأكوابه المستقبلية، لكنتُ طردته بدوري قبل أن تطأ قدماه أرض حانتي.

وصل في العاشرة كعادته، ومنذ وصوله وعيناي معلّقتان بالباب، مضت أربعونَ دقيقة ولم تأتِ المرأة، فوضعتُ كأساً مليئاً بالشراب على الصينية وحملتُها إلى تيموثي، قدَّمتها له فنظر ببطء يحمل تساؤلاً؟ فهو لم يطلب كأساً جديدة، لكنه قبِلها مني دون نقاش، وحينما كدتُ أفتح فمي لأخبره عن الضيفة التي سألت عنه منذ ساعات، دخلت المرأة نفسها عبر باب الحانة بأناقتها!، بشعرها المصفف، بنظراتها المتعالية، بكعب حذائها وبمعطفها الأنيقين. لقد كانت نفسها! وقد جاءت! أصدرتُ شهقة سعادة وقلتُ له دون أن أشرح ما جرى سابقاً: "لقد جاءت يا تيموثي! جاءت!".

نظرَ تيموثي إلى الضيفة، أو كما أنا سعيدة جداً لأسميها "الزبونة". ركضتُ نحو الطاولة لأحضر زجاجة الشراب العتيقة، وعيناي مسلّطتانِ على المرأة تارة وعلى طاولة تيموثي تارة، وكأنني سأسحبها للجلوس هناك بنظراتي. وفي اللحظة التي أمسكتُ فيها الزجاجة وفتحتها، كانت المرأة قد اختفتْ.. لم تعد زبونة!. لقد تبادلت النظرات مع تيموثي وغادرت. قلتُ في نفسي: ربما ستعود.مؤكد ستعود!كانت تسأل عنه. لقد فتحتُ أغلى زجاجة عندي لها! عادت كضيفة واختفت.

توجهتُ إلى تيموثي أسألهُ بصدمة لم أتمكن من إخفائها: "من تلك المرأة؟ ألن تشرب معكَ اليوم؟"

نظرَ إليَّ وإلى الزجاجة التي أمسكُها في يدي، انطلقت منه ضحكة سمعها كل مَن في الحانة وقال: "مَن؟ هيَ؟ لقد أخطأت الطريق لا أكثر".

"و لكنها جاءت تبحث عنكَ مسبقاً اليوم".

"لم أنكر معرفتي بها، إنها أرملة السيد ستروم".

كادت الزجاجة أن تسقط من يدي لولا أن تيموثي أمسكها، وصبَّ لنفسه كوباً، وفي مبادرة نادرة، أعلنَ أنه سيتشارك أغلى زجاجة تمَّ فتحها مع بقية رواد الحانة. وفي لحظة كان الجميع يهللون رافعين كؤوسهم، يشكرونني ويشكرونه، يسألونهُ عن

المناسبة، فيقول: "مكافأة لما صبرنا عليه من هذه الدنيا". عدتُ لأقف خلف المنضدة، وخيبة الأمل ثقيلة عليّ.

ليتني أصرَّيت على معرفة هويتها قبل أن يغزوني الحماس العارم، فلو كنتُ علمت أنها أرملة السيد ستروم، السيدة مارجيت لورينت، لما استهلكتُ مشاعري أبداً. يستحيل أن يدخل أحد أفراد العوائل المؤسسة لبلدتنا بارادايس شيل هذه الحانة!.. لقد غابت السيدة ستروم عن البلدة فترة طويلة لدرجة أنني لم أعرفها. لأكون صادقة، ظننتها قد ماتت منذ زمن طويل، وانضمَّت إلى أشباح عائلتها ليلتمَّ شملهم أخيراً، تلك المرأة المسكينة التي فقدت الجميع. على أية حال، لا يمكنني أن أبقى جالسة وهم يتقاذفون زجاجتي الثمينة يميناً ويساراً، مادمتُ فتحتها وسألصقُ ثمنها بفاتورة تيموثي، يحقُّ لي أن أرتوي منها بدوري، فهذا ليس مشروباً يمكنني شربه كل يوم، وإن كنتُ أملكُ حانة.

مجهول

الشر موجود بطريقة لا يمكن إنكارُها، بقدر ما يبدو تأكيدها صعباً. فهو كبعض الماء الذي يتحد مع تدفق جدول ما. هو صفة وشعور قديم، موجود قبل أن يهبط الإنسان على هذه الأرض. بطريقة بديهية وضعهُ الإنسان ضمن الجانب الآخر المنافي للخير، مما يجعله سيئاً بطريقة بحتة. لكن هناك من يعتقد بأنه لا ينتمي إلى أي جانب، هو مجرد اسم تعريف لشعور غريب أناني. ولكن ليس من الضروري أن ينتمي إلى الجانب الأبيض أو الأسود حتى. هو دافع يحيط بغاية ما، ووسيلة يتّخذها أي مخلوق للوصول إلى هدفه عندما يعجز عن التفكير بطرق طبيعية قد تبدو له بطيئة.

وقفتُ أنظر إلى نفسي في المرآة مطولاً، الهالات التي أراها تحت عيني لم تكن موجودة البارحة، أيُعقلُ أن يتغير شكل المرء إلى درجة أني لم أعد قادراً على تمييز نفسي في غضون يوم واحد فقط؟ تأملتُ نفسي طويلاً، وكأنَّ هذه الملامح لا تنتمي إليَّ، بل كأنني لم أكن أنا يوماً ولم أسكن هذا الجسد أبداً. لا يحذّرك الزمن من طول المدة التي يستهلكها قبل أن يضمّك إلى دائرة القصة التي وُضعت في آخر مسارك، ولكنه يرميكَ فيها فجأة

دون تحذير واضح. لكنَّ الحياة بدورها تصنعُ لك درعاً يمتص الصدمات، وذكاؤك هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا الدرع.

أطلقتُ ضحكة ضعيفة خالية من الإحساس، كأنها هي كل ما أقدرُ عليه. لقد توقعتُ أن أكون أقوى من هذا بكثير، ظننتُ أنني تركت كل ما جرى خلفي، وأنني تجاوزتُ الأمر؛ ببساطة لأنني في غضون السنوات الثماني الماضية، توقفتُ عن التفكير به.. توقفتُ عن تذكير نفسي بما جرى تدريجياً، وفي النهاية نسيتهُ. لكن كما يبدو لي الآن من إرهاقي وانقباض قلبي، أنني لم أنسَ أي شيء.. فقط، اخترتُ أن أتناسى.

اخترتُ أن أتناسى الحادثة التي جعلتني أرتدي هذا الرداء أول مرة، رداء أسود طويل، سيخفي على الأقل وجهي خلف قلنسوة الرأس الهائلة هذه، لن يعرف أحدٌ إن كنتُ سأغمض عيني، أو إن كنتُ أعضُّ شفتي، سيُخفي دموعي على الأقل، إن لم تكن قد جفّت بعد. فطوال السنوات الثماني الماضية لم أذرف أية دمعة، لقد أدركتُ ذلك الآن. تُرى هل مات هذا النبع الذي يروي الحياة بداخلي بعد ما شهدتهُ في ذلك اليوم؟

* * * * *

بدأت أستذكرُ ذلك اليوم بكل تفاصيله، أتذكر قبضة السيد مارشال الشاب القوية على ذراعي والتي جعلتني أتساءل: كيف لرجل هزيل مثله أن يكون بهذه القوة التي لم أتوقعها قط، لقد كانت عيناه تلتمعان لهيباً حارقاً، وصوته كانَ حاداً بارداً كرمح ينغرز في القلب، لم يكن سيسمح لي بالتراجع حينما قال: "إلى أين ستذهب؟ أستتخلى عنا؟ أستتخلى عن أهلكَ جميعاً؟ أستتخلى عن هذه الأرض؟ عليك أن تفعل هذا، عليك أن تظل معنا وتصبح واحداً منا.. عليك أن تحمينا كما نحميك".

لم يكن سيسمح لي بالفرار، أو بالتراجع، أو بإغلاق عيني حتى، كنتُ أنا ضيف شرفهم في تلك الأمسية، كنتُ فخرهم الجديد، نظرتُ إلى المرأة الأخرى التي كان وجهها قد تشقق من كثرة البكاء والصراخ والعويل، لكنها في تلك اللحظة فقط، قطعت كل ألمها، لتقول لي بصوت واضح، كلمات تطاردني حتى الآن، وتمزق أحشائي بلا رحمة:

إنَّ الشر موجود... ليس ما تهابونه وتحاولون ردعه باجتماعكم اليوم هنا.. إنه يقف إلى جانبنا وخلفنا... إنَّ الشر مكنون في داخلنا!

بالطبع.. كان ذلك آخر ما نطقتْ به.. وكانت تلك آخر مرة أراها..

لقد قدتُها بنفسي إلى التابوت، ودفعتُها إلى داخله.. كانت تبكي وتنظر إليَّ دون أن تنطق، عيناها تحملان الكثير، غضب يعتريهما في رغبتها بالتمرد والعيش، ويأس تام في أن لا أحد من الموجودين هنا يريدها أن تعيش! ولن يساعدها أحد على الهرب،.. الكل يريدونها أن تموت، كل من عرفها يوماً!

دون أن أشعر، ثبَّت أحدهم سكيناً في يدي، وأطبق أصابعي حول قبضتها. ارتعدتْ المرأة، وفوراً انهالت القبضات على أطرافها تثبّتها، وأيدي تكتم صرخاتها، وتعالت الهتافات باسمي، فتسارعت أنفاسي.. وتخدَّر عقلي.. وهو يكرر في دواخله ما يسمعه من حوله:

"انتَ تفعل الفعل الصحيح!!"

"أنتَ تنقذنا! "

"أرجوك أنقذنا"

وهويتُ بالسكين مخترقاً برأسه قلبَ المرأة، على الأقل هذا ما أردتُ تصديقهُ. لا أدري أين هويتُ بالسكين بالضبط، كل ما أعرفه أنَّ غيري سحبَ السكين وطعنها بدوره، ثم جاء ثالث ورابع.. لا أدري كم مرة اخترقَ فيها النصل الحاد لحمها، لكن لم يدم الأمر طويلاً حتى توجَّب عليَّ إنهاء مهمتي..

عندما تقدمتُ من التابوت الذي يحتوي جسدها من جديد لأغلقه، وجدتُ نظراتها الضعيفة المتمسكة بما بقيَ من حياتها مغروزة في مقلتيّ، وأنا لم أجرؤ حتى على الإشاحة بنظري.. ظللتُ أنظر نحوها، حتى أغلقتُ التابوب عليها، مؤكداً موتها، وإنهائي لمهمتي، وأنا متأكد أنه منذ ذلك اليوم.. حُبست روحي داخل التابوت مع جثتها

إن كانت التجربة الأولى.. قتلت كل هذا بداخلي..

ماذا ستترك فيَّ.. التجربة الثانية؟

تماماً مثل المرة الأولى، عندما تأخرتُ في الخروج من منزلي للقاء الجميع، عندما كنتُ أعاود التفكير فيما نحنُ مقدمون على فعله، عندما بدأ الشك يتسلل إلى قلبي ويشجعني على التردد والهرب، أجدُهم ينتظرونني عند الباب: أهلي.. أصدقائي.. جيراني.. سكان بلدتي!، يستعجلونني في الانضمام إليهم، وإن تأخرتُ أكثر؛ يقتحمون منزلي، ليحيطوني بأذرعهم، ويجرفوني معهم... من دون عنف، من دون ضغينة، من دون لوم،.. يحيطني أحدهم حولَ كتفي وهو يقول ببساطة: "هيا بنا لكي لا نتأخر،.. الطقوس لن تبدأ قبل اجتماع الجميع!".

"أجل يجب أن نبدأ بسرعة وننتهي بسرعة؛ فغداً لديَّ موعد هامّ لابد أن أفي به!".

أضافَ آخر بكل بساطة:

لا داعيَ للقلق، يبدو أنكم لم تشاركوا في الطقوس منذ مدة طويلة! لم تعد الطقوس تأخذ وقتاً طويلاً منذ أن بدأنا بتخدير الأضحية قبلَ ثلاث سنوات مضت، أصبح كل شيء يجري على ما يرام.. نقتلهم دون أية مقاومة، دون طلبات استنجاد أو نحيب،.. إنها طقوس هادئة جداً". قالتها امرأة بكل رحابة صدر.

"هذا رائع! إذاً سأكون في المنزل أسرع مما توقعت".

بقيتُ صامتاً أثناء هذا الحوار، الذي جرى وهم يسحبونني معهم بلطف إلى خارج المنزل، لأجد مجموعة كبيرة من الناس ينتظرونني،.. لم أميز أيَّ أحد منهم، حيث كنا جميعاً نرتدي عباءات تخفي وجوهنا وجميع أجسادنا، والظلام لم تبدّدهُ سوى بعض المشاعل النارية.لم أنطق بأية كلمة ونحن نسير معاً نحو بيوت مختلفة، بعضها نجد أصحابها يرتدون العباءات، وينتظروننا عند الأبواب بكل لهفة للانضمام إلينا... هناك آخرون توجَّب أن تدخل مجموعة منا إلى بيوتهم؛ ليجلبوهم معنا بنفس الطريقة اللطيفة، الروتينية، التي سحبوني فيها من منزلي لأنضمَّ إليهم. نسيرُ الآن جميعاً نحو وجهة

واحدة، لا يمكن لأحدنا الهرب، لا يمكن لأحدنا التراجع، جميعنا في هذا معاً. ولكنني سمعتُ بوضوح امرأة في هذه المجموعة تحاول كتم شهقات بكائها، سمعتُ كلمات المواساة تنهال عليها، وكأنها طفلة يخبرونها بأنَّ هذه تجربة لابد أن تمر بها لكي تكبر أخيراً.

"هوّنِي عليكِ، أنتِ لك شرف إنقاذنا هذه المرة. لا تبكي؛ أنتِ لا تفعلين شيئاً سيئاً "

"ما هذا الجيل الذي لا يريد أن يساهم لأجل مجتمعه! ما هذه النكتة؟!".

"صدقاً، كل ما عليهم فعله هو غرز سكين في القلب، في جسد نائم لن يقاوم! ونسمع كل هذا البكاء؟ سخافات".

"ماذا كنتِ ستفعلين عندما كانوا يصرخون ويحاولون الهرب، ويجب عليكِ ملاحقتهم وقتلهم منذ سنين مضت؟"

تعالى صوت البكاء، وتكاثرت التشجيعات والتهديدات، ..و لكن كل ذلك لن يفيد الآن، لا هرب لمن يختارونه لإنقاذهم.. سينقذهم وسيخسر نفسه لينقذ الجميع، وسيصبح منّا..سيصبح أخيراً، قاتلاً مثلنا.

سِرنا في موجة واحدة إلى وِجهتنا المقصودة، والتي أجزمُ أنني لو حاولتُ الوصول إليها في وضح النهار لما عرفتُ أين تقع؟، كل ما أفعله أنني أتبعُهم، حتى إنني لا أعلم من يقود المجموعة، يبدو فقط أن الجميع يعرفون إلى أين عليهم أن يذهبوا..

بدأت الحوارات الجانبية تقلُّ تدريجياً،و بدأتُ أختنق بثقل الهواء، أنفاسنا الثقيلة هي فقط كل ما بقيتْ، تعزف سيمفونية الموت على صوت ارتطام أقدامنا بتراب الأرض.

بدأنا بنزول سلالم مخفية في وسط الغابة الباردة... الطريق ضيق مظلم، وكأننا ننزل بأقدامنا إلى قبورنا، الدرجات طويلة، نزولها متعب جداً، حينذاك، كنتُ أنا أيضاً متعباً جداً، أريد أن أهرب، أريدُ أن أتنفس. لا أريد أن أكون هنا.. لا أريد.

تباطأتْ قدماي دون أن أشعر، وبدأتُ أُحسُّ بتوق رئتيَّ للامتلاء بالهواء الخارجي. أشعرُ بألم الاختناق في صدري، لكنَّ دفعة من الخلف أجفلتني، وفوراً سحبَ أحدهم ذراعي من الأمام، لأكملَ السير دون مجال للتراجع، لأكمل نزولي معهم دون تباطؤ، فلم يعد هنالك مجال للهرب. لم يكن هنالك سبيل إلى ذلك، أصلاً من الأساس لن يهرب أحد ممَّا سيجري، سيشارك الجميع.. وسنصبح جميعاً معاً.

وصلنا إلى بهو كبير كان ممتلئاً بمن سبقونا، يرتدون نفس عباءاتنا الثقيلة والتي تغطي وجوههم، يمسك كل منهم بشمعة ويقف في نقطة ما على مدار هذا البهو الدائري الممتلئ،.. والذي لم أسمع فيه همسة واحدة، حتى صيحات بكاء المرأة التي رافقتنا طوال الطريق قد توقفت، وهي الآن تقف ممسكة بسكين بين يديها بكل حذر، كانت الوحيدة بيننا التي لا تمسك شمعة.

ظننتُ أنَّ المكان كان هادئاً بما فيه الكفاية، ولكن لم يكن هنالك مجال للمقارنة مع الهالة التي اكتسحت الهواء،عندما ظهر أمامنا من بين الجموع أشخاص يرتدون عباءات مختلفة عن عباءاتنا العادية، إنهم "الكبار"!. بلا شك! لن أنسى مظهرهم هذا أبداً، لم يختلف أبداً منذ رؤيتي لهم في تجربتي الأولى، كانت الرداءات السوداء الثقيلة والتي تغطي حجم أجسادهم بسبب وسعها، تطريز الأكتاف فيها واقع في مركز كتفهم. منتصف الرداء كان مغلقاً، إلا أنهُ بدا كما لو كان مفتوحاً لوسعه. والنصف العلوي للرداء المغلق مطرز بخيوط ذهبية تصل إلى رقابهم، وتنتهي عند قبعات الرداء التي كانوا يعتمرونها لتخفي رؤوسهم تحتها. أمَّا وجوههم فكانت مختفية وراء أقنعة ذات لون كرومي خالية من الملامح.. حتى صوت الأنفاس لم أعد أسمعُها. كان ذلك

هو صمت القبور بلا شك.. مجموعهم هو أربعة أشخاص، جميعنا كنا نعرفهم تماماً ولو كانوا هم لا يعرفوننا نحن لكثرتنا.. ولكن لا مجال للشك، السيد أوين مارشال، برفقة كبراء عوائل بانكرافت ولورينت وآدامسون العوائل المؤسسة لهذه البلدة، والتي ابتدأت هذا الطقس الذي نجتمع فيه جميعاً الآن.

راقبتُ سادة العوائل الثلاث، يتحركون ليأخذ كل منهم موقعه على طرف من أطراف نجمة سداسية تتوسط دائرة حمراء مرسومة على الأرض. فردوا أذرعهم ليشكلوا دائرة أخرى بأجسادهم وأيديهم، يستحوذ جسد كل واحد فيهم على طرف من أطراف النجمة السداسية، ويظل الطرف الذي يتوسطه هو والآخر بجانبه فارغاً. لامسَ كل منهم الإصبع الوسطي للآخر بشكل خفيف، ولكن لم تتحرك عينَي أيٍّ منهم. كانوا يحدقون للأسفل في مركز تلك الدائرة المليئة بالنقوش والرموز، والتي أصبحت لامعة بسبب انعكاس أضواء الشموع عليها، بينما يقف السيد أوين مارشال بجانبهم يضم يديه معاً ويتلو دعوات. احتشدت جموع قليلة من الناس مشكّلين دائرة أكبر ولكن عشوائية حول الثلاثة الكبار. وقفوا مخفضين أذرعهم بالتوازي مع أجسادهم، أعينهم لا تكف عن النظر إليهم. وعندما

هدأت حركتهم في التشكل بهذه الصورة، لم أعد أسمع سوى أصوات أنفاسهم. عندها أشارَ أحدهم إلى المرأة التي تحمل السكين: أنَّ وقتها قد حان.. مشتْ بخطوات وكأنها منومة مغناطيسياً نحو جدار حجري قصير، وضعت عليه ثلاثة كؤوس، خلفه ثلاثة توابيت، لتفعل ما يتوجَّب عليها فعله.. فتحَ لها أحد مرتدي العباءات كل تابوت على حدة، ومهمتها هي أن تغرز سكينها لتقتل من كانوا ينامون في داخل تلك التوابيت.

راقبتُها وأنا أزدردُ لعابي. يتعرق جبيني.. أتذكرُ ما فعلته أنا.. عندما قتلتُ امرأة واحدة فقط.. أمَّا هذه المسكينة فستقتلُ ثلاثة!

ترددتْ قليلاً قبل طعن من يقبع في التابوت الأول. احتاجت أن تصرخ لكي تكسر تجمّد يديها اللتيْنِ ترفعان بهما السكين عالياً، وتهوي بها في الطعنة الاولى، ثم تستجمع أنفاسها، وتمشي نحو التابوت الثاني، لتطعنَ من يقبع في داخله كذلك، وهي ترتجف وتبكي، ثم تستجمع قواها الخائرة، نحو التابوت الثالث من دون صراخ أو تردد. قتلتْ مَن بداخله بعدما يبدو أنها قتلت نفسها ولم تعد تشعر بشيء.. هوتْ بعدها على قدميها خائرة القوى، ليرفعها البعض ويبعدوها، حيث إنها قد نفذت

مهمتها وما هو مطلوب منها. لقد أنقذت الجميع، ولقد أصبحت مثل الجميع!، ثم تناوبَ الموجودون على إمساك السيف وتوجيه عدد لا يحصى من الطعنات إلى الجثث التي تقبع في التوابيت لمدة من الزمن، دون أي تأخر أو تردد.

لقد قتلناهم.. انتهى الجزء الأصعب.

حمل أحدهم الكؤوس ليضعها أسفل التوابيت الثلاثة، كانت كؤوساً معدنية كبيرة الحجم ولكن يمكن حملها بيد واحدة، بدأت دماء من تمَّ قتلهم داخل التوابيت، تتسرب منها لتسقط في الكؤوس بقطرات سريعة.

بدأ الطقس عندما دوّى صوت السيد أوين مارشال: "اليوم يولد إلهُنا، ليخرج ويعطينا.. ويحمينا... ولتبقى هذه المدينة تحت ظلاله"

و سرعان ما امتلأت الكؤوس بدماء القتلى الثلاثة الذين تحبسهم توابيتهم، وحمل ثلاثة أشخاص تلك الكؤوس المملوءة حتى آخرها بالدماء الجديدة، تقدَّموا بحيطة حتى لا تنسكب أية قطرة دماء ثمينة من حواف الكؤوس، وقدّموها بحذر أكثر من سابقه للثلاثة الكبار.

خفضَ الثلاثة أذرعهم اليمنى والكؤوس المعدنية في أيديهم اليسرى. مدَّ كلٌّ منهم يده أمامه حتى

تلاقت الأذرع عند مركز الدائرة. ودون أن تصطدم الكؤوس ببعضها،أخفضوها وصبّوا ما كان في بطنها على مركز الدائرة بخفة وهوادة. انتشرت الدماء التي احتوتها الكؤوس على النقوش في الدائرة بطريقة عشوائية. تطايرت بعض قطراتها المصطدمة بالأرض على رداءاتهم السوداء، حتى فرغت الكؤوس من الدماء.

بدأ الثلاثة الكبار بتمتمة كلمات ليست مفهومة، بعد أن أعادوا فرد أذرعهم ليشكلوا دائرة، كلمات كل منهم كانت تختلف عن الآخر ولكن جميعها كان مصدرها واحداً، وهو كتابهم المقدس، الذي كان موضوعاً على الجدار الحجري خلفهم.كانت تلك هي الختاميات، سينتهي كل هذا في غضون الدقائق القادمة، وسأعود إلى حياتي العادية، أنا وكل الحاضرين هنا، متجاهلين ما فعلناه الليلة، لأننا وبكل بساطة، قد فعلنا الفعل الصحيح.

وصلت إلى أذنيَّ تمتمات وزفرات الراحة من الحاضرين، يمكنهم العودة الآن لاستكمال حياتهم ناعمين بالطمأنينة والسلام التي وُعدوا بها لإتمامهم الطقس بنجاح، وهذا ما بدأنا بفعله حقاً، عاودنا الصعود من نفس المدخل الضيق الذي نزلنا منه سابقاً، لا يرافقنا الصمت المطبق ثانية، بل كان

هناك أحاديث صغيرة بين الجموع.. لقد أصبح الأمر روتينياً لبعضنا أكثر من غيرنا، لدرجة أني سمعت أحدهم يسأل همساً: "أيودُّ أحدكم أن نحتفل بالشرب حتى الصباح؟"

وبعد دقائق كنتُ أملأ رئتيَّ برائحة الغابة الباردة، بينما مانزال نسير في موجة واحدة، بخطوات أسرع، يبادر البعض إلى خلع عباءاتهم السوداء ذات القلنسوة الواسعة في منتصف الطريق، تنير مشاعل النار أوجههم، أرى ضحكاتهم وسعادتهم وراحتهم بعد قتل ثلاثة من أفراد بلدة بارادايس شيل، ترى هل أنا الوحيد الذي أشعر بأنني لم أعد أقوى على الاحتمال؟..

هل أنا الوحيد الذي ينتابهُ الذعر لفكرة أنني قد أكون الضحية القادمة؟ وأنَّ بقائي على قيد الحياة سيعني الموت للجميع؟ وأنه لو وقع الاختيار عليَّ، فإنني سأتحول في نظر جميع أهلي وأقربائي وأحبابي إلى مجرّد أضحية لا يحق لها أن تتحدث وتعترض، وأن تطالب في حقها المشروع بالحياة؟

هززتُ رأسي لأطرد تلك الأفكار التي عملتُ جاهداً لثماني سنوات ماضية كي أقمعها، وقد نجحتُ في فترة من فترات حياتي أن أتناساها.. وربما سأفلح هذه المرة أيضاً، فيجب أن أواجه الواقع، حتى وإن

هربتُ من هذه البلدة.. فإنهم سيصلون إليَّ.. هم دوماً يصلون إلى كل من يهرب.. الحل الوحيد هو أن أبقى أسير الخوف بينهم، أدعو ليلاً نهاراً ألَّا يتمَّ تسليط الضوء عليَّ.. وألَّا أستيقظ في يوم من الأيام داخل إحدى تلك التوابيت أنتظرُ الموت فحسب.

تذكرتُ كلمات من مزَّقتْ قلبها بيدي، عندما تمَّ اختياري لتنفيذ الحكم،.. كلمات تلك المرأة التي ضربها أهلها بعنف؛لأنها اعترضت على مصيرها وحاولت الهرب، وسحبوها من شعرها بكل وحشية ليقدموها أضحية للبلدة.

"إنَّ الشر موجود... ليس ما تهابونه وتحاولون ردعهُ باجتماعكم اليوم هنا.. إنه يقف إلى جانبنا وخلفنا... إنَّ الشر مكنون في داخلنا".

توقفتُ عن السير...وكأنني أسمعها تقول كلماتها تلك الآن.. وكأنها تقف إلى جانبي تهمسها في أذنيَّ.. تغرسها في قلبي..

"إنَّ الشر موجود... ليس ما تهابونه وتحاولون ردعه باجتماعكم اليوم هنا.. إنه يقف إلى جانبنا وخلفنا... إنَّ الشر مكنون في داخلنا"

مرة أخرى.. إنها لا تتوقف... لا تتوقف!..

أشعرُ بارتطام الناس بجسدي، وهو الشيء الوحيد الذي يرغمني على السير، أحسستُ بأحدهم يلقي نظرة على وجهي ثم يحيطني بذراعه بكل عطف ويقول لي: "هوّن عليك... سأعيدكَ إلى منزلك".عاودتُ المشي بفضله هو.. حاولَ أن يحادثني، ولكني لم أكن مركزاً في كلماته،.. لا تدور في رأسي سوى جملة تلك المرأة التي قتلتُها.. والتي أصبح صوتها أعلى عندما خطوتُ إلى داخل منزلي الذي أسكنه وحيداً، استمدَّتْ قوتها من جميع أشباح الأفكار والأحاسيس السابقة التي حبستُها في زوايا هذا البيت.. طوال ثماني السنوات الماضية.

أخيراً انتصرتْ، وبدأتُ أنا أكرر:

"إنَّ الشر موجود... ليس ما تهابونه وتحاولون ردعهُ باجتماعكم اليوم هنا.. إنه يقف إلى جانبنا وخلفنا... إنَّ الشر مكنون في داخلنا".

مقال في الجريدة:

The Paradise Times

اكتشفت الشرطة حالة الانتحار الثامنة لهذا الأسبوع لرجل يسكن وحيداً، وذلك بعد تغيّبه المستمر عن العمل، وانقطاع التواصل من قِبله مع أفراد عائلته. أشارَ الجيران إلى أنهم لم يشاهدوه يخرج من منزله، وبعد غيابه لمدة يومين، قررت الشرطة اقتحام شقته؛ ليجدوه مطعوناً مرتين. وبعد تحقيقات الشرطة، تأكَّدَ أنها عملية انتحار، وأنَّ سبب الوفاة كان النزيف حتى الموت.

المنام الأول

كثيفاً كان الضباب الذي يغشى عيني. متى طرقَ هذا الضباب بابي؟ ومتى سمحتُ له بالدخول؟ بل هل يدخل الضباب إلى المنازل؟ لا أعرف كيف عليَّ أن أتخلص منه؟، ولا أظنُّ أنَّ فتح النوافذ سيجدي نفعاً. لأن المزيد سيتسرب إلى الداخل عبر النوافذ أيضاً.

سرتُ ببطء، وكأنّ الضباب الكثيف يُثقل حركتي، يعيق قدميَّ عن التقدم باليُسر الذي اعتادتاه. اقتربتُ من النافذة التي كنتُ أرى عبرها كل شيء صافياً. الضباب لم يقتحم الأمان المبعوث من الخارج، بل كان دوماً في الداخل يعيش معي.. أتنفّسه ويُحيط بي. في الخارج، أرى غابة فيها جدول مائي من الدم.. غابة أشجارها بيضاء.. وتأتي فتاة تمشي وكأنما تطفو. تقترب من الجدول وتركع عنده، تجمع دماءً منه في كفيها، تقرّبهما من شفتيها، وتشربه. لونت الدماء شفتيها.

ثم رفعت نظرها نحوي.. وابتسمت شفاهها الدامية لي.

في تلك اللحظة،كدتُ لا أتذكر من أنا؟!.

أتساءل: من أنا الآن؟

إلفينا آدمسون

لم يكن مايك الذي أعرفهُ يشبه مايك الذي أراه هذه الأيام، بدا مختلفاً من الداخل وقليلاً من الخارج، لم يعد وجهه الوقور كما هو أبداً. ففي إحدى ليالي الخريف الباردة، وجدته في منزل البوابة الصغير جالساً على الأرضية الخشبية يبكي كالطفل. وعندما سألته عن السبب صرخ بهلع: "لا شيء".

وددتُ أن أصرخ وأستدعي جيرمي ابني الذي لم يعد موجوداً. أو حتى أن أستدعي أحد الخدم، ولكن لا أحد بقربي سيسمع ندائي. لذلك خطواتي العاجزة السريعة إلى الباب لم تُستكمل. توقفتُ وأخذتُ نفساً عميقاً ويدي مثبتة على إطار الباب الخشبي للمنزل المكون من طابق واحد، والذي رائحة رطوبة الليالي الممطرة مازالت عالقة فيه؛ فلم يعد هناك من يهتم بتنظيفه حتى. نظرتُ بعدها بتمعّن إلى مايك الذي اعتدلَ في جلسته بدلاً من أن يبقى راقداً، وبدأ يمسح دموعه وهو يقول بصوت بدا لي كصوت طفل: "أنا آسف، لم أقصد إخافتك".

سألته: "مابكَ؟.. أخبرني ما الذي حدث؟".

"لم يحدث شيء، صدقيني".

رأيتُ الخوف يتولد في عينيه، ويمتزج مع اللمعان الذي شكّل طبقة في حدقتيه، لذلك فضلتُ عدم الضغط عليه أكثر. ساعدته على النهوض وخرجنا متّكئين على بعضنا من المنزل. وبحركات عاجزة حاولتُ تثبيته، وبيدي الأخرى سحبتُ الباب لإغلاقه، سحبتُ الباب بقوة وأقفلته لأثبّت مايك بكلتا يديّ. وبعد ثانية واحدة، سمعتُ صوت الباب يغلق بسبب سحبتي القوية، ومرَّ تيار هواء خفيف بعد أن أًغلق الباب.

تساقطت الكثير من الأوراق، ورؤيتي لها كانت تؤلمني وتذكرني بتساقط مايك زوجي المشابه لها. لم يعد كما كان أبداً ولا أعلم إلى متى سيبقى هكذا؟.

مشينا أنا وهو على الرصيف الحجري المحاط بالمصابيح القليلة، متجهين إلى السلم الأمامي للمنزل. كان المنزل أمامنا كبيراً، ولا يختلف طرازه كثيراً عن النمط الفيكتوري للمنازل الأخرى الموجودة هنا في بارادايس شيل. هذا المنزل كان إمبراطورية آل آدمسون لأجيال عديدة، وهو الآن من حق جيرمي من بعد مايك. ولكن في وضع مايك الجديد يبدو أنَّ كل الخطط المستقبلية التي خططنا لها ستفشل.

صعدنا السلم الحجري، وأصبح بعدها مايك قادراً على السير دون أن يتّكئ عليَّ. سبقته في خطواتي وفتحتُ الباب الخشبي للمنزل. كان المنزل غارقاً في العتمة، ولكنها لم تكن عتمة شديدة، وإنما تخللها الضوء الخارجي، والمكان شديد الهدوء حتى بتُّ أتخيل أنَّ للهدوء صوتاً.

طلبتُ من مايك بل حثثتهُ على الصعود إلى فراشه، في بادئ الأمر رفض، ولكني سحبتهُ من كفّه وبدأتُ بجرّه في اتّجاه سلم المنزل. كان يتصرف كالطفل، ورفضه هذا محضُ عناد لا أكثر، لا سببَ له.

تركته في فراشنا، وطلبتُ من الخادمة إحضار العشاء حيث نحنُ، ولم تتأخر هي في فعل ذلك. في البداية تركته يأكل وحيداً،ولكن يده كانت ترتجف كثيراً، كانت تصرفاته تبدو كما لو أنه أصبح خَرِفاً فجأة، رغم أنه يعي ما حوله.

أسقطَ ملعقته وبدأ يئنُّ ويبكي من دون دموع: "إنه هنا، إنه قادم، أنا أشعر به، إنه غاضب.. غاضب جداً".

عادت تعابير وجهه فجأة كما كانت عليه، اختفى الخوف والغضب، وظل مايك يحدق في لا شيء! عيناه معلقتان في الزاوية بين الباب والجدار. تأملتُ

ما كان ينظر إليه، ولكن لم يكن هناك شيء. طلبتُ منه أن يركز معي ويكمل العشاء ولكنه لم يفعل. كانت هذه الحالة الغريبة تأتي إليه في ليالٍ عديدة في الفترة الأخيرة، ولكنه يعود طبيعياً في الصباح. وهذا ما حدثَ.. فعندما خلدنا إلى النوم، استيقظتُ على طرقات خفيفة على الباب، أيقظتهُ وكأن شيئاً لم يكن.

تناولنا فطورنا على الطاولة الكبيرة الخالية من الجميع سوانا أنا ومايك. لم يكن يسرح كثيراً أثناء فترة الإفطار. بدا مرحاً كما كان، وهيبته عادت إليه عندما أصبح خلف قماش بدلته البنية. أوصلتهُ إلى باب المنزل، وخرجَ هو بخطواته التي تشبه القفزات الخفيفة، حتى وصل إلى السيارة الراكنه أمام السلم الحجري. أشار لي مودّعاً ما إن تحركت السيارة، وهو جالس في المقعد الخلفي.

عدتُ أنا إلى طاولة الطعام، وحملتُ حفنة الرسائل المتروكة على الطاولة. قرأتُ العناوين المكتوبة عليها دون أن أجد شيئاً مثيراً للاهتمام فيها.

صعدتُ بخطواتي الخشنة إلى غرفتي مجدداً لتغيير ملابسي. لم أكن أعرف مدى برودة الجو خارجاً، ولكن لأخذ الحيطة قررتُ أن أرتدي معطفي الأزرق الداكن وقبعة سوداء. فتحتُ الباب وصرختُ

كي تسمعني الخادمة وتطلب من السائق انتظاري أنا أيضاً. لم أكن معتادة على الخروج كثيراً في الصباح، ولا حتى مشاويري كانت تخفى على مايك، ولكن مايك تغير الآن.. وأنا أيضاً.

فتحَ السائق الباب الخلفي للسيارة مشيراً برأسه دلالة على التحية. رددتُ التحية بتعابيري التي لم تتغير. جلستُ في المكان ذاته الذي جلسَ فيه مايك. وعندما رأيتُ عيني السائق المتسائلة عن الوجهة؟ أجبته من دون تردد: "إلى لورينت هول".

تحركت السيارة عبر الرصيف الطويل إلى البوابة الحديدية. وفي الخلف كان منزل آل أدمسون ببنيانه الحجري المستطيل وبشبابيكه الطويلة، خالياً من الحياة.

* * * * *

منتصف الليل، منزل آل آدمسون.

تحركَ مخمل الستائر بشدة رغم ثقله بسبب الرياح التي هبت من النافذة، لم أفتح عينيَّ رغم أنني يقظة. حركتُ كفي لألمسَ مايك الذي لم يكن موجوداً في مكانه، والجانب الخاص به من السرير لم يكن مرتباً ولكن بارداً. فتحتُ عيني ورفعتُ رأسي قليلاً، وشعري ظلَّ مندسلاً على الوسادة. لم يكن مايك راقداً بقربي. نظرتُ باتّجاه الباب

المفتوح والذي كان يتحرك بفعل الهواء. قمتُ بالسرعة التي أستطيع رغم الألم في مفاصلي.

صرختُ بصوتي المرتجف: "مايك". لكنه لم يُجب عليَّ.

اتّجهتُ إلى النافذة المفتوحة أولاً، وعندما توقفتُ بين الستائر التي كانت تتحرك بخفة؛ رأيته. كان في الحديقة يمشي في الظلام، ويداه خاليتان، وهو يرتدي رداء نومه.

صرختُ به مجدداً: "مايك، ماذا تفعل؟ الجو بارد الآن". تجاهلني وأبقى ظهره مُداراً باتّجاهي، وأكملَ سيره قاصداً طرف الحديقة باتّجاه التل.

صحتُ بصوت أقوى: "مايك.. عُد إلى هنا حالاً". ولم أنتظره ليلتفت إليَّ وإنما تحركتُ بسرعة لالتقاط رداء البجامة، ربطتهُ بإحكام ونزلتُ بخطوات سريعة.

ناديتُ: "كلارا.. جاد". لم أنتظر خروج أيٍّ منهما من غرفته، إنما اتّجهتُ بذات السرعة إلى الباب المؤدي الى الحديقة. كنتُ أرى مايك يمشي بخطواته السريعة محنياً رأسه إلى الأمام يتجه إلى حافة التل. بدأتُ أجري باتّجاهه، ولكنَّ خطواتي الثقيلة لم تكن لتوصلني إليه حتماً.

رأيته يُرخي جسده وأسفل قدميهِ؛ ليرتفع عن العشب الأخضر تحته. تهاوى من الحافّة، وأخذ يسقط من الأعلى، خرجتْ مني صيحة ثقيلة مبحوحة. ولكن عندما وصلتُ إلى حافة الجرف لم أرهُ. كانت الأمواج القوية قد ابتلعتْ جثته. لم تعد قدماي تقويان على حملي؛ فسقطتُ محدقة بالجزء المتبقي من البحر أمام عيني. ومن بعيد أتاني صوت كلارا اللاهث: "سيدة أدمسون.. ماذا تفعلين؟"

حدقتْ عيناي في الفراغ.. فراغ يمكنني أن أشعر بالشرّ يملؤهُ. يمكنني أن أشعر بما كان يراه مايك. كان يجب أن أعلم بأنَّ هذا اليوم قادم.

لوسيا بانكرافت

لم أكن قد ابتعدتُ عن هذا المكان لفترة طويلة، ولكنها لسبب ما، جعلتْ شعوري يتغير تجاههُ وكأنني غبتُ لعام أو اثنين. ورغم وصولي منذ وقت قصير جداً، إلا أنَّ الشعور بالوحشة قد تسللَ إلي. لا أعلم لماذا لا أطيقُ تقبل الشوارع، وحتى أثناء رؤيتي لها من زجاج النافذة أعقد حاجبيَّ وكأنني أتعرف عليها للمرة الأولى. على الرغم من أنَّ هذا المكان هو مسقط رأسي، إلا أنني أشعر كما لو أنني ضيفة فيه. نظرات الأشخاص في الشوارع كانت شفافة.. غريبة، كأنني شبح يسير بينهم لا يروني ولا يشعرون بي. كان قلقٌ بعيد كل البعد عن الخوف يجثمُ على مشاعري. لا أعلمُ إن كان العالم حقاً باهتاً؟ أم أنَّ عيني هيَ التي باتت تراه هكذا. أدهشني هذا التغيير الداخلي! وعدم تقبلي للمكان على الرغم من كوني قد لا أعرف مكاناً آخر أكثر منه.

انعطفت السيارة؛ فانعكسَ الضوء المنبعث من الشمس على الإطار الفضي اللامع للواجهة الأمامية للسيارة، كما انعكسَ شعاع الشمس على علامة السيارة البارزة في مقدّمتها؛ فقامت تلك العلامة بدورها بعكس خيط شعاع عريض على وجهي إلى

داخل السيارة. شعرتُ بثقلي كله يتجه إلى اليسار مع انعطاف السيارة، ولكن ما إن عادت بالسير في خط مستقيم، حتى عدتُ إلى الجلوس مستقيمة على المقعد الجلدي. كنتُ أشعر كما لو أني أغوصُ في مقعدي، والنوافذ تصبح بعيدة عني أكثر فأكثر. كنتُ أرحل بعيداً عن الواقع، رغم أنني ما أزالُ يقظة بالكامل.

خفّفت السيارة سرعتها أمام البوابة الحديدية، والتي طبعَ في منتصفها حرف الباء نسبة لاسم عائلتنا. وتوقفتُ ما إن أصبحنا أمام البوابة مباشرة. بعد لحظات قصيرة، فُتحت البوابة وعبرت السيارة من خلالها وتوقفت مجدداً أمام باب المنزل. فتحَ لي السائق الباب، وما إن نزلتُ حتى شددتُ معطفي الخفيف عليَّ، كان البرد قد حلَّ قبل أوانه المعتاد هذا العام، والجو يبدو بارداً أكثر من كونه خريفياً. لم يكن شعاع الشمس يكفي لأن يبعث فيّ الدفء المطلوب. اجتاحني البرد لسببين، أولهما: نسمات الهواء الباردة، وثانياً: شعوري بالاغتراب، رغم أني وسط ملكية والدي وعائلتي. توقفتُ للحظات أتأملُ واجهة المنزل، والأزهار القليلة التي توزعت في أكاليل في الخارج وحالتها رثّة تماماً. اتّجهتُ إلى باب المنزل، وقبل وصولي إليه فُتح الباب، وأطلت من خلفه إزميرالدا مبتسمة ومرحبة: "أهلا بعودتكِ

عزيزتي". ارتميتُ في أحضانها بسرعة وكأنني أبحثُ عمَّا هو مألوف لي في هذا المكان.

"أينَ هو أبي؟ لقد أقلقتني عليه". سألتُها بينما هي تسحب معطفي عن جسدي.

أجابتني: "اتركيه يرتاح الآن". هناك أشياء كثيرة يجب أن نتحدث بها، لم تكن رسائلي كافية لشرحها". قالت ذلك وهي تحاول عدم النظر في عيني مباشرة، مما بعثَ القلق في نفسي مجدداً.

"أنتِ تخيفينني، ماذا يحدثُ لأبي؟". سألتُها

لم تُجبني، وإنما أرجأت الحديث في ذلك حتى آخذ قسطاً من الراحة. وقبل صعودي إلى غرفتي قالت لي: "أعلمُ بأنكِ متعبة، ولكن يجب عليكِ أن تحضري دفن السيد آدمسون اليوم". ظهرت على وجهها ملامح حزن خفيف،لا أعلم إن كانت حقيقية أم لا!

سألتُها بدهشة: "السيد آدمسون؟ جيرمي آدمسون؟".

أومأت بالنفي وقالت: "السيد الصغير خارج البلاد منذ فترة طويلة، إنما هو الأب.. إنه أمر مؤرق حقاً. لقد رمى بنفسه من الجرف، ووجدوا جثته في الأمس على الشاطئ".

لم تنتظر إجابتي،أو أيّاً من تساؤلاتي، إنما أدارت وجهها وهي تقول: "إخترتُ لكِ زياً مناسباً، خذي قسطاً من الراحة وغيّري ثيابكِ للذهاب الى الدفن". رحلت وتركتني واقفةً على السلم أراقبها بهدوء، والدهشة تملأ عقلي وقلبي!.

عندما دخلتُ إلى غرفتي، أغلقتُ الباب خلفي سريعاً، وسرت الطمأنينة كالسائل الدافئ في عروقي ببطء، شعرتُ بأنني خلف أسوار مملكتي وحرة أكثر. أطلقتُ عنان أفكاري، قلقي، وخوفي دون أن أشعر بأنَّ هناك أحداً يراقب أيّة حركة من حركاتي. تنفستُ بشدة وسحبتُ شهيقاً قوياً،وزفرتُ بقوة مرات عديدة. ارتميتُ على سريري متأملة جدران الغرفة، ثم قمتُ بخطوات غير متساوية إلى مرآة غرفتي. تأملتُ وجهي.. والذي هو وجهها أيضاً، قلقتُ كما لو أنني كنتُ أراها هي تقف أمامي.

سألتُ الانعكاس الموجود أمامي: "سالي.. أينَ أنتِ الآن؟ أين أنتِ يا أختي؟".

بينما كنتُ أسير متجهة إلى الباب، وأنا أخيراً واثقة من قراري في الذهاب إلى وجهتي التالية، سرتْ في داخلي ارتعاشة دفينة يصعب الشعور بها بسهولة. تذكرتُ السيد آدمسون؛ فساورني خوف طفيف من طريقة موته الغريبة!. لماذا قتلَ نفسه؟ تساءلتُ ما

الذي حدثَ أثناء غيابي؟. فكرتُ مجدداً في أنه حتى وجودي ما كان سيغيّر شيئاً؛ فأنا لا أعلم ما الذي تعيشه هذه العائلة خلف جدران منزلها!. جزءٌ مني كان حزيناً عليه وقلقاً بسبب شناعة الحادثة، وجزءٌ آخر شعرَ بأنه لا يعرفه، وبأنني غريبة عن هذه المدينة وعن أهلها، وموت السيد آدمسون لا يختلف كثيراً عن كونه نبأ مخيفاً أقرؤهُ في صحيفة.

خرجتُ من المنزل مع السائق متجهة إلى عزبة آل آدمسون. لم أرَ والدي منذ وصولي، ولم تسمح لي إزميرالدا أن أراه حتى الآن، وتذرّعتْ بأنه متعب. حديثنا أنا وهي تأجَّل حتى عودتي من دفن السيد آدمسون. وددتُ فعلاً لو كان بمقدوري تحريك الوقت إلى الأمام، والانتهاء من هذا كله. كان الفضول والقلق على والدي يقتلانني.

حاولتُ إخفاء وجهي خلف القبعة السوداء، ومشيتُ بخطوات سريعة إلى السيارة التي كانت تنتظرني أمام الباب. وما إن جلستُ في مقعدي حتى تحركتْ متجهة إلى منزل آل آدمسون. كانت مقبرتهم الموجودة هناك قديمة وعمرها قد يوازي عمر مقبرة المدينة الأساسية. استغرقت رحلتي إلى هناك وقتاً ليس بالقصير؛ فمنزل آل آدمسون يقع على طرف المدينة.

لم أعِ أنَّ السيارة قد توقفت حتى نبَّهني السائق بأننا وصلنا، وبأنَّ السماء قد تمطر فمن الأفضل أن أخذ معي مظلتي. سحبتُها من الدرج الموجود في الباب، ونزلتُ ببطء وأنا أجرُّ قدمي والتي أصابها الخدر. فحصتُ المكان بنظراتي. كنتُ أمشي بالقرب من امرأة عجوز ورجل غريب كانا متجهيْن إلى المتجمّع عند المقبرة.

لم يكن في السماء الكثير من الغيوم، ولكن القليل الموجود كان قد حجبَ الشمس، وتركَ المكان في جو كئيب ملائم لمراسم الدفن. وقفتُ بعيدة قليلاً عن الحشد، ولكن بإمكاني رؤية تابوت السيد أدآمسون وهو بالقرب من القبر.

تفرّق الحشد ما إن انتهت المراسم،وتجمَّع عدد قليل من الأشخاص حول السيدة آدمسون لمواساتها رغم أنَّ اتّزانها بدا قوياً. قررتُ أن أبقى لوقت إضافي حتى أتمكن من التحدث إليها على انفراد. مشيتُ في الاتجاه نفسه الذي سلكه أغلب الأشخاص إلى داخل المنزل. ولكن استوقفني وجه ماركوس وبيتر لورينت القادميْن باتّجاهي. ارتسمتْ على وجه بيتر دهشة خفيفة! أما ماركوس فقد ابتسمَ نصف الابتسامة الشريرة والتي كان يتميز بها هو وحده، والتي تجعل في وجهه جاذبية أكبر.

سألني ماركوس: "متى عدتِ؟".

"اليوم صباحاً. إنهُ والدي.." قاطعني هو:

"نعم لقد سمعتُ الأخبار. يبدو أنه على غير ما يرام".

بقيت عينا بيتر معلّقتين بيني وبين ماركوس، ولكنه لم يتكلم ولم يقل أيَّ شيء حتى انتهى شقيقه من الكلام. تركَنا ماركوس بعد أن ربَّت على ظهر شقيقه مرة واحدة. بقينا بعد ذلك أنا وبيتر واقفيْن، كلٌّ منا أمام الآخر، صامتيْن دون أن نقول شيئاً. لم يضع عينيه في عينيَّ مباشرة، كان يحدق في الأرض. انتظرته لثوانٍ قليلة، وعندما لم يقل شيئاً قررتُ تجاوزه وإكمال طريقي إلى داخل منزل آل آدمسون. مشيتُ بضع خطوات مصدرةً صوتَ قرعِ كعب حذائي لقطع الحجارة الصغيرة جداً المنتشرة على الأرض.

استوقفني قائلاً: "أنا حقاً آسف!. أنتِ تفسرين الأمر بطريقة خاطئة".

التفتُّ إليه فجأة بعصبية، وشعرتُ بقبعتي تتحرك بقوة: "لا أظن ذلك.. المكان غير مناسب لحديث مثل هذا الآن". أنهيتُ جملتي دون أن أشيح بنظري عنه.

بدتْ في عينيه نظرة راجية. عقدَ حاجبيه وقال: "ليس لي ذنب في ذلك صدّقيني. إنها هي التي كانت تتودد إليّ، وأنا لم أفعل شيئاً".

قلتُ وأنا أشير إلى نفسي: "إنها شقيقتي.. والآن بسببكَ أنت لا أعلم أين هي. قد تكون هربت، أو.. أتعلم! إن حدثَ لها مكروه؛ فستكونُ أنت السبب حتماً".

تذكرتُ ملامح وجه سالي في تلك الليلة.. آخر ليلة رأيتها فيها قبل أن تهرب. كانت تقف أمام بيتر وتشدّ يده ومعالم الحزن بادية على محياها. هربت عندما رأت الصدمة على وجهي؛ حين رأيتُهما فجأة.

أتاني صوت بيتر ماحياً تلك الصورة: "أعلمُ أنَّ الوقت غير مناسب، ولكنني لم أفعل شيئاً. لنتقابل اليوم مساءً وسأشرح لكِ كل شيء.. أعدكِ". اكتفيتُ بالإيماءِ موافقةً.

دخلتُ منزل آل آدمسون والذي كان مليئاً برائحة التربة. كانت جميع النوافذ فيه مفتوحة، والستائر مربوطة على جانبي الشبابيك فلم تكن تتحرك. كانت السيدة إلفينا جالسة بالقرب من سيدة عجوز أخرى تكاد تكون نسخة منها،ولم أحتج وقتاً طويلاً حتى أتأكد بأنهما شقيقتان. ذكَّرني شكلهما بي

وبتوءمي سالي.

اقتربتُ منهما بخجل، كدتُ أحيّيهما بابتسامة، ولكنَّ الموقف لم يكن يتحمل أيّة ابتسامات. ارتديتُ قناع الحزن على وجهي واتّجهتُ مباشرة إلى السيدة آدمسون،والتي لم تنتبه إلى وقوفي بالقرب منها. وعندما رأتني وقفت ببرود وبمساعدة شقيقتها. وبوجه بارد حزين رمتْ نفسها في أحضاني دون أن تفرد ذراعيها لي. احتضنْتُها مربّتة على ظهرها مرات عديدة.

"أنا آسفة لخسارتكِ".! قلتُ ذلك وأنا أنظر مباشرة في عينيها. كانت عيناها تلمعان ببرود شديد، وملامح وجهها متصلبة كما لو أنها تمثال. بقيتْ محدقة بي ببرود دون إظهار أيّ تعبير آخر.حركت شقيقتها يدها على ظهر السيدة إلفينا بحنان وهي تسحبها لتجلس، لكنّها عاندت ذلك ورمقتني بحقد غريب لم أفهمه!.

قالت بصوت حاد: "عزيزتي سالي، متى عدتِ؟"

قلتُ وأنا أشيح بنظري عنها، وأحاول تجاوزها: "لوسيا.. أنا لوسيا".

عندما وصلتُ إلى المنزل، كنتُ قد نسيتُ تماماً ما حدث مع السيدة إلفينا آدمسون. دخلتُ المنزل بهدوء لا يختلف كثيراً عن الهدوء الموجود فيهِ

أساساً. لم أصادف إزميرالدا أثناء دخولي أو صعودي إلى غرفتي. مشيتُ على السلم بخطوات سريعة ولكن لا صوت لها. تسللت الكآبة التي كان جو المنزل معبّاً بها إلى قلبي مجدداً، كانت الشمس قد أخفت أشعتها وراء الغيوم التي ملأت السماء.

تقع غرفتي في الجناح الغربي والمعاكس لاتجاه غرفة والدي، ولكن استوقفني صوت تمتمات غريب غير مفهوم صادر من غرفته. كنتُ واقفة على السلم وجسدي في اتّجاه غرفتي،إنّما رأسي كان معلقاً باتّجاه غرفة والدي. سرتُ ببطء إلى غرفة والدي الذي لم يستقبلني حتى الآن. أثناء سيري كانت التمتمات تصبح أعلى ومصحوبة بصوت حركة. سمعتُ صوت خطوات تدبّ على الأرض، لم أكن متأكدة إن كانت أربع أو خمس خطوات بسبب سرعتها. ولكنها توقفت فجأة. كان الباب موارباً، والجزء الصغير المفتوح لا يظهر منه والدي ولا حتى ظلّه.

اقتربتُ من الباب، وجعلتُ رأسي موازياً له في محاولة مني لسماع ما يقوله والدي. كان يتمتم بكلمات غريبة لم أكن أفهمها!. أصبحت عيني مواجهةً للجزء الصغير المفتوح من الباب. تحركَ والدي وظهر ظله على الحائط المواجه لي. سمعتهُ

يئنّ ثم يعود إلى تمتمة بعض الكلمات. سمعته ينادي باسمي وباسم سالي أثناء حديثه. ظهر أمامي فجأة مديراً ظهره لي، ووجهه مقابلٌ لزاوية الغرفة. وضعَ كلتا يديه على رأسه،حرَّكهما حتى أصبحتا مقابلتيْن لوجهه، ثم بدأ بالبكاء. كان بكاؤهُ قصيراً لثوانٍ قليلة، تبعهُ صمت مفاجئ!.

أبعدَ يده اليسرى عن وجهه، وبدأ يشير بسبابته ويرسم أشكالاً غريبة في الهواء. كانت حركاته في البداية بطيئة وتزداد سرعة مع مرور كل ثانية، حتى لم أعد أميّز في أي اتّجاه يحرك إصبعه. كانت عيناي تتبعان إصبعه محاولة فهم حركاته.

أدارَ وجهه لي فجأة بحركة سريعة فاجأتني، بدت فيها عيناه كعيني القطط مضيئة، ولكنَّ ذلك الوميض سرعان ما اختفى فبدت لي سرعة ظهوره واختفائه من صنع خيالي. رأيته يتحرك بسرعة، وسمعتُ خطواته تضرب الأرض وتقترب من الباب. ظننتُ بأنه سيفتح الباب ويواجهني، لكنه دفعهُ بقوة وأغلقَ الجزء المتبقي منه. ولحظتها قبضت يدان على كتفي فجأة؛ فقفزتُ مجفلة مما حدث!، ولكنني عندما التفتُّ رأيتُ وجه إزميرالدا الحزين ينظر في وجهي. قالت لي: "تعالي معي لنذهب إلى غرفتكِ". تبعتُها بصمت ومعالم الدهشة ماتزال

تتشبث بوجهي.

"ما الذي يحدثُ معه؟ ماذا يفعل؟". سألتُها وأنا أخرج الكلمات بصعوبة من بين أنفاسي.

"لا أعلم.." فتحتْ باب غرفتي، ودفعتني للدخول قبلها: "منذ أن اختفت شقيقتكِ وهو هكذا". أجابت.

"ألم تأتكم أيَّة أخبار عنها حتى الآن؟". سألتُ

"لا، لم نسمع عنها شيئاً. ووالدكِ حالته غريبة وتزداد سوءاً كل يوم. يجب أن يقابله أحد الأطباء أو المختصين ويشخّص حالته الغريبة هذه. نحنُ لا نعلم ما الذي أصابه؟".

خلعتُ معطفي وقبّعتي وسحبتُهما من يدي،وعلقتُهما على الشماعة.

"سيكون العشاء جاهزاً قريباً، ولكنكِ ستتناولينه وحيدة، فوالدكِ لا يخرج من غرفته". خرجتْ من الغرفة وأغلقت الباب خلفها بهدوء، دون أن تنتظر ردّاً مني.

خرجتُ بعد دقائق من غرفتي متجهة إلى غرفة الطعام في الأسفل، وأثناء طريقي إليها راقبتُ غرفة والدي بحذر، كانت مغلقة ولا يصدر منها أي صوت هذه المرة. أحزنني كونهُ يعلم بوجودي، ولكنه لم يخرج ليحيّيني أو يرحب بي. سألتُ نفسي: ماذا لو

عادت سالي؟، هل سيكون ترحيبه بها كما حدث معي؟ بالتأكيد لا، فغيابها هو سبب مرضه. لطالما كانت هي المفضلة عنده.. على الرغم من كوننا أنا وهي نسخاً متطابقة من بعضنا شكلاً.. لكن ما كنتُ أنا أتمكن من رسم الابتسامة على وجه والدي كما كانت هي تفعل قطّ.

جلستُ على الطاولة وحيدة، وأسئلة كثيرة تدور في خلدي. ولكنْ وخزَ قلبي إحساس غريب وشعور بالحماس، عندما تذكرتُ بيتر وموعدنا الليلة.

* * * * *

بعد الغداء كان التعب قد غرس مخالبهُ في مفاصلي كلها، حتى بتُّ أشعر بأنها ثقيلة ومتيبّسة، لذلك قررتُ أن أملأ حوض الاستحمام حتى فمه وأتمدَّد في وسطه. كانت المياه دافئة،ولكن بسبب برودة جسدي شعرتُ بأن حرارة الماء لسعت قدميَّ عندما غرستهما في الماء. كانت تلك لسعة دافئة تسببت في خدر قدميَّ وجسدي كله، وأنا أنزل ببطء في الحوض الذي فاضَ الماء فيه وبدأ يسيل على أطرافه بسرعة. مددتُ جسدي وأبقيتُ الربع العلوي منه خارج الحوض. أسندتُ ظهري على طرف الحوض وأرخيت رأسي إلى الخلف، وأغمضتُ عينيَّ، وغصتُ في ظلام شديد لم أكن أقوى على

مقاومته. كان البخار الرطب يضرب الجزء السفلي من وجهي، ورائحته تتسلل إلى أنفي. ولكن بعد لحظات قصيرة لم أعد أشعر بالرطوبة ولا بدفْء الماء، ولا أشم رائحة البخار.. فقدتُ كل حواسي وأنا أخوض تلك الغفوة القصيرة.

عندما فتحتُ عيني مرة أخرى؛ كنتُ أستطيع أن أرى جسدي كله وهو راقد داخل الحوض، حتى رأسي كنت أستطيع رؤيته. لكنَّ معالم وجهي كانت مختفية خلف غشاوة ضبابية. كنتُ أحلم.. وأنا أعي بأنني أحلم. كان كل شيء في الحمام غير واضح خلف تلك الطبقة الضبابية. رأيتُني أقف وأخرج من الحوض،وأتحرك بثقة حتى وصلتُ إلى المرآة. كنت أقف أمام المرآة وسالي شقيقتي هي التي في الانعكاس!. مددتُ يدي حتى وصلتُ إلى أطراف المرآة ولكنَّ سالي لم تفعل ذلك في الانعكاس!. كانت واقفة ويداها مُسدلتانِ بالقرب من جسدها. تتأملني بحزن. رأسها يميل تارة يميناً وأخرى شمالاً. تأملتُ وجهها الذي بدا واضح المعالم عكس وجهي. كانت عيناها حزينتيْنِ، وتكادان تذرفان الدموع خلال لحظات قصيرة.

اختفى وجه سالي فجأة. فتحتُ عينيَّ وعدتُ إلى الواقع. نظرتُ إلى المرآة التي تكونت عليها طبقة

ضبابية بسبب بخار الماء. لم يكن أي شيء ينعكس عليها.

استغرقتُ ثوانيَ قليلة حتى تعود إلى عقلي الأفكار، بعد أن كان عقلي هائماً في صفحة سوداء. على الرغم من كمية القلق والرعب اللذيْنِ سببهما مرض والدي واختفاء سالي، إلا أنني كنتُ أشعر بأن جزءاً مني يؤنبني لأنني لا أستطيع فعل شيء. نصحتْني إزميرالدا أن ننتظر قبل أن نُقحم الشرطة في الأمر؛ فسالي ستعود حتماً لأنها هربت بإرادتها، ولكن ماذا إذا كان الأمر عكس ذلك؟ ولماذا والدي مريض إلى هذا الحد؟هل يعقل أن تكون سالي وحدها السبب؟

في المساء كنتُ جاهزة للخروج بعد أن ارتديتُ فستان دانتيل نيلي، وانتعلتُ حذاءً أسود.أخذتُ معطفي بيدي وخرجت مسرعة، كان لقائي ببيتر عند الحديقة المقابلة للمتحف. عند وصولي إلى هناك كانت الشمس قد سحبت آخر خيوطها من السماء،والتي أصبحت داكنة، ولكنَّ لونها امتزجَ في عيني مع وهج الأضواء في الشارع. كان بيتر يقف أمامَ الكرسي الذي جلسَ عليه ينتظرني. شكَّل لي وجهه مع الصورة الكاملة التي تراها عيني لوحة مختلفة لم أرَها منذ فترة طويلة. لأول مرة

منذ فترة طويلة يعود لي شعور كنتُ قد فقدته. المكان القديم.. المصابيح، إعلانات المحلات، الأرض الحجرية اللامعة بعد هطول مطر خفيف. كنتُ أسمعُ صوت ضربات حذائي بوضوح وأنا أمشي في اتّجاههِ، وأيضاً أرى الشوق في عينيه، والذي دفعهُ إلى المضيّ باتّجاهي، غيرَ قادر على انتظار وصولي.

إصطبغ العالم كله بألوان عديدة.. بنفسجي، أزرق داكن، أحمر. ألوان عديدة ليست خريفية وإنما تدل على هبوط الشتاء على المكان. جلست بالقرب منه غارقين في الصمت نحن الإثنان، ولكنه كسر الصمت قائلا: "أنا سعيد لأننا هنا معاً". كنت كذلك ولكنني لم أقل له ذلك.

"أعرفُ بأنك تعيشين وقتاً عصيباً".

أجبتهُ: "نعم، وذلك كثير بالنسبة لليوم الأول لي هنا".غرقَ بصري تحت دموعي؛ فأصبحت الصورة التي أمامي هلامية. تلألأت النقاط المضيئة في عيني، وامتزجت ببعضها واختفتْ معالم المباني. أضواء مختلفة ومصابيح سيارة تحولت أيضاً إلى نقاط مضيئة لؤلؤية تتحرك. رمشتُ مرات عديدة؛ حتى أمنع دموعي من السقوط، عادت بعد ذلك الصورة واضحة أمامي.

"ليست بداية جيدة، لم أقصد أن أبدو كعجوز حزينة". قلتُ له

"لا لستِ كذلك. أنتِ جميلة حتى عندما تبكين.. ولكن لا أحب رؤيتك تبكين".

ابتسمتُ له ابتسامة مصطنعة، مدركة معرفتهُ أنني أزيّفُها.

تبادلنا حديثاً قصيراً عن رحلة العودة، وبعد ذلك عادَ هو إلى موضوع سالي وقال: "أعلمُ بأنكِ لا تصدقينني، ولكنَّ سالي هي التي كانت تتودد إليَّ وليس العكس. كنتُ أحاول تفادي.."

قاطعتهُ: "هذا يكفي! أنا لا أعلم إن كان من الواجب عليَّ تصديقكَ أم لا، ولكن كل ما أشعر به هو الخوف على شقيقتي، وكذلك أشعر بأننا السبب".

قال محاولاً تهدئتي: "لا تقلقي عليها، سالي ليست طفلة وستعود قريباً. هل نسيتِ عندما غضبتْ من والدكِ واختفت لأيام.. اتَّضح في النهاية بأنها عند قريبتكم العجوز تلك".

"أعلمُ بأنها متسرعة، ولكن من الخطأ أيضاً وجودي هنا اليوم. والدي ليس على ما يرام، وشقيقتي لا أعلم أين قد تكون، وأنا أجلسُ معك في

حديقة عامة. هذه أنانية مني". قلتُ.

صمتَ بيتر للحظات قبل أن يجيب: "هل وجودي يسبب لكِ هذا القلق كله؟ حسناً اليوم لنستثنِ كل شيء، رافقيني لنتناول العشاء معاً، وبعد ذلك افعلي ما يحلو لكِ".

استغرقتُ في التفكير ثوانٍ بدت لبيتر الذي كان يتأمل وجهي منتظراً إجابة طويلة. وافقتُ على مرافقته، ومشينا متوازيين إلى سيارته.

رأيتُ سالي مرة أخرى في منامي. لم يكن من الصعب جداً أن أدركَ بأنني في حلم، ولكنَّ الغريب أن أكون في حلم وأعي ذلك. رأيتُ نفسي مرة أخرى في الرواق الفاصل بين غرفتي وغرفتها، ولكنَّ قطع الأثاث لم تكن ذاتها الموجودة خارجاً، بل كانت القطع القديمة التي اشترتْها والدتي قبل وفاتها. كنتُ في حلمي كما أنا الآن، قد أكون فقط شعرتُ بأنني أقصر قليلاً. رأيتُ سالي مجدداً تقف أمامي، ولكنها بدت حقيقية أكثر من انعكاس مرآة. كانت ترتدي فستاناً ربيعياً لونه كريمي. وتمشي بخطوات راقصة في آخر الرواق. كان الوقت ليلاً، ومن النافذة التي خلفها ينبعث ضوء كما لو كان ضوء مصابيح معكوساً على زجاج النافذة. لم يكن الضوء قوياً ولكنه سبَّب لي شللاً بسيطاً في الرؤية. اقتربت

سالي بخطواتها التي تكاد تكون قفزات، وابتسامتها اختفت من محياها. وقفت أمامي لا يبعدها عني سوى مترٍ ونصف أو مترين. لم يكن في الغرفة تيار هواء إلا أنَّ فستانها كان يتطاير وهي تحاول تثبيتهُ بكلتا يديها، وتراقبه بخوف. لم تتمكن من التحكم به وحدها، فحولت نظراتها الخائفة إليَّ. كانت نظراتها تستنجدُ بي.

قالت: "أختي.. ساعديني".

حاولتُ أن أتقدم باتّجاهها بخطوات غير متزنة.

بدا الحزن يزداد على وجهها، وشارفت على البكاء. فتحت فمها بشدة وجحظتْ عيناها حتى رأيتُ نقاط دماء تشكلت على طرفي شفتها وأهدابها.

صرختْ بشدة بصوت يصمُّ الأذن، فحاولتُ أن أغلق أذني بيدي.

وجَّهتُ بصري إليها مجدداً، ولكنَّ منظر وجهها أرعبني. كان خدَّاها قد تمزقا، وأصبح فمها يصل إلى أذنيها. أمَّا تجويف عينيها فقد كان خالياً لا يوجد فيه سوى الظلام وبركة دماء صغيرة،بدأت تطفر وتسير على خدَّيها.

قالت لي بصوت يشبه صوت الرجال: "لوسيا..

أخرجيني من هنا".

عادت إلى الصراخ مرة أخرى، ولكن بصوت ثقيل جداً خالٍ من الأنوثة.

* * * * *

عندما استيقظتُ لم تكن أيٌّ من محاولاتي القليلة للعودة إلى النوم ناجحة. أشعرُ بنبضات قلبي قوية، ويمكنني أن أرى كيف يتحرك صدري بسببها. كنتُ خائفة من البقاء في سريري، وفي الوقت ذاته لا أريدُ الخروج منه ومواجهة أي شيء من شأنه أن يزيد من خوفي، ولكنَّ رغبتي في الخروج كانت أقوى.

مشيتُ في ممرات المنزل المظلمة حتى غرفة المعيشة،وتكومتُ على الأريكة مسندة رأسي على طرفها. كنتُ متعبة وعقلي خالٍ من الأفكار لا أرى سوى فضاءٍ أسود. دسستُ أطراف أصابعي تحت ردائي وغرستهم في الأريكة بحثاً عن الدفء. بقيتُ على هذه الحال ما يقارب الساعة حتى قبيل الشروق. خرجتُ في الجو البارد لآخذَ الصحيفة المتروكة عند الباب. مشيتُ على الرصيف الحجري البارد بخطوات سريعة وصولاً إلى البوابة الحديدية. سحبتُ الجريدة وعدتُ بخطوات أسرع من سابقتها. جلستُ في مقعدي ذاته وأضأتُ مصباح جانبي؛

فالضوء الأزرق الخافت جداً المنبعث من خلف ستائر الشبابيك الشفافة،لم يكن يكفي لأرى الخط الصغير المكتوب في الجريدة.

The daily news

جرائم القتل دون توقف

ماتزال جرائم القتل في بارديس شيل مستمرة، بعد فشل أغلب التحقيقات فيها. كارثة جديدة وقعت ليلة البارحة نتجَ عنها وفاة طفلين شقيقين حيث تمَّ العثور على جثّتهما تحت جسر بروك بريدج،والقاتل مجهول الهوية. أما أسباب الوفاة فهي غير واضحة حتى الآن كما أفاد الطبيب الجنائي الذي فحص الحالتين، إذ أنّه لم يتمكن من تحديد سبب معين للوفاة. وقد تمَّ سابقاً اتهام المحقق بروس فريزر في عدة جرائم مشابهة كان بعضها هو من يتولى التحقيق فيها، ولكن اليوم بعد انتحار المحقق بفترة طويلة الجرائم ماتزال مستمرة؛ مما يُثبت بأنه بعيد كل البعد عن التهم الموجهة إليه، وأنَّ القاتل الحقيقي مايزال حراً طليقاً.

قاطعَ قراءتي صوت حفيف سمعتهُ خلفي، تبعهُ تيار هواء خفيف، التفتُّ لأرى من الذي كان يمشي خلفي؟ ولكنني لم أجد أحداً!. حاولتُ إعادة تركيزي على الصحيفة الموجودة أمامي، ولكنني لم أكن

أستطيع قراءة جملة كاملة. كنتُ أشعر بوجود شخصٍ ما هنا. دخلَ الغرفة تيار هواء بارد أجهلُ مصدره، راقبتُ النوافذ لأرى إن كان أيٌّ منها مفتوحاً، رغم أنني كنتُ متأكدة من أنها جميعها مغلقة.. وبالفعل كانت كل النوافذ التي في الغرفة مغلقة. سمعتُ صوت حركة خفيف آتٍ من الباب الخلفي للمنزل، فتركتُ الجريدة واعتدلتُ في جلستي. ولكن لم تكن لديَّ الشجاعة للذهاب وحدي وللتأكد من الباب.

أرعبني صوتُ صراخ آتٍ من الحديقة الخلفية فجأة. كدتُ أصرخ أنا أيضاً حين سمعتهُ. قمتُ ببطء واضعة يدي على صدري، وحاولتُ أن أراقب من بعيد اتّجاه الباب الخلفي. بقيتُ في مكاني لدقائق قليلة، سمعتُ بعدها صوت خطوات على السلم. كانت تلك خطوات إزميرالدا التي رأيتها تنزل إلى الأسفل، وهي تربط حزام ردائها الأبيض.

نظراتُها كانت تحمل الكثير من الأسئلة لكنها لم تطرح أيّاً منها، أمّا نظرتي فكانت كافية لتُبرر موقفي،وتثبت بأني لا أعلم ما الذي يحدث؟. تركتْني واتّجهت إلى الباب الخلفي لترى مَن هناك؟. تبعتُها بخطوات سريعة وبقيتُ واقفة خلفها أمام الباب حتى رأينا والدي داخلاً منه وهو يترنّح. شعره أشعثُ، وملابسه متسخة،ووجههُ غارق في

الظلام. ارتسمت على ملامحه آثار الرعب والغضب في آنٍ واحد. حدَّق بنا بعينين مربكتين مريضتين. وقال بعدها بصوت أشبه بتحطم الخشب: "سالي.. هذه أنتِ؟".

خرجت الكلمات بصعوبة من فمي: "لوسيا.." ابتلعتُ ريقي وأعدتُ عليه: "أنا لوسيا يا أبي".

"ابتعدي.. ابتعدا كلتاكُما". أشاحَ ببصره عنّا، وغرسَ يديه في فروة رأسه ثم صاح: "اتركني.. قلتُ لك اتركني. أرجوكَ ابتعدْ عني. سيقتلنا.. سيقتلنا".

* * * * *

الأيام القليلة التالية بدتْ لي دهراً طويلاً لا ينتهي أبداً. كان اليوم الواحد يمضي كما لو أنه شهر. أبلغتُ الشرطة عن اختفاء سالي، ولكن لا يبدو أنهم مهتمون كثيراً، فوالدي هو صاحب النفوذ الأكبر، وطالما ليس هو من أبلغَ عنها فلن يتحركوا. كما أنَّهُ كان لديهم عددٌ كبيرٌ من الجرائم الغريبة والغامضة التي حدثت في المدينة ليهتموا بها،أكثر من هروب ابنة مدللة ستعود إلى منزلها بعد فترة قصيرة.

ساءتْ حالة والدي جداً.ومع مضي كل يوم، كانت حالته تزداد سوءاً وغرابة. أصبحنا نعاملهُ كما نعامل الأطفال، وإزميرالدا تراقبه معظم الوقت حتى تتأكد

من عدم خروجه من المنزل. لم يكن يتعرف إليَّ في معظم الأوقات، وفي أوقات قليلة كان يناديني باسمي أو باسم سالي. كنتُ أجده أحياناً يبكي، وأحياناً يبدو لي كما لو أنه يتشاجر مع نفسه أو مع شخص لا يراه إلا هو. أصبحَ ضامرَ الجسم أكثر، يترك أطباقه دون الاقتراب منها، أو يأكل منها القليل فقط.

زادَ الرعب في أرجاء بيتنا أيضاً، فبعد أن أبلغتُ عن اختفاء سالي ببضعة أيام، رأيتُها! بدت لي حينها حقيقية جداً، لأنه لم يكن حلماً. لم تكن هي ولا أعلم حقيقة ما رأيته!. كانت تمشي مديرة ظهرها لي متجهة إلى المطبخ. ناديتُها مرة واحدة باسمها ثم صمتُّ للحظات. كانت هي قد توقفت عن الحركة،وبدأت تستدير نحوي ببطء.

سألتُها: "متى عُدتِ؟".

تجاهلتْ سؤالي وبقيتْ محدقة بي. تحوّل لونها إلى البنفسجي، وبدأ جلدها بالتقشر. تحولت إلى كائن آخر لا يشبه أختي أبداً،إنما بدت كما لو أنها جذع شجرة ميتة.

* * * * *

لا أذكرُ ما الذي حدث بعد ذلك، ولكن وجدتْني إزميرالدا راقدة على الأرض. أيقظتني وهي تمسح

وجهي بالماء البارد. سألتني عن سبب رقودي هنا، فرويتُ لها ما حدث بالضبط، ووصفتُ لها كيف كان شكل سالي. كانت تستمع بتمعّن ولكن لم يكن لديها تفسير لما يحدث.

"أظنُّ بأنَّ علينا الاستعانة بأحد". قالت ذلك، وأنا أنظر إليها متسائلة عما تقصده!.

"الأطباء الذين فحصوا والدك، قالوا أنه ليس فيه أيَّة علة، وأنه في الغالب يحتاج إلى الراحة والابتعاد عن التوتر وحسب، أظنُّ أنه يجب أن نتحدث مع رجل دين، أو مع شخصٍ يمكنه مساعدتنا، لا ضيرَ في المحاولة؛ فقد نفذت خياراتنا". وبعد لحظات من الصمت،وكأنها تتأكد خلالها من موافقتي، أضافت حينما لم أعترض على الرغم من تشككي: "أظنُّ بأنني أعرف شخصاً ما، سأرسل في طلبهِ". أومأتُ إليها بالإيجاب، ولم أطرح عليها أيَّ سؤال.

دلّتني إزميرالدا على عنوان شخص ما، وقالت بأنه قادر على مساعدتنا. خرجتُ صباح اليوم التالي إلى العنوان الذي أعطتني إياه. كانت السماء رمادية داكنة وبشدة. وقفتُ أمام مبنى حجري مقابل للبحر. كانت أمواج البحر عالية، وصوت حركة البحر مسموع بوضوح. تحركت الأمواج بانسيابية وانتظام. سرقَ منظرها تركيزي للحظات، ولكني

أشحتُ ببصري عنها ودخلتُ إلى المبنى الحجري دافعة الباب الثقيل الذي أصدر صوتَ صرير حالاً. كان الصوت عالياً بسبب صداه. فقد بدا بهو المبنى خالياً. استوقفتُ أول شخص رأيته وسألته عن فرانز؛فدلّني على مكانه. كان فرانز رجلاً متقدماً في عمره، ومعظم شعره تحوَّل إلى اللون الأبيض. يجلسُ خلف مكتب خالٍ إلّا من ورقتين، طبع عليهما شيء لم أكن أستطيعُ تحديده.

رحَّب بي بابتسامة، رغم أنَّ عينيهِ كانتا تُظهران استغراباً قوياً.

"دلّتني عليكَ إزميرالدا". قلتُ له

"إزميرالدا!؟ كيف حالها؟ لم أسمع عنها خبراً منذ فترة طويلة". كان صوته شاباً عكسَ شكله تماماً

"إنها بخير، ترسلُ تحياتها إليكَ. أعتقدُ بأنكَ ستراها قريباً و..."

قاطعني: "أراها قريباً! أهيَ حقاً بخير؟".

أخرجتُ ظرفاً كتبت فيه إزميرالدا رسالة لا أعرف محتواها وأعطيته لهُ. سحبهُ من يدي بحذر، وشقَّ طرفه وسحبَ الورقة المطوية بداخله. كانت عيناه تتحركان مع أسطر الرسالة. كان يحرك شفتيْهِ ويقرأ الكلمات من دون صوت. عقد حاجبيهِ في بعض

أجزاء الرسالة، ولكنه ما أن انتهى حتى طواها ووضعها على مكتبه الخشبي.

ثنى يديه وقال: "هل حقاً تعتقدون بأنَّ منزلكم مسكون؟"

"لا أعلم ما هو محتوى الرسالة، ولكن المشكلة ليست في المنزل، إنه والدي.. مريض. وشقيقتي:إنها هاربة، ولكنَّ أخبارها انقطعت عنَّا.. أراها دائماً في أحلامي، وأحياناً أمامي في الحقيقة.. لا أعرف كيف أشرح لك ذلك".

عرضَ عليَّ أن يجلب لي عصيراً أو ماءً ولم أعترض. سألني بعد ذلك بعض الأسئلة عن أبي وشقيقتي. لم يكن نقاشنا طويلاً، قبل أن يقرر أن يزور منزلنا بنفسه.

فرانز

ليست كل أنواع الشر يمكنكَ مواجهتها، هناك شر يتحدّاك دون أن يواجهكَ وغالباً يكون هو الأصعب.

لفترة من حياتي، كنتُ قد نسيتُ الشعور بالخوف، وكدتُ أصبح مؤمناً بعدم وجوده. ولكنَّ وجودي من جديد في منزل آل بانكرافت.. منزل أحلام أي شخص بسيط في بارديايس شيل؛ جعلَ ذلك الشعور يتسلل إليَّ. لم أكن متأكداً إن كان خوفاً أم لا، ولكنني شعرتُ بالتحدي بالنظرة الخفية لشيء يقف أمامي، ويُسقط بصره في مركز عيني رغم أنَّ الغرفة كانت خالية. منزل آل بانكرافت وإن لم يعجبكَ لا بد أن تتخيَّل عندما تراه بأنكَ سيّده وتعيش فيه ولو لثوانٍ قليلة. لا أخفي بأنني تخيلتُ ذلك أيضاً،ولكن تلك الفكرة تغيرت منذ أن دخلتهُ،واشتعلت تلك الحاسة الخفية من جديد. حاسة إدراك الشر.

الشر الذي يسير في المنزل.. يسير بطريقة خفيّة لا يمكن لشخص عادي مثلي تحديدها. يتحرك كما لو أنه يطفو في الهواء. هذا الشر يسبح في محيطنا كما لو أنه سمكة سريعة السباحة في الماء، ورغم أنني شخص عادي لا أملك ما يميزني، إلا أنني أشعر به بسهولة.

أتفهَّم خوف هذه الفتاة.. لوسيا، إنها لم تواجه شيئاً كهذا من قبل، وقد تكون وهي في هذا العمر ماتزال صغيرةً أيضاً لتواجه خوفاً من هذا النوع. أنا كبير لأفهم وجود الهلام الأسود الخفي في منزلهم. يمكنني أن أشعر به، لأنني واجهتُ أنواع مختلفة مشابهة له.. ولكن هذا النوع لستُ نداً له، ولن أكون كذلك يوما ماً.

هذا النوع مُدرك بالشر الذي يحوم حولي بنظرة التحدي دون أن أراه.

لا أعلم كيف كنتُ سأفسّر مشاعري للفتاة وبأية كلمات سأخرجها؟، لا أعلم إن كانت ستخرج على هيئة كلمات. كانت الفتاة تراقبني هي وإزميرالدا التي بدتْ وكأنها لم تكبر أبداً، وتنتظران مني تفسيراً.

أردتُ أن أتلو صلاتي القصيرة، ولكنني خفتُ أن تظهر يد من الظلام وتسحقني قبل أن أتلو حرفي الأول. كنتُ أشعر بعجزي وأنا أحاول مواجهة ما لا أعرفه. لم يكن هذا المنزل يُظهر شيئاً فعلياً؛ لذلك كنتُ عاجزاً عن تحديد ما يزعج هذه الفتاة وإزميرالدا. أردتُ أن أنسحب وأهرب دون أن أتفوه بكلمة واحدة، ولكن هل يُعقل أن أترك إزميرالدا وحيدة هنا؟ هل سأتركها في عشّ السواد ومركز

الخطر هذا؟ لا، يجب أن أحذّرهما.

خرجت الكلمات من فمي سريعة: "لا أشعر بأي شيء غريب، أو تحديداً لا يمكنني تحديد وجود أي شيء هنا".

سألتني إزميرالدا: "ما الذي تعنيه؟"

"أعني بأنكم من الأفضل أن تتجاهلوا ما مررتم به، لأنه غالباً مجرد وهم لا أكثر. إذا كنتم تشعرون بالخطر فاتركوا هذا المنزل. في الواقع أنا عاجز عن الشعور بأي شيء".

قالت الفتاة: "أي خطر؟ هل تقول أن نخرج من منزلنا بسبب شيء لا نراه وغير موجود؟"

وددتُ أن أتركها دون أن أفسر أكثر، ولكني قلت: "أنا أخبرُ منكِ في ذلك. قد يكون هناك ما لا نشعر به، ولكنني الآن تحديداً لا أجد أي شيء غريب". راقبتني إزميرالدا كأنها تبحث عن الكذب في عينيَّ، رغم أنني كنتُ أحاول أن أكون صادقاً إلى أبعد حد ممكن. تخيلتُ ظلاً أسود يقف خلفي ويضع أصابعه على كتفي،ونظرته الشريرة تسقط عليَّ من الأعلى. كان هذا تأثير الخوف الذي في قلوبهم ينبعث إلى قلبي، والذي ظننتُ أنه محصن أكثر من قلب أي شخص آخر.

سألتني إزميرالدا وهي تقترب مني: "ألا يمكنكَ فعل شيء؟ الفتاة تخسر والدها". سألتهما ورقة وقلماً، وأعطتني الفتاة قصاصة وقلماً موجودين على المدخنة الكبيرة. كتبتُ عليهما عنوان الشخص المناسب.

نظرت الفتاة إلى الورقة، ومن ثمَّ نقلت بصرها إلى وجهي وعلى وجهها أمارات التساؤل. قلتُ لها: "اذهبي إلى هذا العنوان، وقولي بأنني أنا من أرسلكِ. سيساعدكِ".

لم أكن أتحمّل هجوم نظرات الفتاة والتي توحي بالشك بي، لذلك ودَّعتهما قبل أن تطرح أي سؤال، أو حتى أن تنظر إليَّ نظرة شك أخرى. رافقتني إزميرالدا إلى الباب بهدوء، وانتظرتني حتى أخرج ثم قالت: "شكرا لقدومك.."

"لا تشكريني.. وددتُ لو أتمكن من مساعدتكم، ولكنَّ العنوان الذي أعطيتكم إياه قد يساعدكم". ودَّعتها بإشارة خفيفة من رأسي وذهبتُ.

تركتُ منزل آل بانكرافت، وسرت بخطوات سريعة على طول الشارع. تذكرتُ وجه زوجتي عندما ودَّعتها في الصباح وأنا تارك المنزل. استحضرتُ صورتها ورسمتُها أمامي كما لو أنها في الواقع موجودة معي وتمشي إلى جواري الآن.

انخفضت الشمس، وببطء بدأت تسحب الضوء معها. كان الظلام يبعث الشعور بالقلق كلما ازداد. مشيتُ على الرصيف متجاوزاً عزبة آل بانكرافت، محاولاً تناسي زيارتي غير النافعة لهم. وضعتُ خططاً قصيرة لما تبقى لي من المساء. فكَّرتُ في الكلمات التي سأستخدمها عندما ترحّب بي زوجتي حين أصل، وكذلك فكرتُ في أبنائي، والذين تمنيتُ أن يسعفني الوقت للوصول إليهم قبل حلول الظلام، وحينما يخلدون إلى فراشهم. أسرعتُ خطواتي حاثاً إياها على الذهاب في اتجاهِ منزلي بسرعة أكبر.

انخفضَ الطريق المقابل لعزبة آل بانكرافت، والذي يقع أيضاً بين منازل كبيرة أخرى مشكلاً خطّاً عريضاً فاصلاً بينهم. لا يشبه هذا الشارع المائل باقي شوارع بارديس شيل، وإنما هو مرصوف بأحجار لونها أفتح. جميع أعمدة الإنارة فيه كانت سوداء قصيرة ذات أطراف مزخرفة. راقبتُ الشمس وهي تبعثُ آخر ألوان الغسق على آخر الطريق. كان رحيلها فرصة لعبور أولى نسمات الشتاء الباردة. شددتُ على معطفي بينما أنا أسيرُ بخطوات أسرع من التي أرغمتُ قدميَّ عليها بسبب انخفاض الطريق. وعندما وصلتُ إلى نهاية الطريق، سمعتُ صوت طنين ناعم يكاد يكون مكتوماً. أتى من خلفي بريق كسرَ عتمة الشارع. التفتُّ لأرى سيارة

سوداء ذات شباك معدنية أمامية تقترب ببطء مني. توقفتُ لوهلة ظنّاً مني بأنَّ سائقها يقصدني، ولكنَّ السيارة تجاوزتني وانعطفت في آخر الطريق. اختفى بريقها وعادَ لون الغسق البرتقالي الداكن.

تجاوزتُ الطريق بين المنازل الكبيرة مقتحماً الحارة التالية، والتي كانت معظم منازلها متشابهة، وأصغر حجماً من منزل آل بانكرافت، وكلها محاطة بسياج قصير تظهر خلفهُ حديقة صغيرة. كانت الحياة تنبض في كل شوارع بارادايس شيل، والتي بدأت في السنوات الأخيرة تتحول إلى مزار سياحي بسبب فخامة تصميم معالمها. وحتى الأحياء القديمة فيها، كانت تحمل طابعاً مميزاً لا يشبه باقي المدن. لم تتأثر سياحة المدينة حتى بعد تفشي حالات التعاطي فيها، أو الجرائم الغريبة التي حدثت في السنوات الأخيرة. ظلت بطريقة سحرية تجذبُ الزوار من جميع أنحاء البلاد. وكل هذا التقدم في مدينتنا يعود فضله إلى العائلات الثلاث المؤسسة: بانكرافت، لورينت، وآدامسون.

كانت الحارة التي دخلتُها فارغة وشبه مظلمة؛ لأنَّ أعمدة الإنارة لا تُضاء إلا بعد الغروب تماماً. مررتُ بجوار سياج قصير أبيض باهت تغيَّر لونه بسبب الغبار. كانت تقف خلفهُ فتاة جمعت شعرها

على شكل ذيل حصان، وترتدي بنطال جينز واسعاً وقصيراً لا يصل إلى قدميها.

صاحت الطفلة التي تركت ألعابها متناثرة تحيّيني: "مرحباً فرانز". وقفزتْ من مكانها جرياً لتلتصق بالسياج بسعادة.

أثنيتُ ركبتي لنصبح أنا وهي بالطول ذاته. حشرتُ أصابعي بين فراغات السياج، وتشبثتُ فيه لكي أتوازن. رحَّبتُ بها بدوري وسألتُها عن سبب بقائها وحيدة في المساء. لم تجب الفتاة فوراً، وإنما تعلقت عيناها بشيء ما في المنزل الواقع خلف ظهري تماماً.

"ما الذي تنظرين إليه؟". التفتُ إلى المنزل، وأشرتُ إليه بوضوح.

"لا، بل هناك". أشارت إلى الممر المظلم بين المنزلين المتشابهين خلفي. عقدتُ حاجبيَّ مستغرباً مما كانت تنظر إليه! كان الممر غارقاً في الظلام وفارغاً لا يُظهر أي شيء.

تجاهلتُ ما كان يقلقها، وأمرتها: "يجب أن تعودي إلى الداخل قبل أن تقلق والدتك". وقبل أن تبتعد حشرتُ يدي في جيب معطفي، وأخرجتُ قطعة حلوى مغلفة وأعطيتها لها من فوق السياج. أخذتْها وهي مشدوهة تراقب الزاوية ذاتها. التفتُّ مجدداً،

لكنني لم أرَ سوى الفراغ.

تجاهلتُ الفتاة ورحلتُ مبتعداً عنها، وفي آخر الطريق قبل أن أنعطفَ ألقيتُ نظرة أخيرة وبعيدة عليها. كانت ماتزال تراقب المكان المظلم ذاته.

لوسيا بانكرافت

الخوف هو العجز، شعور يشلُّ حواسّكَ وتصبح تائهاً رغم أنكَ في مكانك. تنتكس ضربات قلبك، وتستتشعرُها خلف جلدكَ وعظامك. أنت تشعر بأنكَ تقف في طريق ولا تعرف أيّ اتّجاه عليك أن تسلك. الخوف خطورة محدقة بكَ، تسري تحت جلدكَ وتمتزج بأنفاسك.

أفتحُ عينيَّ صباحاً، وشعور كاذب يخبرني بأنَّ سالي هنا. أهرعُ إلى غرفتها رغم أنَّ النعاس مايزال ينشب مخالبه على وجهي، ولا أجد أثراً لها. للمرة المائة أسألُ نفسي: أين هي سالي الآن؟ ولا أجدُ إجابة، ولا إزميرالدا كذلك. أما والدي.. فلم أعد أنتظر منه إجابة، فهو لا يقوى على قول كلمة واحدة مفهومة. الكلمة الوحيدة التي تصف حال والدي هي الجنون.

أعودُ إلى غرفتي وحيدة،هاربة من إزميرالدا التي أصبحت تستتشعر خوفي عن بعد، فكلما تحركتُ في المنزل وجدتُها تظهر أمامي لتواسيني. حبستُ نفسي

في غرفتي؛حتى لا أجعلها تضطر إلى موساتي حين تراني أتجوَّل في المنزل بحثاً عن سالي.

يحط طائر أسود على النافذة الكبيرة التي تنتصف الغرفة، الستارة الشفافة مغلقة، ولكن الستارة المخملية ماتزال مفتوحة. يصعب عليَّ تحديد شكل ذلك الطائر، فأتحرَّك باتّجاه النافذة. أراهُ يحرك جناحه مرة واحدة، ويقفز ضارباً بقدمه الأرض. إنه غراب.. يطيرُ ما إن أقتربُ من زجاج النافذة. أستديرُ وأتركُ النافذة خلفي، وأعود إلى فراشي.

تطرقُ إزميرالدا الباب، وأتأكَّد بأنه لا مناص لها من إحساسها بي. أشكرُها في أعماقي لأنها تُرغمني على وجودها معي،رغم رغبتي الجامحة في البقاء بعيدة عن الأنظار.

تدخلُ الغرفة بهدوء وتسألني: "متى استيقظتِ؟". وتقتربُ لتجلس على طرف السرير.

أجيبُها: "منذ وقت قصير".

"سأعدُّ الإفطار لنا. بالمناسبة، هل قررتِ إن كنتِ سترين ذلك الرجل الذي أعطاكِ فرانز عنوانه أم لا؟". سألتني ذلك السؤال، ونظرة رجاء ارتسمت في عينيها.

"هل تعتقدين حقاً بأنَّ هذا الكلام صحيح؟ لا يوجد

شيء مثل هذا.. ثم إنَّ مشكلتنا الأساسية هي رحيل سالي،و تأثيرها على أبي وعلى نفسياتنا جميعاً، وليس أشباح المنزل الغريبة هذه". تهز رأسها بعصبية

"إنَّ هذه الأشياء حقيقية وتحدث..."

"إزميرالدا.. أنا أعيشُ هنا منذ أن ولدتُ، لم أرَ يوماً شيئاً غريباً. كل هذه أوهام سببها الخوف والقلق، لا أكثر من ذلك".

"أوهام تراها كلتانا ونشعر بها؟". سألتني وتحركت مبتعدة عن الفراش متجهة إلى باب الغرفة. نهضتُ وسرتُ خلفها قبل أن يتسنّى لها أن تغلق الباب. نزلنا إلى المطبخ ونحنُ نمشي متجاورتين وبسرعة واحدة. جلستْ بالقرب مني حولَ طاولة المطبخ، وقامت بتحريك الأطباق في اتّجاهي قليلاً.

"ألن يأكلَ والدي معنا؟". سألتُها، ولكنَّ تعبير وجهها أجابَ قبل صوتها.

"والدكِ ليس على ما يرام، سيأكل في غرفته". حركتُ رأسي والتقطتُّ قطعة خبز من فوق الطاولة، محاولة إخفاء الإحباط الموجود في داخلي.

"لماذا؟". رفعت إزميرالدا رأسها فجأة. أكملتُ:
"لماذا يحدث هذا مع أبي؟"

"إنَّ غياب شقيقتكِ أتعبهُ. أنتِ تعرفين مدى تعلقه بها، هو لا يقوى على أن يفارقها يوماً واحداً". مدَّت ذراعها لتقبض على كتفي وتربّت عليه.

"وأنا؟ لماذا لستُ مهمَّة؟ يقوى على فراقي وأنا موجودة، بينما سالي لا يقوى على أن تغيب عنه. ألستُ أنا كذلك نسخة عن سالي؟، فلماذا لا يحبني كما يحبها؟ لن أسامحها إن أصابه مكروه".

تركتْ كل ما تفعل ومدَّت يدها لتمسك بيدي، وقالت لي بعتاب يُخفي خلفه كثيراً من المحبة، بينما تضغط ضغطة ضعيفة بأصابعها،وكأنما تشدّ انتباهي إلى أنها تقف إلى جانبي ولن تتركني مطلقاً: "تشابهكُما في الشكل لا يعني أنَّ لكما روحاً واحدة،.. أنتِ لوسيا.. وهي سالي.. ولو اختفيتِ أنتِ لانهارَ والدكِ مثلما يجري معه الآن.. ولسكبتُ أنا بحراً من الدموع. ثم أضافت: "لتعدْ إلينا بخير فقط". قالت وأشاحت ببصرها عني،بعد أن ابتسمتْ لي شبح إبتسامة.

قاطعتْ خادمة شابة حزننا القصير، والصمت الذي خيَّم فجأة علينا أنا وإزميرالدا، ودخلت المطبخ حاملة بيدها عدة رسائل يومية. ولكن برزَ من تلك المجموعة ظرف كريمي اللون كان مغلفاً لرسالة كتبت على نوع الورق الطبي الفاخر، كذلك الشمع

الذي غُلّفتْ به الرسالة كان من النوع القاسي باهظ الثمن. طُبعَ على الشمع نقش عائلة لورينت. مزقتُ طرف المغلف،وسحبتُ الورقة الصغيرة والمطوية مرة واحدة داخل الظرف.

عودتكِ إلى هنا كانت بمثابة إكمال صورة السعادة الناقصة

سعادتي لا تُوصف لذلك..

أتمنى أن تقضي أوقاتكِ كما تمنَّيتِ

اسمحي لي أن أدعوكِ مساءً للعشاء في منزلنا.

فرغبة عمَّتي مارجيت والتي عادث تواً،

تفوق رغبتي في لقاء مَن سرقت قلبي.

بيتر لورينت.

سرقتُ نظرة سريعة بطرف عيني نحو إزميرالدا، والتي كانت تراقبني بنصف ابتسامة ماكرة. مدَّت يدها لتأخذ مني الورقة. كدتُ أعترض ولكن سعادتي كانت كبيرة بحيث إنها لم تسعني وحدي؛ فأردتُ من يشاركني بها. ابتسمتُ بخجل بينما أعطيتُها الورقة. رأيتُ عينيها تتنقلان في سطور الرسالة. طوتْها بعد ذلك،وسحبت نفساً طويلاً وهي تبتسم.

"من الجيّد أن يحدث ما يجعلكِ سعيدة يا لوسيا

في ظل هذه الظروف".

خجلي أكبر من أن أستطيع مواجهتها بنظرتي أو حتى الرد عليها، فاكتفيتُ بتحريك رأسي. انتقلتْ أظافري إلى فمي، والذي مايزالُ باسماً.

"و الآن يجب أن نختار ما يليق بعشاء في لورينت هول".

اشتعلَ حماسي؛فصحت: "هذا صحيح".

طوت إزميرالدا الورقة واختفتْ إبتسامتها، وتحوَّل تعبيرها فجأة إلى تعبير جدّي. لم تكن تعلم بأنني ما أزالُ أنظر إليها. تجاهلتُ تعبيرها الغريب وأكملتُ تناول إفطاري،بينما توقفت هي وأعادت الورقة إلى المغلف الذي أتلفتْ طرفه.

كدتُ أنقلُ الأطباق معها بينما أنهض، ولكنَّ إزميرالدا نهتْني عن ذلك: "اتركيها، يجب أن ترتاحي ولا تجهدي نفسكِ؛ حتى تكونين بأبهى شكل في المساء. سأقوم أنا بتنظيف المائدة". لم أعترضْ، وفوراً تركتُ المطبخ عائدة إلى غرفتي.

لمحتُ والدي يقف في الممر، وأول ما شدَّ انتباهي وما وقعت عيناي عليه كانت عيناه الداكنتان، واللتان خبّأهما ظل شكل بحيرة صغيرة عليهما. توقفتُ في مكاني وأنا مازال في منتصف طريقي

على السلم. تأملتهُ لثوانٍ بقيَ خلالها وجهه العصبي ملتفتاً في اتّجاهي. استدارَ ببطء ورحلَ إلى غرفته. لم أتحرك من مكاني حتى سمعتُ صوت إغلاق باب غرفته.

خفتُ أن أبقى وحيدة في غرفتي، ووالدي في غرفته التي لا تبعد مسافة كبيرة عني. عدتُ إلى الطابق السفلي. حملتُ كتاباً كان موضوعاً على الطاولة، كنتُ قد قرأتُ جزءاً صغيراً منه وخرجتُ به إلى الحديقة. جلستُ والكتاب بين يدي، مضى الوقت وأنا أتأمل الصفحة ذاتها عاجزة عن تجاوزها.

بعد مرور وقت طويل،أدركتُ خلاله بأنني لن أستطيع أن أقرأ أكثر من سطر واحد، وكذلك الجو أبرد من أن أستطيع الجلوس خارجاً بملابس خفيفة، فقررتُ الصعود إلى غرفتي، والبقاء فيها مستسلمة للخوف.

* * * * *

كان الفستان الأبيض المصنوع من الدانتيل متوسط الطول، بربطته الجانبية على الخصر هو فستان سالي، كذلك عقد اللؤلؤ النحيل كان عقدها، ولكنها لم تكن تحب ارتداءهُ بسبب صغر حبّاته، رغم أن هذا بحد ذاته أعطاهُ شكلاً أنيقاً. انتعلْتُ حذاءً كعبهُ لما يكن عالياً جداً،وإنما سميكاً اختارتهُ

لي إزميرالدا، كما اختارت هي العطر لي،وتركتني بعد ذلك وخرجت.

حين خرجتُ كان الممر المؤدي إلى السلم معتماً لا ضوء فيه، إلا ذاك المنبعث من الأبجورة الجانبية الصغيرة الموضوعة على طاولة مستطيلة في منتصف الطريق. مشيتُ وأنا أحاول إحكام إغلاق حقيبتي الصغيرة.

ظهر والدي أمامي فجأة؛ فشهقتُ.

"أبي.." تجاهلني وتقدَّم ببطء في اتّجاهي. كنتُ أرتعش خوفاً مع كل خطوة يقترب بها مني. حاولتُ ألّا أظهر له خوفي وأن أتماسك.

"هذا ليس لكِ:. أشارَ إلى العقد حول رقبتي.

"أعلم.. إنهُ عقد سا.."

قاطعني وهو يصرخ: "إذا اتركيه، لا تأخذي هذا العقد". مدَّ كفَّه إلى رقبتي فعدتُ خطوة إلى الوراء، ولكنَّ ذراعه أحكمت القبض على العقد. سحبهُ فشعرتُ بلسعة طفيفة على جانب رقبتي، كان سبُبها انقطاع العقد.

تطايرَ اللؤلؤ في المكان. بعض القطع ثبتت على السجاد. والقليل منها تدحرجَ إلى أن اصطدمَ بزوايا الممر الضيقة. وقطعة واحدة ظلت تتدحرج على

رخام الممرّ.

راقبتُ وجه والدي مصدومة!. سمعتُ وقع خطوات تأتي مسرعة. وكانت تلك إزميرالدا، والتي احتاجتْ بضعَ ثوان لتفهم ما حدث. سكتَ والدي وبقيَ كذلك، ولم أقوَ أنا على قول شيء. تكوّنتْ دمعة كبيرة في هدب عيني. احتضنتْني إزميرالدا، ورمت والدي بنظرة غضب.

"مابك؟". قالت وهي تشير بكفّها إلى أبي، ولكنها ضمّتْ أصابعها فجأة خوفاً من والدي. لكنَّ أبي لم يُظهر غبطته من أسلوبها، بل تركنا بصمت. ابتعدتْ إزميرالدا عني قليلاً،لكنَّ كفّيها ماتزالانِ تُحيطانِ كتفيَّ.

"لا بأس، تذكّري بأنه مريض". كدتُ أجهش بالبكاء وأنا أنوي العودة إلى غرفتي والانعزال فيها. تركتُ إزميرالدا واقفة في مكانها في منتصف الممر،و ابتعدتُ عائدة أدراجي. تبِعتني وهي تناديني.

"لا يجدر بكِ أن تعاقبي نفسكِ لأنه مريض فقط". تبِعتني إلى غرفتي حتى وصلت كلتانا إلى الباب. قبضتْ على ذراعي برفق: "ضعي عقداً آخر، بينما أنا سأجمعُ اللؤلؤ المتناثر هناك، وسأحاول إصلاح ذلك العقد. لا تحاولي الرفض، ستذهبين إلى ذلك

العشاء اليوم".

شفتاي ترتجفان وأنا أنظرُ إليها، أستمدُّ قوتي من ثباتها وإصرارها ورصانتها، وضعتْ كفّها على خدي برقة، وقالت وهي تمسح بإبهامها الدمعة التي نجحت في الانسياب على خدي: "كلتانا نحتاجُ إلى بريق سعادة نتمسك به؛ لننجح في تخطي هذا النفق المظلم الذي يبدو وكأنه بلا نهاية.. حاولي أن تقضي وقتاً طيباً،.. ولنسهر معاً نثرثر عن مغامرة حبكِ الصغيرة مع فارس لورينت".

نجحتْ في جعلي أبتسمُ.. إنها تنجح في إسنادي دوماً قبل أن أقع.. لحظات كهذه تذكّرني كم أنا مدينة لها بالكثير!..

قبل أن تدخل السيارة إلى لورينت هول، كدتُ أنسى إلى أين كانت وجهتي. وعدتُّ إزميرالدا بعدم التفكير بشيء، ولكنني لم أفِ بذلك.. ولم أكتفِ بالتفكير فقط، وإنما رحتُ أتخيّل وأضع احتمالات مختلفة للوضع الذي أمرُّ به. تساءلتُ في خلوتي المعتمة وأنا في أحضان مقعد السيارة الجلدي الوثير: هل سيتصرف والدي مع سالي بذات الطريقة، لو كنتُ أنا المفقودة؟ أعاد هذا السيناريو صورة سالي في ذهني، ورحتُ ألوم نفسي لأنني أعيش حياتي بطريقة طبيعية، بينما

هي غير موجودة. سالي شخص غير مسؤول، ولا تبالي بمشاعر الآخرين عادة.. لماذا يجب أن أتحمَّل تبعات طيشها وبرودها؟ هذا ما كنتُ أواسي نفسي به.

بوابة لورينت هول الحديدية كانت مفتوحة، والأنوار الساطعة الموجودة على جانبي طريق السيارات الحجري للمنزل أعادتني إلى الواقع. كانت مصابيح منزلهم الخارجية كعادتها تبعث البهجة لمن يمرُّ حولها، كما كانت تُضفي منظراً مهيباً على المنزل الضخم.

وصلت السيارة إلى آخر الطريق، وانعطفت ما بين السلم الحجري ونافورة الباحة. أبطأ السائق سرعة السيارة تدريجياً حتى توقفت. ترجَّلَ من السيارة، وما كاد يتقدم ويفتح لي الباب الخلفي، حتى ظهر عامل منزل آل لروينت وفتحَ الباب بنفسه.

ساعدني على الخروج من السيارة قابضاً على كفي. أحنى رأسه مرة واحدة مبتسماً تحية لي، وفعلتُ الشيء ذاته بدوري.

"الجميع في انتظار وصولكِ آنستي". قال وهو يشير إلى السلم كما لو أنه عامل فندق.

"أرجو ألّا أكون قد تأخرت". قلتُ ذلك وأنا أعلم بأنني لم أتأخر، وإنما وصلتُ في الوقت المناسب

للزيارة، وخصوصاً دعوة عشاء كهذه.

استقبلتني السيدة جانين لورينت وحدها عند الباب، كعادتها كانت تبدو أنيقة رغم أنها لا تبالغ في أناقتها. ترتدي تنورة ضيقة تغطي ركبتيها، وقميصاً كحلياً بأزرار ذهبية لامعة عليها نقوش خفيفة لا يمكن تمييز شكلها إلا عن قرب. حيّتني ملامسةً وجنتها بوجنتي برقة. كفُّها الأيسر قبض على ذراعي برفق، ويدها اليمنى كانت تحتضنني بشكل خفيف حيث وضعتها تحت كتفي.

"يسرّني أن أراكِ من جديد، لم يتسنَّ لنا أن نلقي التحية على بعضنا في جنازة السيد آدمسون". ماتزال ذراعها ممتدة على كتفي.

"لم أكن على خير ما يرام حينها، أعلم بأنَّ رحيلي المفاجئ كان وقاحة مني ولكن.."

"لا داعي للمبررات عزيزتي. تسرُّني حقاً عودتكِ إلى هنا. إنَّ مارجيت عمة الأولاد قد عادت كذلك إلى المدينة". كنتُ أعلم بأنها عادت من خلال رسالة بيتر، ولكنني أظهرتُ دهشتي وسروراً طفيفاً أمام السيدة جانين.

مشينا إلى غرفة الاستقبال الأنيقة الموجودة في الطرف الأمامي الأيمن لمنزلهم. جلستُ على كرسي يتسع لشخص واحد، ولكنه كان واسعاً جداً بالقرب

من الأريكة الكبيرة التي جلست عليها السيدة لورينت.

سألتْني بعد أن تحركت في مكانها لتفردَ تنورتها: "كيف هو حال والدكِ الآن؟"

"هل أنتِ على علم بحالته أيضاً؟ إن الأمر مقلق حقاً.. والدي ورحيل سالي".

"آوه عزيزتي، أنتِ تواجهين كل هذا وحدكِ، تأكدي بأننا جميعاً هنا نقف إلى جانبكِ، لن نتركك أبداً.. وإن كنتِ تودّين قد يستطيع الكساندر المساعدة في شأن والدكِ، فمثلاً.. أن يتحدث معه". أردتُ أن أطلب منها أن تجعله يتوسط لدى الشرطة للبحث عن سالي، طالما كان نفوذه أكبر، وهم لا يستمعون إليَّ. عدلتُ عن ذلك فجأة؛ فلا شأن لها لأقحمها وزوجها بمشاكلنا.

"أشكركِ على لطفكِ سيدتي. أعتقد بأن المسألة تحتاج إلى الوقت فقط".

دخلت الغرفة سيدة شقراء بنيتُها قوية، ولكنَّ وجهها لا يخلو من الأنوثة ولمسة الجمال رغم تقدم سنّها. كان وجهها مصحوباً بالقليل من ذكريات الطفولة، وذكرياتي مع بيتر. إنها السيدة مارجيت عمّة بيتر.

تقدمت بخطوات سريعة دون أن تبتسم. نهضتُ من مكاني فجأة وقبل وصولها قمتُ بتعديل وضع فستاني. مدّت ذراعها لتصافحني، وعندما فردتُ أصابعي وفتحتُ كفّي لها قبضت عليه، وأبقت قبضتها فترة أطول من اللازم.

تأمّلتني بوجه خالٍ من التعبير، ثم قالت: "لوسيا؟ لقد كبرتِ وازدادَ جمالكِ". ابتسمتْ فجأة بعد أن قالت جملتها تلك، وقلت: "هذا لطف منك سيدة.. ستروم". استغرقتُ لحظات قصيرة حتى أتذكر كُنيتها بعد الزواج.

لم تُفلت مارجيت كفّي، وبقيت تتأملني واقفة للحظات.تدخلت بعد مرورها السيدة جانين وقالت: "أعتقدُ بأن الجميع سيحضرون على العشاء الآن، هل نذهب؟"

* * * * *

بعد وجبة العشاء، والتي التقيتُ ببيتر خلالها، اختفى من جديد تاركاً إياي أجلس في الحديقة مع والده وشقيقهِ ماركوس، الذي كان يحتضن ابنته جيني ويجلس قريباً من زوجته طوال الوقت. كان الغضب يضيء شعلته الأولى الصغيرة في جوفي لاختفاء بيتر. لا أعرف كيف يجب أن أتصرف مع والده، وكل ما أقوم به هو الابتسام بخجل عندما

يتحدث. يحمل كلٌّ منا فنجاناً سيراميكياً بيده، ولكننا لم نعد نشرب منه.

سألني السيد لورينت: "كيف تسير أعمال والدكِ الآن؟".

"أعتقدُ بأنها تسير كما كانت سابقاً، لأكون صريحة أكثر.. لا أعلم تحديداً فلستُ أملك الخبرة الكافية في أعماله، ولم أسأل".

"ألا يخرجُ والدكِ من المنزل؟".أحرّكُ رأسي بخجل وحزن بالنفي.

يتدخل ماركوس: "كيف تقضينَ وقتكِ منذ عودتكِ؟ عمتي عادت تواً ولكننا بالكاد نراها في المنزل".

أقهقهُ: "بالكاد ستراني خارج منزلي، إنني أفتقده أكثر من أي شيء". يبتسم ويشيحُ بوجهه ذي المعالم الماكرة عنّي. ألتفتُ إلى زوجتهِ فتصطنع ابتسامة وتستأذن بهدوء بعد ذلكَ لتأخذ جيني إلى الداخل. وفي حين أراقبها وهي تسير في اتّجاه المنزل، يظهر بيتر وهو يسير بعكس اتّجاهها. يرميني بنظرة تُظهر لطفه قبل أن يصل إليَّ.

"هل يمكن أن أسرق هذه الضيفة منكم لنتمشى؟". ألقى نظره على السيد لورينت والذي يبتسم ويحرك رأسه إيجاباً. أنهضُ وأتَّجه نحو بيتر، ونسير سوياً

مبتعدين عن والده وشقيقه.

"يجب أن تري البحيرة الجانبية بعد أن ركّبنا المصابيح الصغيرة حولها". قبل أن أجيبهُ بنعم،تظهر البحيرة في آخر طريقنا على الجانب الآخر للمنزل. رغم أنها ماتزال تبعد مسافة قليلة عنا، إلا أنَّ دهشتي حين رأيتُها كانت كبيرة!.

"تغيرت في غضون هذه الفترة القصيرة، إنَّ المصابيح كانت أفضل ماتمَّ إضافته إليها".

يبتسم ويضع كلتا يديه في جيبي بنطاله: "أتذكرين كم شاركتْنا هذه البحيرة الصغيرة من ذكريات!، منذ طفولتنا إلى الآن". ابتسمَ رغم أن جملته بعثت وخزَ حزن في داخلي؛ فسالي أيضاً شاركتنا العديد من الذكريات هنا.

يقبض على كفّي فجأة ويقول: "لوسيا، لماذا هذا الخوف في عينيكِ؟، تأكدي بأنني سأقف إلى جانبكِ إلى الأبد. سنبحث عن سالي ونجدها.. هذا إن لم تعد هي بنفسها قبل أن نبحث عنها".

"هذا كل ما أحتاجهُ.. لا أحد سوى إزميرالدا يقف بالقرب مني.. أنا أقف وحدي وأواجه الخوف وحدي.. وهذا الأمر متعب حقاً، لا أعلم متى ستنتهي قوتي، وأكفُّ عن فعل أي شيء؟".

"لا تقولي هذا.. أقصدُ أنه من حقكِ أن تقلقِي، ولكن أنتِ لستِ وحيدة، فأنا معكِ".

يقاطعنا صوت من بعيد: "يجب أن نقطع عليكما خلوتكما، ولا نترك الأطفال وحيدين هنا". تتقدم السيدة مارجيت من تحت ظلال الأشجار المحيطة بالبحيرة.

تكمل كلامها: "اعذراني على تطفلي، ولكنني مللتُ من أحاديث الكبار".

يقول بيتر: "لسنا أطفالاً يا عمتي".

تبتسم وتقول: "ليس في نظري، أراكما كما كنتُما سابقاً طفليْن لم تكبرا.. ماتزالانِ تلعبان حول هذه البحيرة، وتركضان خلف بعضكما". يضحك كلانا أنا وبيتر.

* * * * *

ودَّعت بيتر ملوحة له من خلال الزجاج الخلفي للسيارة، بينما كان يقف عند النافورة ذات الحواف الحجرية أمام سلم المدخل الخاص بمنزلهم. ابتعدت السيارة باتّجاه البوابة الحديدية الضخمة، والتي كانت مفتوحة على مصراعيها. أصبح بيتر بعيداً، ولكنني مازلتُ أرى يده تلوح لي. استدرتُ وأنا لا أرغب في أن أكون أول من يستسلم خلال تحدي

الوداع ذلك. التفتُّ إليه مرة أخرى، ولكن السيارة كانت قد ابتعدت بحيث جعلت بيتر يختفي عن ناظري.

لم أشعر بالوقت خلال رحلتي القصيرة في العودة إلى المنزل. جزء مني كان يؤنبني على العيش بطريقة طبيعية بالرغم من عدم وجود سالي، وجزء آخر أقلّ كان سعيداً بالوقت الذي قضيتهُ مع بيتر.

يسترجع خيالي ذكريات عديدة قصيرة، يختلف أصحاب الوجوه فيها، تارة كنتُ أتذكر سالي، وتارة أخرى يظهر وجه بيتر في خيالي، ولكنَّ وجهه السابق حين كانت علاقتنا أقوى. كانت علاقتنا في السابق عكس ما هي عليه الآن، فالآن نتعامل مع بعضنا كما لو أننا نتعرف من جديد.

انعطفت السيارة لتسلك الطريق المقابل للورينت هول، فأصبح المنزل بأنواره خلف السور الحجري المرتفع. أرخيتُ جسدي في مقعد السيارة الجلدي. أحنيتُ رأسي وأغمضتُ عينيَّ مستغلة الهدوء المطمئن. حركتُ أصابعي على رقبتي، وتذكرتُ أبي فجأة فقُذِف الحزن في قلبي من دون إنذار. عقدتُ حاجبيَّ وفتحتُ عينيَّ لأرى نفسي في مرآة السيارة، ولكن الصورة لم تكن واضحة، فالطريق كان معتماً. لم أرَ شيئاً في المرآة حتى صورتي لم تعد موجودة.

أفزعني ذلك فتحركتُ من مكاني متجهة إلى الأمام قليلاً لأستنجد بالسائق ولكنه لم يكن موجوداً. ضاقَ الطريق بي والسيارة كانت تتحرك لوحدها. ازدادت العتمة وأصبحت المصابيح الأمامية للسيارة تضيء وتختفي مراراً، ولكنها في النهاية توقفت عن العمل. صرختُ وحاولتُ فتح الباب ولكنه لم يفتح. كانت السيارة تمشي في خط مستقيم، والطريق يضيق كلما سرنا فيه.

شهقتُ بصوت بالكاد يُسمع، وفتحتُ عينيَّ من جديد لأجد السائق يقود السيارة بصمت دون أن يلاحظ شيئاً!. استيقظتُ من ذلك الكابوس القصير وكنتُ ممتنة لأنه انتهى. دخلت السيارة عبر بوابة منزلنا، والذي كانت واجهته معتمة على عكس ما كانت عليه سابقاً، وعلى عكس لورينت هول كذلك.

فتحتُ باب السيارة وترجلتُ منها قبل أن يتسنَّى للسائق فتح الباب لي. مايزالُ النعاس متشبّثاً في عينيَّ، وأشعر بدوّار خفيف بعد تلك الغفوة القصيرة. ابتعدَ السائق عن مدخل المنزل متجهاً إلى المرآب. بقيتُ وحيدة على الطريق الحجرية المؤدية إلى باب المنزل. كنتُ سأمشي إلى المدخل لولا أنَّ ذلك الهمس استوقفني. في البداية كان بالكاد مسموعاً: "لوسيا.." أتى الصوت من بين أشجار الحديقة

الأمامية.

لم ألتفتْ إلا حين تكرَّر: "لوسيا"...كانت المرة الثانية مسموعة، وقيلتْ الكلمة بنبرة عصبية أكثر. التفتُّ لأجد سالي تقف متّكئة على شجرة. تطايرَ فستانها السكري مع الهواء، ولم تكلف نفسها إزاحة خصلات شعرها التي كانت تضرب وجهها بقوة.

ابتعدتُ عن الطريق الحجرية متجهة إليها، ولكنها ابتعدتْ. تبعتُها بسرعة أكبر حتى وصلنا إلى الكراسي الحجرية الموجودة على المرج الصغير للحديقة الأمامية.

"سالي، متى عدتِ؟".

"لم أرحل أساساً". التفتتْ وراقبت عينيَّ.

قالت مجدداً: "أنا موجودة، ولكن لا يمكنكِ رؤيتي".

"مهلاً، ما الذي تقصدينه؟ أنا لا أفهم شيئاً!"

"احذري، لقد عاد.. هو موجود الآن". صمتت لفترة قصيرة، وصرخت بعد ذلك مغطية وجهها بكفّيها. أبعدتهُما وهي تقول: "أنقذيني منه، يجب أن تجديني. دعيني أعود أو أرحل.. فقط.. لا تتركيني له!". كان وجهها مليئاً بالخدوش، وعيناها مجرد تجويفين أسودين فارغين.

تحطمتْ فجأة وتحولت إلى غبار. صرختُ وأنا أجري على المرج متجهة إلى مدخل المنزل.

نحنُ من ربط الظلام بالخوف، بينما لا علاقة حقيقية تجمعهما ببعض. الخوف يمكنه أن ينبعث في داخلكَ ولو كنتَ في قلب النور. يمكنك أن تجمع الظلام في قلبكَ، ولا تعود خائفاً من أي شيء. أنت لا تتطبّع بالخوف حين تصبح داكناً، وإنما أنتَ تبدأ بفصل الخوف عن الظلام لأن كليْهما مختلفان.

استيقظتُ على ضوء المصباح الجانبي المجاور لسريري، سطعَ بقوة لم تعتدها عيناي، رغم أنَّ وهجه كان بسيطاً. فركتُ عيني وحجبتُ بكفي الضوء عنها. استدرتُ في فراشي إلى الجانب الآخر وفتحتُ عيني من دون أن تتضايق من الضوء، لأن الجهة الأخرى من الغرفة كانت مظلمة تقريباً، ولا يشوب ظلامها سوى انعكاس المصباح الأصفر على الجدار. كانت إزميرالدا مجاورة لي حتى غفوتُ، ولكن عندما استيقظتُ لم أجدها بجواري بل كان مكانها فارغاً.

تذكرتُ شقيقتي سالي؛ فنهضتُ فجأة مبعدة رأسي عن وسادتي، ولحافي كذلك عن جسدي. بدأتُ بجرّ جسدي إلى حافة السرير. وفجأة هبطت قدماي

بالتوقيت ذاته على الأرض. سحبتُ ردائي وربطتهُ وخرجتُ أبحث عن إزميرالدا في الظلام.

ناديتها، ولكن لا مجيب!. كان الصمت هو كل ماهو موجود في هذا الظلام. سمعتُ وقع خطوات ثقيلة تضرب الأرض، ولكنني لم أتمكن من تحديد مصدرها بعد. تحركتُ في اتّجاه السلم وأنا قلقة من الاقتراب من الممر المجاور لغرفة والدي.

"إزميرالدا". ناديتُ؛ فأجابني الهدوء التام.

ثبتتُّ جسدي على الدرابزين، وأطليتُ برأسي إلى الطابق السفلي. كان هناك ضوء مصباح منبعثاً بشكل طفيف، بينما حازت العتمة على الجزء الأكبر من المنظر الذي أراه. ناديتُ مجدداً ولكن لا مُجيب.

بعد صمت قصير، أتى صوت إزميرالدا خشناً ثقيلاً كأنما أيقظتها من نومها: "سأعود.. حالاً".

"هل أنتِ على ما يرام؟" انتظرتُ إجابتها، ولكنها لم تُجبْ.

ابتعدتُ عن الدرابزين، ومشيتُ باتّجاه غرفتي مجدداً،وما إن خطوتُ خطوات قليلة حتى سمعتها تجيب بصوت لا يشبه صوتها أبداً، وبنبرة بطيئة: "نعم". كان صوتها بعيداً بعض الشيء. توقفتُ

لأتأكد من صوتها إن كان هو صوت إزميرالدا أم أنَّ من أجاب شخص آخر.

عدتُ إلى فراشي، وتكورتُ تحت اللحاف في انتظار عودة إزميرالدا. كانت ثقتي بها دائماً غير محدودة، كما كانت عاطفتها معي منذ أن رحلت أمي. كانت هي الأم البديلة، والتي لم تشعرنا أنا وسالي أبداً بالفراغ الذي تركتهُ والدتي.

رأيتُ ظلها يحجب النور الرمادي المنبعث من الباب المفتوح، حينها ارتخى جسدي الذي كان مشدوداً بسبب القلق الذي أشعر به. اقتربتْ وأصبح صوت خطواتها أوضح، وظلها يتسع حتى حجب ضوء المصباح الأصفر. اشتدَّ الظلام في غرفتي، ولم يعد بإمكاني رؤية أكثر من النور الخارجي خلف ستار النافذة. استدرتُ بينما أنا مستلقية لأجدَ المصباح الجانبي لي مطفأ. نظرتُ في اتّجاه الباب لأجد ظلاماً يغطي مكانه. كان هناك ظلٌّ يتحرك في الظلام، ويحجب رؤيتي للباب.

برقَ لمعان طفيف مظهراً عينينِ كانتا تراقبان في الظلام أمام الباب. اعتدلتُ في جلستي جاعلة ظهري مستقيماً، وكفاي تُسنداني بينما ما أزالُ أجلس على فراشي. ناديتُ بتساءل: "إزميرالدا؟". سمعتُ صوت أنفاس كالفحيح. اقتربَ ذلك الظل

خطوة واحدة؛ فسطع النور الخارجي على نصف الوجه المقابل للنافذة، ليظهر والدي فجأة من الظلام.

"أبي. هل أنت بخير؟"

سألني: "سالي. أهذه أنت؟" اختفت المعالم الغريبة من وجهه لتظهر بدلاً منها معالم التعاطف والانكسار. أمالَ رأسه قليلاً، وبدأ يراقبني بعينينِ رقيقتينِ كأنه عاد طفلاً فجأة.

"أنا لوسيا يا أبي".

"أين سالي إذاً؟ لماذا أنتِ هنا؟ أريد ابنتي سالي". بدأ بالصراخ فجأة.

"اهدأ، ستعود سالي قريباً".بدأت خطواته تترنّح ويتحرك في غرفتي بشكل عشوائي، وهو يحاول أن يتلفظ بكلمات غير مفهومة. سقط على ركبته فأجفلتُ قافزة من مكاني ومطلقة صرخة استنجاد؛ لعل أحد الخدم يسمعها ويأتي.

أحاط بيديه عنقه وبدأ يصرخ: "هذا خطؤكَ أيها الأحمق. أنتَ من فعل هذا". حاولَ والدي أن يسحب يديه عن عنقه، وهو يقول بنبرة مختلفة أكثر نعومة: "لم أقصد ذلك. ابتعدْ عني هذا ليس خطئي". أطبقتْ يداه على عنقه فجأة، وبدأ يمشي بخطوات

غريبة وهو يردد: "بلى إنَّ الذنب ذنبك أنت".

قفزتُ مبتعدة عن السرير، وأخذتُ أجري بخطوات واسعة إلى خارج الغرفة. ما إن تجاوزتُ الباب حتى اصطدمتُ بجسد آخر، فشهقتُ بقوة لأن صراخي رفض أن يخرج. قبضتْ عليَّ يد في الظلام لتثبّت جسدي. أتى صوت إزميرالدا من الظلام: "هذه أنا، اهدئي".

"إنه أبي. لا أعرف ما الذي يجري معه!". قلتُ وأنا أشير بسبّابتي إلى داخل الغرفة. فتركتني هي أقفُ في العتمة وحيدة، واتّجهت إلى داخل غرفتي حيث كان أبي يتحرك ويصطدم بجدرانها؛ لتحاول تهدئتهُ، ولم تمضِ لحظات حتى جاء بعض الخدم ليعاونوها في السيطرة عليه. شعرتُ بنفسي أنهارُ على ركبتيَّ وأجهشتُ ببكاء تفجَّر من بركان كبت عظيم. سمعتُ خطواتهم تقود والدي المنفعل خارج غرفتي، ثم أحاطتني إزميرالدا بذراعيها، فصحتُ فوراً وقد فاق كل ما يجري طاقتي على التحمّل: "ماذا يجري؟...مابه أبي، وأين سالي!! متى سينتهي هذا الكابوس؟؟!!". وضمَّتني إزميرالدا إلى حضنها أكثر، تحاول بكلماتها بثَّ شيء من الهدوء في كياني، وعلى الرغم من أنها لم تُفلح، فهي لم تغادر مكانها إلى جانبي حتى غططتُ في النوم،

وحتى الصباح.

أحدُ التجار العابرين بباراديس شيل

حينما أنزلتُ عن كتفي آخر كيس طحين على أرضية مستودع الحانة، أطلقتُ زفيراً عميقاً، وكأنما أفرغ به كل انقباضات عضلات كتفي وظهري التي ظللتُ أتحمّل تعبها للساعات الأخيرة دون أيّ تذمر، أذكّر نفسي طوال طريق السفر بعزائي كون حانة القمر ستكون آخر محطات توقفنا لليوم، وسنحظى بعدها بوجبة دسمة وبليلة هانئة من النوم، لنكمل مسيرنا في الصباح إلى بلدة أخرى.

وبينما تلك الأفكار تدور في رأسي، تقوّست شفتاي في ابتسامة راحة غامرة وأنا أسمع سيدة الحانة توجّه شكرها الصادق لوالدي، ترجوه أن يتفضل معها إلى الداخل لتقدم لنا كمية سخية من الطعام والشراب، ريثما تجهّز لنا غرفة للبقاء الليلة، وفي اللحظة التي انضممتُ فيها إليهما خارج أبواب المخزن، علمتُ من نظراتهما أنه حان الوقت لنيل الراحة التي نستحقّها أنا ووالدي حتماً!

مشينا خلفها إلى الباب الأمامي للحانة التي تملكها، كنتُ آخر من يعبر الباب إلى الداخل خلفها وخلف والدي، ولم أدرك كم كنتُ جائعاً إلا عندما سمعتُ معدتي تعوي! مطالبة في حقها من الطعام اللذيذ الذي التقطَ أنفي رائحته. ضحكت المرأة

رغماً عنها بعدما سمعتْ صرخات الاستغاثة والتوق إلى الطعام التي أحرجتْني، وأسرعت نحو المطبخ الخلفي بينما نبحث أنا ووالدي عن طاولة تناسبُنا، وبما أن معظم الطاولات كانت فارغة، سوى من طاولة تضم حفنة من الرجال عند المدخل، وأخرى يجلس إليها رجل يعطينا ظهره عند أبعد جدار من المدخل، ولأن مساحة الحانة لم تكن كبيرة إلى تلك الدرجة؛ اتّجهنا كلينا من دون كلمة نحو أبعد نقطة ممكنة من ضجة ضحكات الرجال، واخترنا طاولة لا نُزعج فيها من يُولينا ظهره، مختفين عن نظره، يحظى كل منا هكذا بالراحة والخصوصية التي يبحث عنها.

خلعْنا قبّعتيْنا ووضعناهما على الطاولة، وشيئاً فشيئاً بدأنا نتناسى تعبنا من يوم سفرنا المرهق والشاق، وبدأنا نتبادل أنا ووالدي برضاً عبارات التهاني بشأن إنجاز اليوم من العمل المضني في نقل البضائع والمؤونة، كانت تلك هي مرَّتي الثانية مع والدي في هذا العمل، بعد وفاة جدي. أصبح الآن يمكنني أن أتشارك مع والدي هذا التقليد الذي اخترعهُ مع والده، وحرصنا أن نقوم بالرحلات هذه معاً.. وسأحرص أن يشاركني ولدي هذه الرحلات أيضاً.. طبعاً عندما أحظى به... بعد أن أجد امرأة جميلة ستحب أن تشاركني حياتي إلى الأبد، وتهبني

عدداً كبيراً من الأطفال.. ضحكنا أنا ووالدي ونحن نتحدث عن المستقبل، وهو يهددني ألَّا أطلق على أيّ ولدٍ من أولادي أيَّ اسم من أسماء أعمامهم؛ فيكبرون ليصبحوا ناكري جميل مثلهم، لا يراهم أحد سوى في التجمعات العائلية مرغمين، لأنهم يحتاجون بعض المال.

لم يقطع ضحكاتنا سوى اقتراب نادلة الحانة المراهقة من طاولتنا، وقد ضيّفتنا كأسين من الشراب لم نطلبهما، لننظر إليها بكل تساؤل؟، قرأتْ أفكارنا الواضحة وأخبرتنا من دون إبتسامة: "من عند السيد تيموثي بارنز"..

سأل والدي بصوته الأجش المعتاد: "ومن يكون السيد تيموثي بارنز؟".

ردة فعلها جعلتني أظن أنها خائفة من طريقة والدي في الحديث،التي تجعله يظهر وكأنما سيوشك على ضرب محدثه في اللحظة التالية. لذا حرصتُ أن أبتسم لها برحابة صدر وطيبة، بينما كانت تقلب ناظريها بيننا وتقول بينما تشير برأسها في اتّجاه الرجل الجالس وحيداً إلى طاولة في الزاوية: "الرجل الذي يجلس هناك "

تأكدت أن ليس لوالدي دخل في الموضوع، فهي لم تكن كبيرة في العمر بما يكفي لتتعلم إخفاء

ملامح الاستياء والضيق التي ظهرت على وجهها في اللحظات القصيرة التي نظرتْ فيها نحو السيد السخي الذي اشترى لنا أحد أشهر الكؤوس التي تقدمها الحانة.. فكرتُ أنها لا تحب تيموثي بارنز، أو لا ترتاح له، أو تخاف منه، على أية حال شكرتُها أولاً ثم شكرها والدي، مما سمح لها بمغادرة جانب طاولتنا سريعاً، وهي مُطرقة بنظراتها نحو الأرض، ثم توجَّب أن نوجه شكرنا للسيد تيموثي بارنز، والذي كان يولينا ظهره؛ فلا نستطيع رؤية وجهه.

مع ذلك ناديته: "سيد بارنز".

التفتَ إلينا السيد بارنز التفاتة خفيفة، لم ألمح وجهه كاملاً بسببها، ولكن ذلك كان كافياً، فكنتُ أنا وأبي مانزالُ عند قرارنا بعدم إزعاج أحد والاستمتاع بأمسيتنا المستحقة، كما أنَّ طريقة جلوسه المنعزلة توضح لنا أنه رجل يفضل خصوصيته أيضاً، فاكتفينا برفع كأسي الشراب له، شاكرين إياه على لفتته الكريمة، فرفعَ لنا كأسه أيضاً مرفقاً تحيته بانحناءة من رأسه.

عدتُ للاعتدال في جلستي ومواجهة والدي، تاركين الرجل الكريم في حاله. وبعد بضعِ رشفات تستحق الشهرة الواسعة التي اكتسبها الخليط الذي نتجرَّعه الآن، جذبَ انتباهنا صوت السيد بارنز وهو

يسأل: "أهذه أول زيارة لكما لبارادايس شيل؟".

التفتنا إليه، في نظرات والدي وصوته شكر وامتنان له على شراء الشراب لنا، مما جعله يحادثه بعفوية أكثر لا تنبع من والدي إلا نادراً: "ليس تماماً،.. لقد جئتُ إلى هنا منذ عدة أعوام مع والدي، الذي يرقد الآن بسلام، لنوصل البضائع كما نفعل أنا وولدي اليوم،... لم يتغير الكثير في هذه البلدة الهادئة، ماتزالُ محتفظة بطابعها الجميل والساحر وبهدوئها وبساطتها نفسها... لو رآها والدي اليوم؛ لأسعدهُ ذلك بلا شك.. لقد كان رجلاً صالحاً".

أضفتُ رثاءً لجدي: "فليرقد بسلام".

و هذا ما سمعتُ تيموثي بارنز يكرره أيضاً: "فليرقد بسلام".

و بعد لحظة من الصمت، بدأ السيد بارنز الحديث من جديد: "في أي عام جئتَ أنتَ ووالدك الصالح إلى هذه البلدة؟"

أجابهُ والدي بعد أن تفكّر قليلاً: "يمكنني أن أجزم أن ذلك كان منذ عشرة أعوام".

"عشرة أعوام، عائلة جيبسون". ذكرَ السيد بارنز هذه العائلة التي لم أستطع تذكّر من يكونون، ولم

أحسب أننا نعرفهم حتى، إلا أن والدي فاجأني قائلاً: "أجل... أولئك المساكين".

"من هم هؤلاء؟". سألتُ والدي أنتظرُ منه تلميحاً يذكّرني بقصة نسيتها، أو شرحاً مقتضباً لما جرى يسمح لعقلي بانتشال معلومات قديمة قد دفنها. لكن ما قاله لم يذكرني بأي شيء: "مساكين ذوو حظ سيء... كانت حادثة مؤسفة سأخبركَ بها في وقت لاحق، لا أحد يريد أن يتذكر الموت والقتل قبل تناول الطعام.. بالأخص.. حادثة آل جيبسون". الضيق الواضح في صوته زادَ من حيرتي، لكنني تفهمتُ واخترتُ الصمت إثر وعده بأن يطلعني على ما يعرفه في وقت لاحق مناسب له أكثر.

لكنَّ ذلك ما كان ليوقف السيد تيموثي بارنز، الذي بدأ يسرد بصوت شارد وكأنما يغوص في أعماق ذكرياته: "عائلة جيبسون، كانت عائلة مسالمة طبيعية، لم تفتعل المشاكل مع أحد الجيران. أفرادها طيبون: زوج وزوجة، ابنة كبرى، ابن أصغر، وطفل رضيع، أطفال سعداء. زوجان متفاهمان رغم المشاكل التي ظهرت بين فترة وأخرى، هذا ما ظهر لنا جميعاً، ولكن الحقيقة كانت مختلفة تماماً".

لم يُرد والدي أن يسمع شيئاً عن تلك الحادثة،

التي بدا أن السيد تيموثي بارنز يريد أن يخوض في تفاصيلها، واستبقهُ في الكلام ليشرح لي على عجل: "لقد وقعوا ضحية لقاتل، لم يتم الإمساك به أبداً".

"يا إلهي، يالحظهم السيء!". ما قاله فاجأني حقاً، ولكنه ربما كان الطريقة الأفضل لذكر ما حدث، طريقة لا تعطيكَ الوقت الكافي لاستجلاب مشاعر الغوص فيها قد يدمّرك، وهو أمر اتّضحَ لي أن السيد تيموثي بارنز ينوي القيام به.

"هذا هو ما أطلقهُ الناس على ما حدث، حظ". قال بصوته العميق الكئيب.

سألته: "وماذا تسمّيه أنت يا سيد بارنز؟"

".. شر.... إنه محض شر..." انقبضَ قلبي من كلماته، الهزة التي نقلَ بها صوته الكلمات أصابتني بالقشعريرة.

أضافَ والدي لما قاله: "مؤكد... لا يوجد عمل أبغض وأكثر شراً من قتل روح إنسان آخر، إنسان بريء... وحتى الأطفال لقوا حتفهم في تلك الفاجعة.. هنالك أشياء تجعلكَ تتوقف لتفكر كثيراً في هذه الحياة... تفكر فيما يحصل حولكَ،.. تتساءل عن سبب حصوله،.. فإن كنا نؤمن أن لكل حدث سبب،.. فما هو هذا السبب اللعين الذي قد

يفسر ما حدث لعائلة جيبسون؟...لم تشهد المنطقة حادثة مشابهة من قبل،... لقد هزَّت الجميع، وشهدنا أنا ووالدي في انتقالاتنا وصول تأثيرها إلى أقصى البلدان بعداً.. ومهما طالَ ترحالُنا، ومن كثرة ما سمعناه من مختلف عقول الناس في هذه الأرض... لم نجد أحداً منهم يملك تفسيراً وسبباً لما حدث...".

تجرَّع والدي الشراب من كأسه بنهم، بدا لي أنه يريد أن ينسى ما تذكّره للتو، لكنَّ الفضول كان قد اعتراني بما فيه الكفاية، ولم تعد المسألة مجرد عنوان قصة يمكننا تجاهلها، والمضي قدماً في ليلتنا وكأنَّ شيئاً لم يكن، لهذا سألتُ"... هل ألقوا القبض على الفاعل؟".

"لم أسمع أنهم ألقوا القبض على أيّ أحد،... سيد بارنز أنتَ من سكان بارادايس شيل أليس كذلك؟، أصلحْ معلوماتي إن كنتُ مخطئاً، وأرجوك أبلغني أن ذاك الفاعل الحقير قد تمَّ إعدامه".

شربَ تيموثي من كأسه، ولكن ليس كالكميّة الكبيرة التي ابتلعَها والدي، وأجابَ بهدوء: "كلا... لا أحد".

"حرّ طليق لسنوات، ولم تتكرر حادثة شبيهة قط؟". وجّهتُ السؤال لوالدي، الذي أجابَ وعينه

مركزة في السائل الذي بداخل كأسه، وهو يقلّبه في قبضتهِ بحركة دائرية ليخلطهُ جيداً: "لقد حصلت الكثير من الحوادث... وقُتل كثيرون من الناس... ولكن لا شيء مثل جريمة عائلة جيبسون... لا يمكن لأمر كذاك أن يحصل مرتين... لا يوجد إله سيسمح لأمر كذاك.. أن يتكرر مرتين".

ابتلعتُ ريقي وأنا لا أملكُ سوى أن أتخيَّل الفظاعة التي ستجعل رجلاً كوالدي يقول كلماتٍ كتلك، وبدأ فضولي يندمل، لكنَّ السيد بارنز بقي يفرك الجرح بالملح: "لم يتمكن أحد من إيجاد القاتل؛ لأنه وببساطة لا يمكن الإمساك به".

فسّر والدي كلماته تفسيراً أظنُّ أنه أكثر سطحيَّة مما قصده السيد بارنز: "لقد كان شخصاً غريباً من خارج البلدة بلا شك،.. لا يمكن أن يكون من سكانها، وإلا لاحظَ الجميع ذلك فوراً".

وقد كان تفسيرهُ أكثر سطحيّة بالنسبة لي أيضاً، فطرحتُ أفكاري: "ولكنَّ رجلاً غريباً يأتي من المجهول؛ ليقتل عائلة جيبسون ويختفي؟. هذا غير معقول نوعاً ما!، لابدَّ أنه تركَ آثاراً خلفه يمكن للكلاب أو للرجال المتمرسين في الصيد تعقّبُها".

قلتُ كلماتي الأخيرة بينما تنفلتُ من شفتيَّ ابتسامة صغيرة، دون أيَّة قدرة منّي على ردعها،

فقد رأيتُ الطعام يتجه إلى طاولتنا، ولم أدرك كم كنتُ أتضور جوعاً إلا عندما غزتْ رائحة الطعام الشهي أنفي.تحمل سيدة الحانة في كل يد طبق لأحدنا، تلاحقُ عيناي الصحن ذا المحتويات الخفية ولكن ذا الرائحة اللذيذة، بينما تبدأ سيدة الحانة بتوبيخ زبونها المنعزل: "كفاك يا تيموثي إزعاجاً لضيوفنا بهذه القصص القديمة المثيرة للقلق والاضطراب، ليست هذه هي القصص التي يتوجَّب عليك مشاركتها مع الآخرين!، عليكَ أن تخبرهم عن جمال شواطئنا والجيوغرافية المميزة من الجروف البحرية التي يمكن الوصول إليها من بارادايس شيل. أخبرهم عن جمال وهدوء غاباتنا، وغزارة بيئتها الحيوانية في موسم الصيد!! لا أبالي حتى إن تحدثتَ عن جودة محل خياطة العم المسن أوليجن، أو لذة كعكات مخبز عائلة أدريانز! لا يمكنكَ أن تبادر بحكاية هذه القصص المريعة التي تملك محصولاً لا نهائياً منها كلّما بادرَ أحد بالجلوس إلى طاولات حانتي! اتركْ زوارنا يهنؤون بطعامهم ولا تنفّرهم!".

لم يردّ السيد تيموثي على هذه المحاضرة،التي أحسستُ أنها طويلة جداً وأنا فقط أترقّب استراق نظرة إلى محتويات الصحن! لقد كنتُ جائعاً لدرجة يمكنني فيها أن أقسم أنها لو قدّمت لي الطعام،

لكنتُ التهمتهُ وأنهيتهُ قبل أن تنهي حديثها! ، كل ما فعلهُ السيد بارنز رداً عليها أنه رفعَ كأسه لها وكأنه يوافقها على ما تقوله. وضعت الصحنين المنتظرَين أخيراً على طاولتنا، وقد فهمتُ من لهفة والدي أنه كان يتضور جوعاً مثلي. تمنَّت لنا طعاماً طيباً وغادرت، وبدأنا نملأ معدتينا الفارغتين، ونسينا للحظة كل الموضوع المزعج الذي كنا نتحدث فيه قبل قليل.

"لقد ترك أثراً، أقصد القاتل، دماء طفل آل جيبسون الرضيع الذي مزَّقه إرباً، وجعلَ دماءه وأطرافه ترسم خيوطاً وبقعاً من الدماء تبدأ من الغابة وصولاً إلى داخل المنزل".

توقفَ والدي عن مضغ الطعام، وتجمدت يدي التي تقرّب الشوكة من فمي في الهواء، اضطررنا إلى النظر للرجل الذي يولينا ظهره بكل صدمة!، وسألته: "ماذا قلت؟".

ثم نظرتُ إلى والدي فوراً باحثاً عن إجابة، فقال بدوره والصدمة تعتريه: "إنني أسمع هذا لأول مرة..".

كان السيد بارنز يتحدث بصوت منخفض، وكأنه يحدث نفسه، تاركاً لنا خيار الاستماع لكلماته أو لا، بصوته العميق الذي يرغمكَ على تخيل ما

يصفه: "الأثر الوحيد الذي تركهُ، بقعة دماء مهوّلة بين شجيرات الغابة القريبة من المنزل، حيث بدأ بتقطيع الطفل الرضيع،.. أشلاء جسد الطفل تؤكد أن الوحش لم يستخدم آلة حادة، ربما قطّعه بأسنانه... بينما يمشي،.. نحو المنزل،.. يقضم قطعة.. ويبصقها من فمه... ثم يقضم قطعة أخرى، ويبصقها من فمه.. حتى وصل إلى داخل المنزل.. ولم يبقَ من الطفل الرضيع أي شيء".

دمَّرتنا كلماته تلك، الضيق واضح على والدي وهو يناجي: "يا إلهي"!، على الرغم من مظهره الجلف وصوته الأجش، إلا أنَّ والدي كان مسالماً جداً، وآخر ما يريده هو أن يفتعل أية مشاكل مع أيّ أحد. لمحتهُ يبحث بعينيه عن سيدة الحانة، وكأنه يريد أن يشكو السيد بارنز لها فتطرده ويمكننا بعدها أن نكمل عشاءنا بسلام. لكن عندما نظرتُ إلى طاولة السيد بارنز فهمتُ أن هذا لن يحصل أبداً،.. فعدد الكؤوس الفارغة التي تجرَّعها يؤكد أنه حتى لو تسبَّب تيموثي بارنز ذو القصص الكريهة بإفراغ حانتها من كل الزبائن، فسيكون هو وحده كفيلاً بتغطية ثمن خسائرها.

من قبل، كان فضولي يقطر من صنبور محكم الإغلاق، كان جرحاً بسيطاً يلتئم بسرعة وبعافية،

لكن الآن، بعد أن فركهُ السيد تيموثي بارنز بالملح لمرات عديدة، التهبَ فضولي،.. لم أعد أستطيع السيطرة عليه، فقلتُ بلهفة لم أدرك أنها بداخلي: "أهذا يعني أنهُ حيوان؟. زحفَ الطفل إلى خارج المنزل؛ فانقضَّ عليه وأكلهُ، ثم ذهب إلى داخل المنزل ليستكمل أكل بقية أفراد العائلة؟".

ضحكَ تيموثي بارنز من تحليلي، ليضربَ بما قلته عرض الحائط: "الفتاة الصغيرة، طُعنت سبعين طعنة في كامل أنحاء جسدها ما عدا وجهها،.. الوالد، تمَّ حرقهُ في الباحة... الفتى الصغير... ماتَ شنقاً، الوالدة، تمَّ ضربُها حتى الموت، لدرجة أنَّ تحديد هويتها الحقيقية قد تعسَّر. أخبرني أيُّ حيوان يمكنه أن يفعل شيئاً كهذا؟!".

لم يكن هنالك ما يمكنني النطق به بعد سماع تلك التفاصيل المروعة، عقلي يتخيل كل ما وصفهُ... و لكن السيد السخي بالتفاصيل لم يتوقف عند ذلك الحد، كلماته التالية حملت ثقلاً في صوته، قالها بعد أن تجرَّع من كأسه بنهم: "لم نستطع أن نربط تفاصيل القضية لوقت طويل، ولكن فقط بمرور المزيد والمزيد من الوقت... بدأت القصص تظهر،... وهذه قصة أخبرتْنا بها صديقة ابنة عائلة جيبسون، وهي القصة التي تفسر كل ما جرى.."

التفسير!.. سبب حدوث المجزرة المريعة!، ذكرةُ لأمر كهذا جعلني أتصبب عرقاً،.. وجعلَ والدي يُنصت إليه بكل فضول بدوره. أيُعقل أنه سيسمع السبب الذي يفسر وقوع كل هذه الفظائع؟ أيعقل أنه وأخيراً.. سيعرف سبب وجود الشر؟

"إحدى أنشطة المدرسة اقتضت من الطلاب أن يتشاركوا قصصاً يؤلفونها أمام الفصل؛ ليحصلوا على التقييم من معلميهم، مقيّمين قوتهم في الإلقاء.. ومدى إبداعهم.. وتلك الأمور الأخرى التي يقيّمونها في المدارس... قبل وقوف ابنة آل جيبسون على المنصة،.. أصابها نزيف أنف لم يعرف سببهُ أحد، وتوجَّب أخذها إلى الطبيب، لكنَّ الفتاة على أية حال، أعطت قصتها إلى صديقتها لتقرأها بدلاً عنها.. وقد قرأت الفتاة التالي".

لاحظتهُ يُخرج دفترَ ملاحظات صغيراً من جيبه بينما يتحدث، وفتحهُ فوراً على صفحة كان وكأنما قد حدَّدها مسبقاً، وسردَ:

"كان يا ماكان في قديم الزمان، بيت على مشارف الغابة.. بيت هو أول من يلتقط نسمات الرياح المنسلة من بين شجيرات الغابة.. بيت لاستقبال ضيوف الغابة الخجولين.. الضيوف الذين يهمسون كثيراً..الضيوف الذين لا يملكون منزلاً.. الضيوف

الذين ينظرون إلى نوافذ المنزل بعين واحدة طوال الليل.. والضيوف الذين عندما تراهم.. يلوّحون لك... ويقتربون منك... وعندما لا تنظر إليهم؛ يعودون للوقوف بين الأشجار..الضيوف المؤدَّبون الذين يهمسون كثيراً.. ويلوّحون بأيديهم طوال الليل.. في الصباح.. يتركون هدايا على لحاء الشجر، خطوطاً طويلة كثيرة. ثم يعودون في الليل مرة أخرى... يهمسون بصوت واحد.. همسهم يعلو كل يوم.. يطالبون أن أسمحَ لهم بالدخول.. واليوم أنا وأخي الصغير سوف ننفّذ ما تعلمناه من والدينا من حسن الضيافة... وسنحدّق بهم حتى لا يخجلوا بعد الآن من أن يقتربوا أكثر ويأتوا إلينا.. ونسمع أخيراً ما يقولون.."

أغلقَ دفتره الصغير وأكمل: "بالطبع، نالت ابنة عائلة جيبسون العلامة الكاملة.. لكنها لم تعش لتعلم بذلك أو حتى لتحتفل به، لقد رأوا فيها فتاة مبدعة استطاعت إثارة خوفهم بكلماتها البسيطة غير المصقولة، فتاة ذات خيال خصب.. لم يفكر أحد في تلك القصة التي كتبتْها لمرة ثانية، بالأخص بعد أن شغلتهم الجريمة البشعة التي وقعت لها ولعائلتها، انشغالهم بالبحث عن الوحش الذي ارتكبها، خائفين من أن يكون مختبئاً في اصطبلاتهم، أو في كهوف الغابة قريباً من بيوتهم".

كنتُ مركّزاً أيّما تركيز مع سرده الذي يزداد غرابة في كل لحظة، وبينما هو يتحدث، كان والدي يبتلع طعامه ابتلاعاً، وقد لكزني في يدي لينبّهني إلى الإسراع بدوري. يهزُّ كفَّه في الهواء وكأنما يخبرني ألَّا ألقي لحديثه بالاً..كنتُ أضع الطعام في فمي ببطء، وكامل تركيزي مع كلمات السيد بارنز: "عندما علمْنا بأمر قصتها المرعبة،كانت أسابيع قد مضت على الجريمة... ولكن على الرغم من ذلك، توجَّهنا إلى الأشجار التي تقابل نافذة غرفة الطفلة، لم نكن نملك أية أدلة على هوية الفاعل... لم نملك أيَّ شيء، أحسبُ أننا أردنا أن نتمسَّك بأيّ خيط يمكّننا من تفسير الأمر المهوّل الذي وقع في بلدتنا.. نظرنا إلى بعض الأشجار.. وخمِّنا ماذا وجدنا؟".

التفتَ إلينا أخيراً ببطء، ونظر مباشرة في عيني لأحفظ تقاسيم وجهه وتجاعيده المنهكة، وهو يقول بابتسامة بسيطة تخفي خلفها الكثير: "وجدنا آثاراً لخربشات أظافر بشرية في مواضع عدة على لحاء الشجر.. ليست أيٌّ منها في طول أيٍّ بشري،.. كانت كلها عالية جداً على ساق الشجر..".

ولحظتها، قطعَ والدي تواصلنا النظري، وهو يسألني: "انتهيت؟".

أومأتُ إليه برأسي. سألني وهو ينظر إلى صحني: "متأكد؟".

نظرتُ بدوري إلى صحني، الذي كان لم يفرغ من الطعام بعد، لكنني أكدتُ له: "أجل.. متأكد".

نهضتُ من خلف الطاولة معه، وأنا أحمل قبعتي في يدي. شكرنا سيدة الحانة وتمنّينا لها ليلة طيبة. وبينما تشرح لوالدي موقع الدرجات التي علينا صعودها لنصل إلى الغرفة الخلفية في الطابق الثاني التي جهَّزتها لنا، لمحتُ دخول زائرين جديدين إلى الحانة. لكم وددتُ تنبيههما وتحذيرهما من عدم الاقتراب من طاولة السيد تيموثي بارنز، ولكن يالمفاجأتي!، فلقد سارا مباشرة إلى طاولة الرجل وانضمّا إليه! امرأة بتسريحة شعر غريبة، ورجل يغطي عينه اليمنى برباط أسود. ليتهما وصلا أسرع قليلاً؛ ليجعلا السيد بارنز يصمت، ونهنأ نحنُ بوجبتنا وبشرابنا!

بقينا للحظات داخل الحانة ثم دلفنا إلى الخارج، ظننتُ أنني مستعد لسماع القصة التي حاول والدي أن يقنعني بتناسي موضوعها منذ أن ذُكر عنوانها. شعور غريب يختلج في صدري الآن!، وأفكار لا أعرف ترتيباً لها تعصفُ بذهني. سألتُ والدي الذي أثبتَ لي الليلة أنني يجب أن أظل مقتدياً

بحكمته لمدة طويلة قادمة: "أتظن أنَّ ما قاله كان حقيقياً؟!".

أجابني بكل ثقة، دون أن ينظر إليَّ حتى: "بل تفاهات وسخافات يا بنيَّ،.. هؤلاء الناس يحبّون تشويه ما جرى، وإضافة العجائب إلى قصصهم لتساعدهم على التأقلم بشأن ما حصل في أرضهم ولأشخاص يعرفونهم. فاجعة آل جيبسون كانت لا تصدق وصدمت الآلاف.. ولكن كل ما جرى أنَّ الوالد كان يمر بأزمة نفسية صعبة... وقد قتلَ عائلته ثم أضرمَ النار في جسده... لا يوجد ظلال، ولا ضيوف يهمسون ويجرحون الأشجار بأظافرهم، أو حتى أشلاء رضيع. إنها قصص تداخلت معاً ليحكوها بينهم فتخفّف عليهم حقيقة ما جرى، وتساعدهم على مسامحة أنفسهم؛ لأنهم لم يلاحظوا المشاكل التي يمر بها جيرانهم، فوقع ضحية ذلك أطفال أبرياء... فالسيد تيموثي بارنز يا ولدي هو متقاعد من سلك الشرطة في البلدة.. أخبرتني بذلك سيدة الحانة هامسة، وهي تعتذر لنا بينما كنتَ أنت تحدق في تلك المرأة ذات تسريحة الشعر الغريبة".

لم أحتجْ إلى مزيد من التفكير بعدها، فهززتُ رأسي موافقاً والدي على ما قاله.

المنام الثاني

أمشي بلا حذاء في الغابة البيضاء، أتبع الجدول الدامي الذي تنجرف فوق سطحه أوراق عكس اتجاه التيار. تسقط شجرة لتقطع طريقي. أنظر لأرى أذرعاً تمتد من خلف الأشجار.. تنبش لحاءها بأصابع غطتها الدماء.. تنبش في لحاء الأشجار دون توقف.. آلاف الأذرع البيضاء الميتة.. أذرع لا أرى أجساد أصحابها.

أتقدَّم. أتجول بين تلك الأشجار والأذرع بكل هدوء. يوقفُني صوت ارتطام عكّر عليَّ أغنية جريان تيارات الدماء في الجدول.. تابوت علّق بين الأحجار.. لم تعد المياه قادرة على جرفه؟

أخطو نحوه. أفتحه..

تمتدُّ من ظلمة جوفه ذراعان تسحبانني إلى داخله، لأواجهَ الفتاة ذات الشفتين الداميتين من جديد. تثبّتني ذراعاها على بعد إنشيْن من وجهها، لأتذوق طعم الدماء الصدئ من شفتيها.

الجزء الثاني

مهارة الشيطان تكمن في:

اختياره للكلمات المناسبة

لتضليلكَ عن الطريق الصواب.

فيكتور

للشر وجوه عديدة. عليكَ ارتداء أحدها؛حتى تكون ندّاً له.

وقفتُ مراقباً ما يحدث من فوق سطح المبنى القصير. عُلقت جثة فرانز من خلال حبل ملفوف على رقبته. كان الجلد الموجود تحت الحبل قد بدأ بالتمزق، ولو استمرَّ فرانز في وضعيته هذه كان حتماً سيفصل رأسه عن جسده الثقيل. كان معلقاً على جسر حديدي صغير يمتدُّ على عرض الزقاق الفاصل بين المبنيين الإسمنتيين. الأطول كان يتألف من خمسة طوابق، فيما الآخر والذي أقفُ على سطحه يتألف من ثلاثة طوابق فقط. راقبتُ جسده المتدلي من الحبل بشعور غريب يقع بين الدهشة والغضب. احتشدَ عدد قليل من الأمهات والرجال يراقبون جسده المعلق هناك.

لم ينتبه أحدٌ لوجودي. رفعتُ رباطاً أسودَ عن عيني اليمنى.. التي لم تكن مصابة بأية إصابة ظاهريّاً.. أغلقتُ عيني اليسرى، واعتمدتُّ على عيني اليمنى في الرؤية... بحثتُ حولي في كل الاتجاهات.. ولكن لا شيء... أياً كان من قتلَ فرانز.. فهو لم يترك أثراً يمكن لعيني تتبُّعه

ربما من قتلهُ كان بشرياً فعلاً.. على الرغم من أنني أشك في ذلك؛ فأيةُ نفس بشرية تستطيع تركه بهذه الطريقة، دون أن يطبع هذا الشكل تأثيره فيها؟

في الطرف الأول من الزقاق، كانت عناصر الشرطة تدفع الأشخاص المتجمهرين تاركين سيارتهم تعكس أضواءها على جدران المبنييْن الإسمنتييْن. كان الأشخاص الموجودون يلبون رغبة الشرطة في الابتعاد، ولكنهم يتوقفونَ بعد بضع خطوات، ويعودون ليراقبوا جثة فرانز بدهشة وبحركات درامية. أمّا في الطرف الآخر، فكانَ هناك بخار أبيض شفاف يخرج من أنبوب مجاور لباب حديدي، والمكان مظلم أكثر ولا يوجد أحد يقف فيه.

حاولتُ ألا أقترب من حافة المبنى؛ حتى لا يراني أحد. وقفتُ مبتعداً عنها متراً واحداً واكتفيتُ بالمراقبة القصيرة. أجّلت كل التساؤلات التي في عقلي لوقت آخر، وقررتُ أن أدير ظهري وأرحل عن المكان تاركاً كل ما يحدث خلفي.

عندما هبطتُّ على الرصيف الحجري، كانت خطواتي ثقيلة كما لو أني أكاد أن أغرس قدميَّ في الأرض. تركتُ سيارات الشرطة خلفي، ومشيتُ دون أن ألتفت إليهم واضعاً كلتا يديَّ في جيبي معطفي القصير. تعمدتُ ترك خطواتي بطيئة،وسلكتُ أطول

طريق إلى المكتب. كان المكتب مايزالُ مفتوحاً رغم حلول الظلام. دخلتُ دافعاً الباب الحديدي الثقيل. وجدتُ ماريا ماتزالُ جالسة خلف مكتبها، وشعرها الأسود المشوب بخصل بيضاء مايزال مفروداً بنعومة على جانبي وجهها، ويكاد يغطي خديها. وعلى الرغم من أنَّ لها شعرَ عجوز، إلا أنها لم تكن كذلك، ووجهها الأسمر مايزالُ شاباً.

"لقد وجدوا فرانز مقتولاً". قلتُ لها، ولكنها لم تبدِ أيَّ تعبير، بل حدقت بي بنظرتها الناعسة البلهاء.

أشرتُ لها برأسي إشارة تنمّ عن السؤال، فقالت بصوت هادئ كما لو أنها استيقظت للتوّ: "حقا؟".

"إنها مجرد دعابة، أردتُ رؤية مدى حبك له.. نعم حقاً، لقد مات".

أشاحت بنظرها عني، وأعادتهُ إلى آلة الكتابة: "حظه سيء".

- "اوه! لا تقولي لي، فأنا أعلم كم هذا قاس يا ماريا!"

"مجهودُنا في التفكير بما حدث لن يغير شيئاً من الحقيقة، ألا تظن ذلك؟ يمكنني أن أشعر بغرابة رحيله، حتى وإن كنتُ لا أعرفه جيداً". ثم أردفت

بنبرة حادة، ولاحظتُ انعقاد حاجبيها بغير رضا: "ما هي تفاصيل موته؟".

- "لا أعلم أينَ ترين المشكلة، نحنُ نتعامل مع العالم الغيبي، أمور لا يستطيع البشر العاديون فهمها ومواجهتها، أمور أحياناً كلانا يكون عاجزاً عن فهمها والتعامل معها، أمور يمكن أن تفتكَ بنا في لحظة إن لم نكن في أشد الحيطة والحذر، ومع هذا نجونا حتى الآن! كنا محظوظين لدرجة جعلتنا لا نواجه سوى الجانب المعقول، الطيب، والمسالم ولكن المخيف لهذا العالم الذي يفترض بنا ألّا نراه! وفوق كل هذا، نتقاضى مبالغَ ممتازة للتعامل مع جنّيات الأسنان والأشباح الهائمة المسكينة!". وبادرتُ إلى الجلوس على كنبة لشخصين تتنصف مكتبنا؛ لأشعر بتعب يومي الطويل يغزو عضلاتي بلا رحمة.

رمقتني بنظرات جامدة، ثم قالت: "أنتَ تتحدث كثيراً اليوم"

رددتُ بعد لحظة من التفكير الثقيل: ".... ربما لأنَّ فرانز مات اليوم.. بطريقة يمكنني أن أجزم أنها لا تمتُّ إلى عالم البشر بصلة... هو لم يكن محظوظاً مثلنا... هو لم يملك الحظ الذي تتذمرين منه.. كان يمكن أن نكون نحن معلّقين مكانه الآن،

والجميع يحدقون إلى جثتنا بجزع وخوف، ويتناقلون الأقاويل والقصص التي تفسر الفظاعة التي رأوها، ونصبح قصة أسطورية يسوّغون بها ما يشاؤون تسويغهُ من نزعات ورغبات.."

كنتُ فعلاً أتكلّم كثيراً، كنتُ أفرغ محتويات عقلي الذي شاهدَ منذ ساعات جثة مقتولة بوحشية لصديق له، لم يكن صديقاً بالمعنى الحرفي الذي سيجعلني أركض في الشوارع متوعداً بالجحيم لأي شخصٍ كان قد قتله. ولكنه كان صديقاً جيداً. أعاني للسيطرة على هدوئي.. وأجاهد لمنع خوفي من الاستيلاء على بصيرتي.. فكرة أنَّ المرأة التي أعمل معها والمرأة التي أحبّها كان يمكن أن تكون هي صاحبة هذا الحظ العاثر الذي لحقَ بفرانز تثير جنوني..

نهضتُ عن الكنبة، وتوجهتُ لأقف أمام النافذة التي تقع خلف المكتب الذي تجلس وراءهُ ماريا، التي لم تتوقف لحظة واحدة عن الطباعة، ولكني كنتُ أعلم أنها تستمع إلى كل كلمة أقولها الآن. كنتُ أنظر إلى النافذة وكأنما أتوقع أن أرى العالم قد اندلعت فيه النيران، وأن خيوط دخان الشر الحمراء قد اندلعت وغطت بضبابها كل شيء.. رفعتُ الرباط الأسود عن عيني اليمنى التي ترى

عالمنا الهادئ على حقيقته، توقعتُ أن أرى قاتل فرانز يتجول ببساطة؛ لأعرفَ موقعهُ، فأحملُ ماريا إلى أبعد نقطة ممكنة عنه، فلا يتقاطع طريقها معه أبداً.. الأطياف السوداء التي تتجول في الشوارع وتسكن البيوت قد ازدادَ عددها.. ولكن ليست تلك الأطياف هي من قتلت فرانز الليلة.. شيء آخر أقوى.. وأخطر.

أعدتُ الغطاء فوق عيني، ثم قلتُ لها وأنا ماأزالُ أنظر عبر النافذة: "قد أكون أتحدث كثيراً اليوم.. ولكن أظن أنَّ كل ما أريد قوله هو وجوب أن تكوني ممتنة". كان هناك شيءٌ ما يتحرك في داخلي، يُنبئُني بأن هناك ما يحوم في الأرجاء، بغير غاية الخير.

توقفتْ عن الطباعة للحظة، ثم تابعت وردت: "أنت تتألم لفقدانه.. لقد كان رجلاً طيباً يثقُ به الجميع، لقد كان أباً لأسرة محبَّة... كيف يمكن لي أن أكون ممتنة لأنَّ رجلاً مثله وقع ضحية براثن كائن، ربما تمكنتُ أنا من هزيمته بسهولة؟!".

نظرتُ إليها نظرة مطولة، نظرتْ إليَّ بدورها بعد أن توقفت عن الطباعة نهائياً نظرات تحمل الكثير من المعاني الخفية، وعلى الرغم من أنها لم تنطق بشيء، إلا أنني قد عملتُ معها فترة طويلة لأفهم

ما تفكر به، قلتُ: "وما أدراكِ أننا كنا سننتصر؟ أنتِ امرأة موهوبة، ولكن هذا لا يعني أنكِ ندٌّ لكل ما تخبئه هذه الأرض من شرور، تقرر نفثها من وقت إلى آخر!. القفز إلى الماء دون معرفة وقياس لعمقه قد يعني الهلاك، حتى لو كان ضحلاً!. موت فرانز لم يكن غلطتكِ ولم يكن غلطتي!". استدرتُ لأواجهها بجسدي، وأكملتُ: "لا داعي لأن تكون موهبتكِ التي ورثتها في دمائك موجودة لغرض معين، لا يتوجب عليكِ الاعتقاد أنكِ ترتكبين الخطأ لمجرد رضاكِ بعيش حياة مسالمة وهادئة، والتعامل مع قوى الشر البسيطة التي نواجهها، أحياناً يا ماريا يولد أشخاص يمتلكون موهبة تفوق ما يحتاجه هذا الكون، وأنتِ منهم"

قلتُ جملتي الأخيرة وأنا أضع راحة يدي على كتفها، أحاول أن أجعلها تشعر بدعمي التام، نهضت حالاً من كرسيها بانفعال، وتوجهت إلى الطرف الآخر من الغرفة تتصنع انشغالها ببعض الأوراق، كعادتها... لا تريد التحدث بهذا الشأن.

زفرتُ بهدوء، لا يعني هذا أني سأتوقف عن المحاولة، ولكني أوقن أنها إن لم تعرف مني، فستعرف من غيري، أعادت المحادثة إلى المكان الذي بدأتْ منه بسؤالها: "هل رأت عينكَ اليمنى

شيئا؟". أتى ذكر عيني اليمنى التي أجهد لإخفائها غريباً منها، بل ومفاجئاً.

"ولا شيء "

"سأذهب لأرى بنفسي". قالت ذلك وهي تحمل معطفها، ثم غادرت.

عدتُ للنظر عبر النافذة بهدوء، بتفهم لوضعها، ماريا معاونتي وهي من سلالة نادرة من السحرة. كان واجبهم قديماً هو العمل في مجال الخوارق، وينتشرون في أرجاء الأرض، مؤدين واجبهم بلا تهاون، ولكنَّ موهبتهم توقفت عن الظهور في سلالتهم لعقود طويلة، لدرجة أنها أصبحت جزءاً من تاريخ مندثر، لتكون المفاجأة أنها عاودت الظهور في دماء ماريا، ولقد ظلت تبحث لسنين طويلة عن سر هذه الموهبة التي أعطيتْ لها فقط، وفيمَ يجب أن تستخدمها؟، بالطبع هي لا تؤمن أنَّ موهبتها هيَ لملاحقة جنيات الأسنان ذوات العمل زهيد الثمن.

طوال فترة عملها، منذ أن عرفتها، وهي تصارع هذه الأفكار، لا تعرف ما الهدف من كونها على قيد الحياة، وكنتُ أقول لها نفس الكلمات، مراراً وتكراراً، بأنها تملك موهبة لن يحتاجها العالم، ولا بأس في أن تعيش حياة هادئة، تساعد مَن حولها في التعامل مع قضايا الخوارق البسيطة، وأن لا تعرض

نفسها للخطر، وأنه لا يجب عليها أن تشعر بالذنب وأن تظل حياتها تتنقل من مكان إلى آخر، تبحث فقط عن قوة شر أكبر تتصدى لها وتحاربها. ليست كلّ أنواع الشر يمكن التصدي لها! لذا عندما رأيتُ أخيراً أنني أفلحُ في إقناعها، وأنها بدأت فعلاً تتقبل الحياة الهادئة التي نعيشها معاً، جاء ذلك اليوم منذ عدة أسابيع بصدمة لنا، وكان كلطمة أعادت ماريا إلى أفكارها القديمة.

كان يوماً غيَّر النظرة التي ننظر بها إلى باراديايس شيل للأبد

* * * * *

الآن عندما أسترجعُ ذكرياتي بشأن ذلك اليوم.. يمكنني أن أتذكر أنَّ صباحه كان ضبابياً، فيه برودة غريبة، وسكونٌ غير معتاد، حتى في الوقت الذي كان يفترض بالشوارع فيه أن تضج فيها الحركة، كان ثقيلاً بغرابة!، وكأنَّ كل نفَس أستنشقهُ وأسحبهُ إلى رئتيَّ كان محملاً برائحة العفن المسمومة.

أذكرُ أنني جلستُ في مقهى كان مفتوحاً، يمكنني فيه رؤية ضوء النهار يكتسح المكان بطريقة تتفردُ بها هذه المدينة فقط. في وقت مبكر على غير العادة، يبدو أنَّ صاحبه سهرَ مع أصدقائه الليل بطوله بسبب احتفالهم بمناسبة ما لم أهتم لمعرفتها.

كل ما أهتمُّ به لحظتها هو تجرُّع كوب قهوتي وأنا أقرأ الجريدة. لقد جئتُ مع ماريا إلى هذه البلدة بناءً على توصية صديق، أخبرني أنَّ سكانها وسكان البلدات المجاورة يعانون من بعض قضايا الخوارق، والأعمال ستزدهر معنا؛ لأنهُ لا توجد الكثير من مكاتب التحقيق المتخصصة بالخوارق في المنطقة. ومنذ أن جئنا ونحن نواجه قضايا عادية وبسيطة تضمن لنا مستوى معيشياً جيداً.

أنهيتُ تصفُّح الجريدة، بينما أنهي كوب قهوتي الذي لم أستسغ طعمه، وأرغمتُ نفسي على تجرُّعه بدفعات كبيرة لا أكثر. وتوجهتُ إلى المكتب الذي نتشارك العمل فيه أنا وماريا.. لم أمشِ لفترة طويلة حتى وصلتُ إليه، بخطوات سريعة على الدرج وصلتُ إلى بابه وأمسكتُ المقبض وأدرتهُ، ودلفتُ بجسدي في حركة تلقائية أفعلها كل يوم. ولكن في هذا اليوم لم يُفتح الباب في سابقة غير معهودة بالنسبة لي! والتصقَ جسدي بالباب الذي لم يتزحزح.

نحنُ نستخدم غرفة واحدة في هذا المكتب لاستقبال الزبائن، بينما تحظى ماريا بغرفة أخرى وملحقاتها الضرورية، أي أنها تسكن في شقة المكتب، وهي نادراً ما تتأخر في النوم إلى ساعة

متأخرة من الصباح؛ لذا أعتمدُ عليها كلياً في فتح الباب، حتى إنني لم أعد أحضر نسختي من المفتاح.

طرقتُ الباب منادياً باسمها، بينما أبحثُ في معطفي عن المفتاح الذي لا أدري متى كانت آخر مرة رأيته فيها،.. ولحسن حظي، وجدتهُ في جيب معطفي الداخلي. فتحتُ الباب وثم تجاوزتُ غرفة المكتب التي كانت على يساري مباشرة، وسرتُ نحو غرفة آخر الرواق. طرقتُ بابها الذي أعلمُ أنه مغلق، وصحت ُمنادياً: "ماريا! لقد حضرت.."

ذهبتُ لأخلع معطفي، ثم توجهتُ لفتح نافذة المكتب لتهويته. لحظتها فقط أحسستُ أنَّ هنالك أمراً غريباً فعلاً في الهواء! هنالك رائحة عفنة فعلاً. ظننتُ في بادئ الأمر أنَّ مصدرها كان المقهى أو أزقة الشوارع، ولكن على رغم من ارتفاع مكتبنا فإنني ما أزالُ أشمُّها من الطابق الثالث.. وكأنها متفشية في البلدة أجمع.. لحظتها، رفعتُ يدي نحو ربطة عيني اليمنى ببطء.. وأزحتُها سامحاً لها أن تلتقط الضوء.. لأصاب بصدمة أنستني التنفس لوهلة!!.

دخان أحمر كثيف يتفشى في كل مكان، دخان لا يمكن لأعين البشر أن تراه، ولن يتمكن سواي

من رؤيته، إنه دلالة أنَّ شيئاً فظيعاً قد جرى أو على وشك أن يحدث. لقد اعتدتُ على رؤية الدخان الأحمر من فترة لأخرى في مهماتي السابقة المختلفة، لكني لم أره من قبل بهذه الكثافة! ولم أتخيل يوماً أنَّ هذا المقدار ممكن أن يكون! تمتمتُ وسط دهشتي باسم ماريا، ثم هرعتُ نحو غرفتها أطرقُ الباب بجنون وأطالبها أن تجيبَ عليّ. كانت دوماً تغلق باب غرفتها بالمفتاح، ولم أتمكن من تخيل الحالة التي ستكون فيها وحيدة في تلك الغرفة، بينما يثقل الدخان الأحمر على رئتيها ويخدّر جميع حواسها. باشرتُ في محاولات دفع الباب بجسدي، لكني سمعتُ صوت حركة جسدها ملتصقة بالباب من الناحية الأخرى وكأنها سقطت أرضاً، طلبت منها: "فقط ابتعدي؛ سأكسر الباب "

لكنّها لم تفعل، بل سمعتها تتحامل على نفسها، وتستجمع قواها لتدير المفتاح وتفتح الباب أخيراً، لتلقي بنفسها في حضني قبل أن يتسنّى لي دخول الغرفة. احتويتُها بحرص وأنا أرى حالتها المرهقة وهي تردد اسمي وكأنما تهذي، أخبرتُها: "أجل، أجل أعلم،إنه يغطي كل شيء.."

لا أظنُّ أني استطعتُ إخفاء رجفة الخوف من صوتي وأنا أرى خيوط الضباب الأحمر تسبح

حولنا، في كل مكان، خيوط تتقلب ويتغير شكلها وكأنما كانت نفس حيَّة. لحظتَها أدركتُ أنَّ قدومنا إلى بارادايس شيل كان أكبر غلطة ارتكبتُها في حياتي؛ فبسبب قوة استشعار جسد ماريا العالية للموجات الروحانية، فقد تأثرت بشدة مما حصل في ذلك اليوم. وعلى الرغم من كثافة خيوط الأبخرة الحمراء، فقد هدأ الدخان تدريجياً ليختفي أخيراً بعد عدة أيام، إلا أنَّ جسد ماريا احتاجَ إلى أيام طويلة من النقاهة ليتعافى، لكنَّ روحها لم تُشفَ أبداً. لقد عادت إليها أفكارها القديمة التي تحفّزها على قضاء حياتها في محاربة الشرور الكبرى، ولن تجد شراً أكبر من الذي كشفَ وجوده في هذه البلدة في ذلك اليوم.

مهما بحثنا وقابلنا من أشخاص، فنحنُ لم نجد تفسيراً منطقياً لما حصل ذلك اليوم، أو ما حصل بعده من حالات انتحار بلغ عدد ضحاياها ثمانية أشخاص في يوم واحد وبلا تفسير!، وكل محاولاتي في إقناع ماريا بتناسي الأمر تذهب هباءً. أنا أيضاً لا يمكنني تجاهل ما جرى، ولكنني أحتاج إلى مساعدة ماريا كي تستخدم عقلها لا عواطفها، فكل أنواع الشرور مهما كانت ضعيفة أو قوية تتغذى وتستمد القوة من العواطف غير المستقرة، وأنا متأكد أنها تعلم ذلك، فهي ليست مبتدئة، لكن.. لا

يمكنني سوى أن أقلق عليها .

ماريا كارسون

أحياناً، أؤمنُ أن الدافع الوحيد الذي يرغمني على النهوض من فراشي كل صباح هو هذه اللحظة التي أعيشها آخر اليوم، اللحظة التي أتجاهل فيها كل شيء، أتجاهل كل شيء: العمل، العملاء، وحتى فيكتور. أتجاهل حديثه بكل بساطة وأخرج من المكتب بلا تردد، حتى وإن ناداني طالباً عودتي، كله لأجل أن أدخّن سجائري. أسترقُ تلك اللحظات لأختلي بعقلي الصاخب، وأفكاره التي أظنُّ أنهُ لا يؤمن بها في هذا العالم شخص غيري. ولكنني لا أكترثُ كثيراً، طالما أنا وحدي أستطيع توثيقها واغتنامها في لحظة وحيدة شاحبة كهذه. أحياناً لا نهتم لمدى واقعية ما نؤمن به أو نتوقعه، بل نحن نكتفي بمتعة خوضنا فيه، مبتعدين عن الواقع الذي نسير عليه.

منذ زمن طويل وضعتُ لنفسي قاعدة ولم أكسرها قط مهما حصل. لقد وعدتُ نفسي أن أدخّن سيجارة واحدة في اليوم لا غير مهما كانت الظروف، وقد التزمتُ بذلك بصورة مثيرة للإعجاب فاجأتْ بها حتى نفسي. أظنُّ أنني لم أرد أن أعتادَ هذه النشوة التي تريحني وتفرحني، أردتها مكافأة لي أحظى بها بأشحّ قدر ممكن، وبهذا لا تفقد قدرتها على تغيير

مزاجي للأفضل، ولا أعتادُها، فأظل أراها أفضل ما حصل لي في يومي، وتظل تكون ركيزة لي،.. تعيدني إلى توازني.. فبهذه السيجارة الوحيدة، أعود لأقف على قدميّ مهما كان ما مررتُ به، لأني اعتدتُ على أن تعطيني القوة، أظنُّ أن نزولي لغرض التدخين لا يدفعه إدمان،.. فأنا فقط أعطي نفسي لحظة من السكينة، أستنشقُ فيها دخان السيجارة من الماركة التي اعتدتُها دوماً، والتي لم ولن تتغير أبداً مهما تغيَّر ما حولي.

عندما أحسستُ بحركة عند قدمي، تذكرتُ السبب الثاني الذي يجعلني أترقب هذه اللحظة من يومي، هذه المتطفلة التي تنتظرني في هذا المكان كل يوم، وفي نفس الساعة، بعد أن حفظت روتيني. حركتُ قدمي بصورة مفاجئة فجأة؛ لأثير خوف تلك القطة السوداء فأبعدها. تراجعت قليلاً، ولكنها ظلت ترمقني وتموء، انحنيتُ لأقترب من وجهها، ثم نفثتُ دخان سيجارتي عليه. غيرتْ موضعها فحسب معبرة عن استيائها. قلتُ لها وكأنني أتوقع أن ترد علي: "هذا جزاؤكِ لتوهمك أنكِ المُسيطرة هنا،..لا أملك اليوم شيئاً لك!".

ظلت تموء بلا مبالاة، أنا متأكدة أنها فهمت ما أقوله، فأنا أؤمن أن الحيوانات تستشعر نوايا من

حولها بكل بساطة، ولهذا فهي لم تتراجع، وظلت تموء عند قدمي، مكتشفة كذبتي،.. تركتها لدقيقة، ثم أخرجتُ من جيبي علبة طعامها المعتادة، فتحتُها وقدمتها لها وأنا أقول: "أنا لم أحضرها لكِ.. أفهمتِ؟.. هنالك الكثير من القطط التي تستحق هذه العلبة أكثر منكِ،.. أنتِ لم تحصلي عليها لأنك ظريفة كما تظنين.. بل لأنني انتعلتُ كعباً عالياً دون أن أنتبه اليوم، ولن أتمكن من الذهاب إلى المكان الآخر المليء بالقطط الطيبة الذي أعرفه،.. لهذا ولهذا فقط!! أعطيتكِ هذه العلبة اليوم.. لا تعتادي الأمر!".

انتبهتُ لحظتها إلى توقف سيارة أمام المبنى، وترجلت منها امرأة أخذت تنظر حولها بقلق، ثم دلفت إلى داخل المبنى ولم تطلب من سيارتها الرحيل. ضيّقت عينيَّ بعد أن أطلتُ النظر إلى عميلتنا المحتملة لأرسم انطباعي الأول عنها، فلا يوجد أية مكاتب أو شركات في طوابق هذا المبنى سوى مكتبنا أنا وفيكتور، إن أرادت محلاً خارجياً فهي لن تضطر للدخول. أطلقتُ تنهيدة يأس من نوعية المهمات التي أصبحنا نستلمها في الآونة الأخيرة، وكأنها تقع تحت نمط معين، فإن كان القادمون عائلة، فإن رسومات ابنهم الذي يلون كل شيء بالأسود تقلقهم. إن كان مراهقاً فعدم اختلاطه

مع أقرانه، وميوله للاستماع إلى أغانٍ غريبة، وإيمانه أنه مصاص دماء تقلقهم. وإن كانت امرأة ثرية، كما هو واضح من سيارتها وملابسها وتسريحة شعرها وذلك المكياج الراقي الذي تضعه،.. لابد أنها تشتكي من مكنسة مسكونة تتحرك في الليل، أو أن نظرات لوحات المنزل تلاحقها، أو أنها أضاعت سلسلة قديمة وتريد أن تعرف أين هي لتبيعها وتغطي ديونها. وإن وصلت الأمور إلى حد التعقيد، فإنَّ شبح جدتها يلاحقها لأنها نسيت أن ترتدي فستان زفافها المتوارث على مدى الأجيال في حفل زفافها الضخم! لابدَّ أن تكون مشكلتها شيئاً من هذا القبيل.

بعد دقائق، انتهيتُ خلالها من تدخين سيجارتي، صعدتُ إلى الطابق الثاني حيث مكتبنا، فوجئتُ بأني كدتُ أصطدم بالمرأة التي نزلت قبل قليل من سيارتها. بينما كانت تخرج من المكتب على عجل، حيَّتني بانحناءة سريعة، وتمنت لي يوماً طيباً بكل أدب، ونزلت مغادرة. دلفتُ أنا إلى داخل المكتب وسألتُ فيكتور: "دعني أحزر... تريد أن تعرف الرقم السري لحساب زوجها المصرفي، حيث قطع عنها المصروف؟".

ضحك فيكتور وقال: "يجب أن تتوقفي عن الحكم

على الآخرين استناداً إلى مظهرهم".

رددتُ متجاهلة نصيحته الثمينة، وسخِرتُ من عينه التي يغطيها بضماد: "لا يهم أيُّها القرصان، أعطني التفاصيل"

لم يُبالِ يوماً بأيّ من تهكُّماتي التي أطلقها عليه، وأجابني بجدية: "لا شيء".

استغربتُ ذلك، فالمرأة بقيت لعدة دقائق، سألتهُ: "أكنتَ تصف لها مكان محل الأثاث المستعمل الذي اشترينا منه أثاث مكتبنا الرخيص، بعد أن أبدت إعجابها به أم ماذا؟".

- "بل كنتُ مهذباً وطلبتُ منها أن تجلس وأنا أعدُّ القهوة،ثم يمكننا مناقشة ما تريده،.. سألتني عن مجال عملي، فأخبرتُها أنني أستطيع التحقيق في الخوارق، الأمور الغريبة التي تشعرين بها حولكِ، لكنكِ لا تستطيعين إطلاق اسم واضح عليها، عندها أخبرتني عن الشخص الذي أرسلها". سكتَ قليلاً قبل أن يقول بثقل واضح: "فرانز".

- "فرانز؟!! هل تعني أنها حلمت برجل ميت؟"

- "كلا،.. بل إنها تظن أنَّ سبب موته هو زيارته لمنزلهم منذ عدة أيام.. تقول أنها طلبتهُ، وأنه عندما جاءهم أعطاهم عنواني؛ فأنا الشخص الذي سيتمكن

من مساعدتهم في مشكلتهم.. وغادر.. ليظهر مشنوقاً بعدها بعدة أيام في أحد الأزقة.. تقول أنه عندما كان في منزلهم كان يتصرف بغرابة وكأنه يحاول أن يحافظ على أعصابه بقدر الإمكان. لذا فهي جاءت ترجوني الموافقة على زيارة منزلهم بدوري".

ظللتُ أستمع بتركيز.. أضاف فيكتور: "ومع ذلك.. لا يعني هذا أنَّ ما حصل لفرانز كان له علاقة بأيٍّ ممَّا كان يجري في منزلهم على أية حال.. فهو لم يمُت فور أن نزلت قدماه الدرج مثلاً".

سألتهُ بجدية: "وما الذي تعانيه في منزلها بالضبط؟"

- ".. سألتني إن كنتُ أبحث عن المفقودين،.. أخبرتُها أنني أفعل ذلك في حال كانوا ميّتين وتظهر أشباحهم لها، عندها امتقعَ وجهها، وكادت أن تنفجر في البكاء.. أعادت رجاءها لي بالحضور إلى المنزل، فهي لا تستطيع أن تبقى بعيدة عنه لفترة طويلة، لأنها يجب أن تعتني بسيّدهِ المريض وبابنته.. أعطتني العنوان،وغادرت على عجل".

كان يمسكُ ورقة تحوي عنواناً بالفعل، ناولني إياها. قلتُ بعد لحظات من تذكُّر موقع المنزل في ذهني: ".. إذاً فهي خادمة تعمل لدى عائلة

بانكرافت".

" كما يبدو.."

".. متى ننوي زيارتها إذاً؟".

".. لا تستعجلي.. إن كان لما يجري علاقة بموت فرانز؛ فلست أحمقَ لأعرض لها حضورنا المباشر، يجب أن أتحرَّى في الأرجاء وأتواصل مع من قضوا مع فرانز أيامه الأخيرة، أو حتى أبحث في أوراقه إن كان تركَ شيئاً.. أمور كهذه فقط تضمنُ لنا أن نبقى متقدمين خطوة واحدة على الأقل.. وقد تكون هي منقذتنا من أن نُدفن إلى جانبه".

لم أعارضهُ، فقد كان محقّاً.. قلتُ وأنا أرمي بجسدي على الأريكة المريحة المقابلة للتي يجلس عليها: "ربما لا شيء خطير يجري، وقد تكون ضيَّعتَ وقتكَ في البحث والتقصي والوسوسة بلا فائدة. ربما فقدتْ ابنة عائلة بانكرافت كلباً.. وإن أطلقتَ حملة بحث عنه معنا، فإنها تعترف لنفسها بأنه ميت، ولا تريد تقبل ذلك"

- "لماذا تستصغرينَ من حال وأفكار الأثرياء دوماً؟".

- ".. لِمَ تشعر بالإهانة؟".

- "... تقصدين أني فقير؟".

- "أنا لا أقصد.. بل أنتَ كذلك، فلمَ تدافع عنهم؟".

- "وهذا بعدما يُفترض أنَّ مزاجكِ قد تحسَّن بعد التدخين!".

حملتُ كوب القهوة الذي أعدَّه فيكتور لضيفتنا التي لم تشرب منه شيئاً، أعلنتُ أنه لي، وقلتُ: "..يمكنكَ أن تغادر اليوم بسرعة،.. لن أخرج، سأبقى هنا أستقبلُ أيَّ شخصٍ ممَّن يريدون إيجاد كلبهم الضائع، في حال جاءَ أحد".

".. سأقبلُ اقتراحكِ،.. أريدُ الذهاب إلى الحانة لأسمع ما هي أخبار البلدة بعد أن ماتَ فرانز.. أراكِ غداً.. ليلة سعيدة "

لم أردّ عليه،.. بعدما نزلَ وتأكدتُ أنه ذهب،.. أغلقتُ باب المكتب بالمفتاح غير مكترثة بأي زبون قرَّر أن يزورنا في هذا الوقت،.. أضأتُ الشموع وأخذتُ حماماً دافئاً بالزيوت العطرية على أنغام معزوفات يبثّها الراديو،.. كان عليَّ فعلاً التخلص من ذلك المزاج العكر.. أعلمُ أن مزاجي عكر طوال الوقت، لكن عندما يعلق فيكتور أنَّ مزاجي عكر، فهذا يعني أنه أعكر من اللازم،.. لذا سأسترخي هذه الليلة.. على الأقل سأحاول.. سأستكمل قراءة تلك الرواية الرومانسية التي بدأتُها قبل ذلك اليوم

المتعب، اليوم الذي امتلأت فيه باراديس شيل بكل تلك الأدخنة الحمراء، والتي أعادت إلى عقلي كل تلك الأفكار السوداء التي عملتُ جاهدة لردعها.

هززتُ رأسي لا أريد التفكير في الأمر.. وفتحتُ صفحات الرواية في آخر موضع توقفتُ فيه، قرأتُ أول جملة والتي كانت على لسان البطل يعبر فيها عن حبه لبطلة الرواية: "سأحبكِ حتى تنطفئ آخر نجوم السماء".

شعرتُ بالسخافة وزفرتُ.. لكنني سأكمل القراءة، قد تنطفئ نجوم السماء في الصفحة التالية على أية حال.

* * * * *

مضت بضعة أيام امتلأتْ بالعمل المضني لفيكتور، الذي لم يدخر جهداً في محاولة اكتشاف أي شيء يمكنه أن يساعدنا من الأشخاص الذين كانوا قريبين من فرانز قبيل موته. استفسرَ منهم عن روتينه في أيامه الأخيرة، وإن كان تعرَّض لأي شيء مريب أو مُقلق، مثل أن يكون قد أشار أنه مطارد من أحد مثلاً، سواء كان كائناً بشرياً أو غير ذلك، أصرَّ فيكتور على التفتيش في أغراض فرانز، ولكن كان قبول ذلك صعباً على عائلته التي لم تسنح لها الفرصة لاستيعاب ما جرى، لذا انتهى بي المطاف

متسللة مع فيكتور إلى مكتب فرانز المنزلي؛ لنختصر وقت البحث عن أي شيء قد يكون غريباً.. وجدنا الكثير من الملفات، ولكن لا يوجد أي شيء واضح يمكننا ربطه بما يجري حتى الآن. وجدنا ملفاً يحوي معلومات عن عوائل ثمانية الأشخاص الذين انتحروا في صباح يوم الدخان الأحمر الضبابي، اتّفقنا أنَّ هذا هو الأمر الوحيد المرتبط بذلك اليوم في ملفاته، لذا قابلنا العوائل، والتي كانت كلها من أقدم العوائل التي سكنت بارادايس شيل.. ولكن لم نحصل على أية معلومات مفيدة لنا، أخبرونا جميعاً بأمور متشابهة، مثل أنَّ السبب هو الاكتئاب وما شابه.

لقد كنّا نركض ونجمع كمّاً كبيراً من المعلومات، ولكن لم تكن ذات فائدة فعلية أو واضحة... ولم يعد باستطاعتنا تأجيل زيارتنا لمنزل آل بانكرافت أكثر.. بالأخصّ لأنَّ صبري بدأ ينفذ بدوره. وأخبرتُ فيكتور أنني لم أعد أبالي ببحثه الحذر، والذي يثبت أنه لا يوجد شيء لنقلق لأمرهِ، لأننا لم نجد شيئاً مريباً بعد أن تحرَّينا عن فرانز، ونبشنا كل زاوية في حياة الميت وأزعجنا أحبابه وأحباب المنتحرين الثمانية بما فيه الكفاية! فرضخ فيكتور أخيراً للضغط.. ووافق على زيارة المنزل..

لوسيا بانكرافت

استيقظتُ في ذلك اليوم، ولكنني قررتُ أن أظل في سريري. لم أعد أملك طاقة تكفي لمجابهة تحديات أيامي التي لا تنتهي، بل تزداد صعوبة وقسوة على روحي دون رحمة. كل يوم يزداد القلق الذي يطرق على قلبي من الداخل ليؤرقَ مضجعي، وأشعر به يأكل دواخلي كلما أتذكَّر سالي.. كل يوم يمضي وهي مفقودة يكاد يُصيبني بنفس الجنون الذي ينهش روح والدي.. أشعرُ أن جميع قواي ستخور بدورها قريباً.. أشعر أنني قريبة من الاستسلام للضياع، وستفيضُ جراحي في معركة خاسرة تتكرر كل يوم..

سمعتُ طرقاً على باب غرفتي في الصباح ولكني لم أجبْ،.. تكرَّر الطرق بعدها بساعتين، وصمتي مايزالُ مستمراً،.. ثم بادرَ أحدهم بفتح الباب بهدوء، ولكني كنتُ قد أغلقته بالمفتاح.. لم أرد أن يزعجني أحد.. أردتُ مواجهة قلقي اليوم؛ لعلّي أخفّفه أو يلهمني الهدوء وسيلة للسيطرة عليه أو مواجهته بصورة أقوى.. ولكني اكتشفتُ أن رغبتي الأنانية هذه تثير قلق غيري أكثر.. نادتني إزميرالدا من خلف الباب بصوت خفيف: "لوسيا عزيزتي.. هل أنتِ مستيقظة؟".

ظللتُ عدة ثوانٍ أتساءل: إن كنتُ أريد الإجابة أم لا..: "أجل.. لقد استيقظتُ لتوي.. يبدو أني استغرقتُ في النوم".

نهضتُ لأفتح لها الباب وأنا أقول جملتي الأخيرة. استقبلني وجهها المبتسم وهي تحمل صينية تحوي فطوري، استلمتُها منها وأنا أرغمُ ابتسامة على الظهور على شفتيّ. وضعتْ راحة يدها على جانب وجهي ومسحتْ برقة على خدي: ".. لديَّ أخبار جيدة لكِ... لقد جاء السيد أوين مارشال لمقابلة والدكِ اليوم.. إنه صديقهُ القديم،.. وقد التقيا معاً منذ الصباح في غرفته، ثم قاما بنزهة في الحديقة. وهما الآن يشربان الشاي هناك.."

فاجأتْني تلك الأخبار بحق!، سألتُها بلهفة: "وكيف حال والدي؟"

- "إنه متّزن منذ الصباح.. لم يصرخ أو يحصل أي شيء يستدعي تدخل الخدم الذين وكّلتهم بمراقبته، وبالاهتمام بكل ما قد يحتاجه هو والسيد مارشال"

- "هذا رائع! هذا رائع جداً.. إنها أخبار طيبة.. أتمنى أن يتماثل للشفاء"

هزَّت لي رأسها مؤكدة بنظراتها أملها في ذلك أيضاً، وتركتني لتناول فطوري. لقد كانت كلماتها تلك هي كل ما أحتاجهُ لأسترد شيئاً من قوتي

النفسية المستنزفة. تناولتُ فطوري على عجل، ثم أخذتُ حماماً وتزينتُ واستعدَّيتُ للنزول لمقابلة والدي وصديقه. على الرغم من خلافاتنا الدائمة إلا أنني اشتقتُ لرؤية والدي يبتسم ويضحك.. أو حتى يجلس هادئاً مكانه فقط دون أن يصرخ فور أن يراني. ربما في لحظة اتّزانهِ المفاجئة هذه سوف يضمُّني إليه، ويخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنه آسف لما جرى.. يقبّلني على جبيني، ويخبرني كم هو فخور بي لقوة صبري. أريده فقط أن يحدّثني.. سطر من صفحات الماضي أريدُ أن أقرأه مراراً.

خرجتُ من غرفتي وبادرتُ إلى النزول. عندها لمحتُ شخصاً لم أميزه حليق الرأس يغلق باب غرفة والدي.. وقفَ بعدها ينظر إليَّ مثلما نظرتُ إليه. اقتربَ مني مبتسماً وقال: "لقد كبرتِ وأصبحتِ آنسة جميلة يا لوسيا.."

انحنيتُ له مبتسمة، أمسكُ بيدي بكلا كفّيه. وقال: "اعذريني على تأخري في زيارة والدكِ حتى هذا اليوم،.. لقد سمعتُ أنهُ يمر بوقت عصيب مؤخراً. ولكني آمنتُ بقوته على تجاوز ما يجري.. لقد جئتُ اليوم للاطمئنان عليه".

شكرتهُ وأضفتُ: "متأكدة أنه سيصبح أفضل؛

عندما تعود شقيقتي سالي".

ابتسمَ لي ولم يقل شيئاً. ثم أضاف: "إن احتجتِ إلى أي شيء فلا تترددي من التواصل معي،.. سأترككم الآن للراحة".

سألتهُ قبل أن يذهب: "..كـ..كيفَ كان والدي معكَ يا سيد مارشال؟".

أجابني بعد أن التفتَ إليَّ من جديد: "لقد تبادلتُ معه بعض قصص الماضي. ويمكنني أن أقول أنَّ هذا..أنعشهُ بكل تأكيد، لقد قضينا وقتاً طيباً".

قالَ تلك الكلمات ونحن ننزل الدرجات نحو مدخل المنزل ليغادره. وقفتُ معه عند الباب، وقال: "سأحاول أن أعود لزيارته في فترة قريبة.. أظن أنه سيستفيد من وجود أشخاص قاسوا نفس ما يقاسيه الآن إلى جانبه".

"نفس ما يقاسيه؟". سألتهُ بصوت يشوبه ارتجاف التردد البسيط.

"لا تشغلي بالكِ بهموم دنيا الرجال الكبار يا عزيزتي.. إنها معركته.. وستأتي معركتكِ في هذه الحياة عاجلاً أم آجلا.. إنها تأتي للجميع".

ابتسمتُ بضعف،وقلت: "أظنُّ أنني أخوضها الآن".

وضعَ يده على كتفي، ثم غادر المنزل.. أغلقتُ

الباب خلفه وأسرعتُ إلى غرفة والدي،.. وقفتُ أمام الباب ثم طرقتهُ، وطلبت منه أن يسمح لي بالدخول،.. لم أسمع رداً على الرغم من سماعي لحركة في داخل غرفته،.. أعدتُ طرق الباب. وهذه المرة سمعتُ صوت سقوط شيء في الداخل،.. فتحتُ الباب لقلقي عليه أن يكون سقط وتأذّى،.. وجدته راكعاً على ركبتيه عند أسفل مكتب غرفته، يمسك الكتب بانفعال ويلقي بها في الهواء خلفه لتسقط على الأرض. تقدمتُ بحذر وسألته: "أبي ماذا تفعل؟".

نظر إليَّ وكأنه وحش جائع ممَّا أجفلني!، لكن ملامحه سرعان ما ارتخت وتحولت إلى ابتسامة وفرحة وقال: "سالي!.. لقد عدتِ!!".

و نهضَ واقفاً وهو ينظر إليَّ بغير تصديق!.. فاض قلبي بالألم، وأطرقتُ بنظراتي نحو الأرض، في اللحظة التي أعدتُ فيها نظراتي نحوه وأنا أعزم أن أخبرهُ أنني لستُ سالي، كان قد ضمني إلى صدره قبل أن أتمكن من الحديث، احتضنني بشوق ولهفة وقوة في ذراعيه، تركتْني أتشبث به دون أن أنطق بأي شيء. لم أدرك كم كنتُ مشتاقة إليه، كم كنتُ أحتاجهُ، وكم أنا سعيدة الآن.. سواء كنت سالي أو كنتُ لوسيا،.. أنا الآن ابنتهُ فقط، فرد من عائلته

لا يكرههُ وينفر منه.. أنا الآن معه.. يمسح على شعري بحنان، ويقبل خدي بكل امتنان لعودتي،.. قلتُ له بصوتي.. الذي هو في هذه اللحظة صوت سالي: "..أخبرني... كيف حالكَ يا أبي؟".

"مشتاق لكِ يابنتي.. مشتاق لكِ كثيراً.. لمَ اختفيتِ هكذا وتركتني؟ لقد ظننتُ أنَّ خطأً وقع وأنني فقدتكِ!".

"لم تفقدني يا أبي.. أنا هنا إلى جانبكَ الآن.. وكذلك لوسيا".

" كلا.. كلا.. ليس لوسيا... أنتِ.. لقد عدتِ أنتِ".

أصبتُ بالقشعريرة من كلامه، لقد كنتُ أنا لوسيا هي التي بين ذراعيه، إنه يظنني سالي.. إنه لا يحتضنني الآن سوى لأنني سالي،.. لمَ يكرهني إلى هذا الحد؟.. صحيح أنَّ علاقتنا كانت متوترة دوماً، ولم تكن الأفضل. ولكن أيشفع له ذلك كل هذا الكره نحوي؟ وإجهاضهُ التام لي من حياته؟

سألته بصوت توءمي: "لمَ تكره لوسيا يا والدي... ماذا فعلت لك؟".

"هي لم تعد جزءاً منّا يا سالي.. التشبث بذكراها لن يسبب لنا سوى الآلام والأحزان... عليكِ أن

تنسي شقيقتكِ أيضاً.. لقد وقع اختياري عليها وذهبت بلا رجعة.. وأنتِ عدتِ إليّ".

لم أعد أصدق ما أسمعهُ: ذكراي؟ واختارني لأذهب بلا رجعة؟ سألته: "عمَّ تتحدث؟"

أبعدَني عن حضنه برفق، وأمسكني من كتفيَّ ينظر إليَّ بحب وامتنان لوجودي، والدموع تنساب من عينيه، وقال: "ألم أخبركِ سابقاً؟ لا تشغلي بالكِ.. سيكون كل شيء على ما يرام".

ناجيتهُ: "ليتوقف الجميع عن طلب ألَّا أشغل بالي بما يجري!! يستحيل أن أستطيع ذلك! لقد تدمرتُ بما يكفي وأنا الآن أستحقُّ أن أعلم ما يجري! أخبرني بكل شيء يا أبي... أريدُ أن أعلم أين هي أختي؟ وما الذي يجري معك؟ كيف تتحدث وكأنكَ بخير الآن معي.. وتفقد عقلكَ عندما تحدّث لوسيا أو تراها؟... أرجوك!". كنتُ على مشارف فقدان القدرة على التماسك. شعرتُ بأن صورتي الخارجية ستتفكك في أية لحظة أمامه، وسيظهر إمَّا عجزي، أو الغضب.

رأيتُ في عينيه رفضه مناقشة أيٍّ من هذا معي، كان يريد أن يحتضنني مجدداً، لكني أزحتهُ عني وهددته: "إن لم تخبرني؛ فأقسم أنني سأغادر ولن ترى وجهي للأبد هذه المرة".

و كانت تلك الكلمة ما دمَّرته. تلفَّتَ حوله بضيق، ثم باشرَ يحكي كل شيء.. كل شيء ببساطة!

ماريا كارسون

عندما وصلنا إلى منزل عائلة بانكرافت كان الوقت صباحاً.. رأينا من بعيد رأساً حليقاً يركب في سيارة ويهمُّ بالمغادرة. تمتمَ فيكتور: ".. أوين مارشال". راقبناه من مسافة تكفي لأن تتسرب خيوط أشعة الشمس بين كل شيء موجود في الصورة التي ترسمها أعيننا. لمعان أطراف السيارة التي أخذت مارشال. وهج زجاج نوافذ المنزل الذي يعكس النور. كما شعرنا بحرارة الشمس رغم برودة الهواء، وذلك كان يُبعد شعور الاطمئنان، يذكّرني بفصول الربيع.

"أعطِني ملخصاً". قلتُ وأنا أعيد رأسي إلى الخلف، وبذقني أشيرُ إلى ذلك الرجل.

"يمكنني أن أصفه فقط عن طريق المعلومات التي ظللتُ أسمعها عنه من حين لآخر، إنه لا يملك نفوذاً ظاهراً في البلدة، ولكن الجميع يكنُّ له احتراماً. إنهُ يعتبر كالرئيس القومي الحقيقي لسكان بارادايس شيل الأصليين، أحياناً.. لا تتم الموافقة على معاملات بأكملها إن لم تحصل على موافقة السيد أوين مارشال.. يمكن أن أقول أنهُ المتحكم الحقيقي بمعظم ما يجري في هذه البلدة بين الناس.. وقد يكون حكمه أسرى وأقوى من حكم أية محكمة

حقيقية".

"ولمَ لمْ تصبح صديقاً مع شخص ذي صيت مثله.. أم أنكَ تحب العيش في الظلال إلى هذه الدرجة؟". سألتُ بطريقة ساخرة، رغم أنَّ نبرتي بدت جادة نوعاً ما.

"لمَ أشعر أنكِ تقصدين بهذا الوصف أنني حشرة، وليس أنّي أعيش في الظلال لأنَّ عملي يترتب عليه ذلك". هذا هو فيكتور الذي أعرفه، يدرك المزاح، لكنه لا يترك فراغاً إلا ويضع فيه تبريراته.

ضحكتُ معه، ولم أردّ تاركة له اتّخاذ القرار الذي يريده، فابتسمَ بدوره، ثم توقفَ وقال: ".. دعيني ألقي نظرة من هنا".

توقفتُ معه وراقبته يزيح الرباط عن عينه اليمنى، ثم يفتحها ويسدد نظراته نحو منزل آل بانكرافت من خلف السور،.. لم ألحظ أيَّ تغير مباشر في ملامحه، أو حتى في لغة جسده. أعادَ إحكام الرباط على عينه وقال: ".. لا أرى شيئاً.. لا دخان أحمر أو أي شيء غريب".

- "إذن، لا داعي كي نقفَ تحت هذه الشمس لمدة أطول. ألا تظنُّ ذلك؟"

وسبقتهُ نحو مدخل المنزل، تبعَني ودلفنا إلى

الداخل، عبرنا الحديقة الواسعة نحو المدخل. طرقَ فيكتور الباب وانتظرنا استجابة، فتحتْ لنا إحدى الخادمات، ظلّت تنظر إلينا وكأنها تسألنا من نكون؟. طلبَ منها فيكتور أن تنادي إزميرالدا، فطلبتْ منا الانتظار، فتأكدنا أنَّ إزميرالدا هي فعلاً الخادمة، وإلا لو كانت سيدة المنزل لكان تمَّ اعتبارنا ضيوفاً وقادتنا إلى صالة الاستقبال.. لم يطل انتظارنا كثيراً حتى فتحت إزميرالدا الباب على عجل وهي تقول: "سيد فيكتور.. أرجوكَ تفضل".

نظرت إليَّ وكأنها تستذكر أين رأتني؟،.. فعرَّفنا فيكتور: "هذه ماريا كارسون.. إنها تعمل معي".

ابتسمتْ لي إزميرالدا ورحَّبت بي،.. تراجعتْ إلى داخل المنزل، ودخلَ فيكتور إليه ولحقتُ أنا به. لكن فور أن دخلتُ إلى المنزل أحسستُ وكأن أثقالاً معدنية سحقت رئتيَّ، مددت يدي دون شعور مني لأتمسَّك بمعطف فيكتور من الخلف، ولأمنعَ نفسي من السقوط؛ فاستدارَ بسرعة ليسندني بذراعيه، وهُرعت إزميرالدا نحونا وهي تسأل: "ماذا جرى؟!.. سأحضرُ الماء فوراً!".

و اختفتْ بسرعة. كنتُ أجاهد لالتقاط أنفاسي، سألني فيكتور عمَّا يجري؟ لكنني لم أعرف إجابة لأجيبهُ،.. أزاحَ الرباط عن عينه اليمنى ونظرَ حوله،

ثم أحسستُ به يقربني من جسده أكثر، وهو يقول: "الضباب الأحمر.. لقد كان بالداخل".

ما قالهُ فسَّر لي هذا الشعور المدمر الذي أشعرُ به، وجود الظلام بقوة مركزة في مكان مغلق كالمنزل، ودخولي إليه دون استعدادات؛ جعلني أفقد توازني.. جاءت إزميرالدا بكوب الماء وساعدتني على شربه، وأخبرتْ فيكتور أنه يمكنه أن يجعلني أستريح في الغرفة الأخرى، ولكنَّ فيكتور أخبرها أنه سيكون من الأفضل لو استرحتُ خارج المنزل،.. راقبتُ ملامح إزميرالدا تمتقع.. وبصوت خفيض وافقت.

قادتنا نحو جلسة خارجية مظللة، وسألتْ: "هل المكان هنا مناسب؟"

هززتُ رأسي مؤكدة، وأسندني فيكتور حتى أرخيتُ جسدي على الكرسي الذي يقابلُ طاولة استراحات خارجية. قالت إزميرالدا أنّها ستطلب من الخدم أن يحضروا لنا شيئاً نأكله،.. ولم تغب سوى لثوانٍ ثم انضمَّتْ إلينا، وقالت على عجل بينما تعدّل فستانها تحتها لتجلس: "إذاً،.. هنالك شيء ما في هذا المنزل بالفعل؟".

تبادلنا أنا وفيكتور النظرات، إيمانُها بهذا الأمر سيختصر علينا الكثير من الشرح والإقناع، سألَ

فيكتور: "نحتاجكِ أن تخبرينا بكل ما يجري معكم.. بالتفصيل.. والأهم.. متى بدأ؟".

لم تضيّع ثانية تردد، وقالت: كل شيء بدأ منذ عدة أسابيع،.. لقد اختفت ابنة السيد بانكرافت، ولم تتواصل معنا حتى الآن. ولكنها كانت قد هربت عدة مرات قبل اختفائها؛ لهذا لم نلقِ بالاً للأمر في بادئهِ، لكن عندما طالَ غيابها، بدأنا البحث عنها في كل مكان. توجهنا إلى الشرطة كذلك، ولكن بسبب هروبها المتكرر منذ صغرها فإنهم لم يكترثوا لنا،.. ونحنُ أيضاً لم نكن قلقين إلى ذلك الحد حتى بدأنا نراها".

"ترونها؟".

"..لاأدري كيفَ أصفُ ذلك.. كانت تعود إلى المنزل.. وتختفي... بدأنا نحلم بها أحلاماً غريبة، نسمع تحركات غريبة في غرفتها وفي أرجاء المنزل،.. نظنُّها عادت. ولكن سرعان ما نتأكد أنَّ ما نراه مجرد وهم وخيال.. لكنه يبدو حقيقياً جداً! إلى درجة لا تصدق!".

" كم شخصاً يتشارك هذه الأحلام؟".

"أنا وأفراد عائلة بانكرافت.. وقد أخبرني بعض الخدم أنهم يشعرون بوجودها في أرجاء المنزل أحياناً... وأنَّ الأشياء في غرفتها تغيّر مكانها من

وقت لآخر، وكأنها تعود إليها دون أن يراها أحد وتختفي".

"هل تقولُ لكم شيئاً عندما تزوركم؟".

- سردتْ لنا إزميرالدا الحوار الذي دار بين سالي وشقيقتها لوسيا عندما ظهرت آخر مرة، واختتمت جملتها بقولها: (أنقذيني منه، يجب أن تجديني. دعيني أعود أو أرحل.. فقط.. لا تتركيني له).

تبادلتُ النظرات ذات المغزى مع فيكتور، ولم يخفَ ذلك على إزميرالدا، و لكنها لم تستطع سؤالنا عمَّا نعرفه؛ لأنَّ أحد الخدم جاء ليقدم لنا الطعام كما أمرتهُ مسبقاً. انتظرتْ انتهاءهُ من رصّ الأطباق والأكواب على الطاولة ومغادرته، عندها سألت والقلق يعتريها: "هل الآنسة بخير؟".

ردَّ فيكتور: "كل ما نعلمه أنَّ هنالك أمراً غريباً يحصل بالفعل هنا،... لا أفهم لمَ لم يستخدم سيد عائلة بانكرافت نفوذه ليحرك الشرطة للبحث عن ابنته، إن كان قلقاً لهذه الدرجة؟".

تململتْ إزميرالدا في جلستها قليلاً، ثم أضافت بعينين مغمضتيْنِ حزناً: "منذ اختفاء ابنته والسيد لم يعد في صحة جيدة، إنَّه مدمَّر نفسياً، أصبح عنيفاً وثائراً ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته أبداً... إنني أحرص على بقائهِ في غرفته، وأحرصُ على ألَّا

يتقاطع طريقه مع أحد قد يثير غضبه".

"أحالتهُ سيئة لهذه الدرجة؟". سألتُ أزميرالدا وأنا مستغربة حال الرجل الذي بكلمة منه قد يجد ابنتهِ وينهي عذابه، مهما بلغَ من الضعف فلا يمكن أن يكون مكسوراً إزاءَ ذلك فقط!.

"سيئة جداً، وكأنهُ معتلٌّ في ذهنه، وكأنهُ أصبح شخصاً آخر تماماً.. لا أستطيعُ أن أفهم ما يتحدث به في معظم الأحيان، جميع الأطباء الذين أحضرناهم لمُعاينته أكدوا أنه لا يعاني من شيء جسدي.. بل إنَّ معاناته في عقله ونفسيَّته اللذينِ تدمَّرا عندما اختفت ابنته.. ولا يرون سبيلاً لتعافيه سوى بعودتها".

بقى الثلاثة صامتين.. ثم أضافت إزميرلدا: "أنا أعرف فرانز منذ سنين، لهذا طلبتُ منه أن يأتي ويخبرني برأيه المحترف فيما يجري في هذا المنزل ولهذه العائلة.. عندما جاء هنا شعرتُ وكأنه يخفي عني شيئاً.. أعطاني عنوانكَ يا سيد فيكتور، وأخبرني أنكَ ستستطيع مساعدتنا.. وغادر.. هو لم يفعل أيَّ شيء... ولكن.. بعد أيام من زيارته لمنزلنا، يصلني اتصال يُفيدُ أنهم وجدوه ميتاً.. مقتولاً في أحد الأزقة.. مشنوقاً بوحشية.. كدتُ أفقد عقلي وأجنّ!.... أخبِرْني بصراحة يا سيد

فيكتور.. هل ما يوجد في منزلنا له علاقة بموت فرانز؟".

أجبتُها أنا على سؤالها: ".. لا يمكننا أن نتأكد بعد.. لقد قُلتِها بنفسكِ.. ما حصلَ له حصل بعد أيام من زيارته لكم.. يمكن أن يكون حصل بسبب أمر آخر تماماً..".

أطرقتْ إزميرالدا برأسها، وهي تدعو لفرانز بالرحمة بألم واضح من انعقاد حاجبيها،.. ثم قالت: "أخبراني ماذا تحتاجان؟، سأوفر لكما تعاوني التام مهما تطلَّبَ الأمر،.. أريدُ لهذه العائلة أن تعرف طعم الراحة من جديد.. أريد أن يلتمَّ شملها مهما كلف الأمر".

نظرتُ إلى فيكتور بسرعة، وفهمَ من نظرتي مقصدي في أنَّ لمَّ شملهم قد يكون أصعب بكثير مما هي مستعدة له..

قال فيكتور: ".. سيكونُ من الجيد أن نبدأ بمقابلة أفراد العائلة".

أومأتْ له إزميرالدا، وسألت: "هل سيكون الآن وقتاً مناسباً؟".

- " أجل،.. وأحضريهم إلى هنا... سيكون من الأفضل أن نبقى خارج المنزل لأكبر وقت ممكن

حالياً".

نظرتْ إلينا بقلق، وكأنها أصبحت تخشى العودة إلى المنزل بدورها، ولكنَّها جمعت شجاعتها ونهضت من الكرسي. سوف نصبح أنا وفيكتور وحدنا الآن، وسنتمكن من التناقش معاً بسرعة، وأن نتبادل الأفكار عمَّا يجري.. وفي اللحظة التي ملتُ فيها نحوه لأبدأ حديثي، سمعتُ إزميرالدا تحدّث أحدهم عند الباب، فالتفتتُّ إليها: "لوسيا.. ما بكِ يا عزيزتي؟ هل كل شيء بخير؟".

نظرتُ إلى الفتاة التي تحدثها، والتي وقفت مكانها تنظر إلى إزميرالدا نظرات فارغة، وكأنَّ روحها غادرت جسدها،.. نظرتْ إلينا وسألتْها: "..من يكونان؟".

أجابتها إزميرالدا: ".. إنهما... الشخصانِ اللذانِ طلبَ منا فرانز أن نتواصل معهما بخصوص ما يجري معنا، قبل ذهابكِ للعشاء عند آل لورينت، وصلني اتصال أنَّ فرانز مات.. قتلَ يا لوسيا!، لذا لم أستطع تحمُّل التأخّر للحظة واحدة، وأسرعتُ إليهما، وقد جاءا اليوم لتقصّي ما يحصل.. اعذريني لأنني فعلتُ هذا دون أن أخبركِ أو أخبرَ والدكِ.. ولكنني لم أعد أستطيع تحمّل انهياره، وتقتلُني رؤية تأثيره عليكِ!.. كل ما أردته هو أن

نجد جواباً لما يجري!".

ردَّت عليها الفتاة التي تبدو تائهة، وقالت بصوت ذي نبرة واحدة: ".. لا داعي لأن تقلقي على أبي بعد الآن... لقد مات للتو".

وكلماتُها تلك صعقت إزميرالدا.. ونهضَ فيكتور من كرسيه فوراً وهو يسأل: ".. مات؟".

طلبتْ إزميرالدا من لوسيا أن تبقى هنا،.. وهرعتْ مع فيكتور إلى داخل المنزل ليتحققا ممَّا قالتهُ الشابة المصدومة!.. نهضتُ من مكان جلوسي نحوها، وقرَّبتها مني، وأرشدتُها لتجلس معي إلى الطاولة وأنا أمسكُ يدها، على الرغم من صدمتي أنا أيضاً،.. لكنني ما كنتُ لأستطيع أن أدخل ذلك المنزل المسموم،.. لذا سألتُها: ".. ماذا جرى؟".

".. لا أعلم.. لقد كنا نتحدثُ و.. ومات... "

".. تتحدثان.. ومات؟!".

أومأتْ برأسها، وبدأت تنسلُّ من صدمتها وتزيحُ الثقل عن أنفاسها بالبكاء.. قرَّبتها مني وأخذتُ أمسح على ظهر المسكينة التي شهدت وفاة والدها للتو.. زادَ بكاؤها عندما عادت إزميرالدا تركض نحوها لتضمَّها إلى حضنها والدموع تغطي وجهها بدورها،.. ولم تمضِ لحظات حتى خرجَ فيكتور

بدوره من المنزل، وتوجهتُ إليه بسرعة أعقدُ حاجبي في قلق: ".. ماذا؟".

"لقد توفيَ سيد عائلة بانكرافت بالفعل،.. والدخان الأحمر قد أصبح أخفّ بكثير في الداخل".

"إذاً كان الدخان الأحمر هو السبب حقاً؟".

لم يعطني إجابة، ولكني قرأتُها في نظرات عينيه، قال: "لم يختفِ بشكل كامل.. هنالك أمر آخر مايزال هنا،.. هل أخبرتكِ الفتاة شيئاً؟.. إن كانت مع والدها في آخر لحظاته؟.. ربما يكون قد قالَ شيئاً نستطيع به أن نفسر ماهيَّة الدخان الأحمر".

"ماتزالُ مصدومة، كل ما قالته أنهما كانا يتحدثان.. ثم أجهشتْ في البكاء".

"لنتركْها تهدأ.. ثم يمكننا أن نفهم القصة كاملة.. لم نعد نستطيع سؤال والدها.. إنها كل ما نملك.. المسكينة... إنها تمرُّ بالكثير"

بقيتُ أنظرُ نحو الفتاة المنهارة، التي تحيطها إزميرالدا بذراعيها تحاول تهدئة شهقات بكائها، ثم قررنا الانسحاب أنا وفيكتور إلى الحديقة؛ حتى نجد فرصة للتحدث مع إزميرالدا.. ولنترك سكان المنزل يجدون القوة والتوازن من جديد.

إزميرالدا

"أشكركَ على مجيئكَ المستعجل حضرة الطبيب".

"لا عليكِ يا إزميرالدا، لقد مررتِ بيوم عصيب، لقد أعطيتُ الآنسة لوسيا مهدئاً، وسيساعدها على النوم والراحة حتى الصباح. لذا يمكنكِ أن تأخذي قسطاً من الراحة أنتِ أيضاً.. الفتاة تحتاجكِ في أقوى حالاتك". كان بالفعل قد ابتعدَ عن عتبة الباب؛ ليغادر بعد أن قال كلماته لي.

توقفتُ عن إغلاق الباب خلفه عندما استدارَ وكرَّر: "تعازيَّ الحارَّة بشأن السيد".

أومأتُ له برأسي متقبّلة تعزيتهُ، فغادرَ وأغلقتُ الباب، واستندتُّ إليه بضع لحظات ألتقط أنفاسي، ثم استدرتُ لأواجه صالة المنزل التي باتت فارغة. ولم أعد أشمُّ سوى رائحة الموت في المنزل. صعدتُ نحو الغرفة التي خرجتُ منها قبل قليل برفقة الطبيب، كنتُ قد تركت الباب مفتوحاً قليلاً، فدفعتهُ بخفَّة لألقي نظرة على جسد لوسيا النائم بخدَّيها المحمرين والهالات السوداء التي أحاطت عينيها من شدة نحيبها الذي لم يتوقف إلا عندما وصل الطبيب وأعطاها مهدئاً.. إنها تغطّ الآن في نوم عميق.. نظرتُ إلى إحدى الخادمات التي

تجلس قريباً من سريرها، فهزت رأسها مؤكدة أنها لن تبارح مكانها، وستحرص على مناداتي إن حصل شيء.

رمقتُ غرفة أخرى آخر الممر، غرفة السيد، ضيَّقتُ عيني وأنا أشعر بانقباض قلبي.. أكَّد الطبيب أنَّ سبب الوفاة كان النوبة القلبية.. مشيتُ نحو غرفته وألقيتُ نظرة على جسده النائم على سريره. وهناك قطعة قماشية بيضاء تغطي وجهه،.. وجدتُ في غرفته شخصاً لم أتوقّعهُ ولكني لم أغضب.. تقدمتُ إلى الداخل وأنا أغلقُ باب الغرفة خلفي، وقلت: ".. لا تحتاجان إلى التسلل.. أنا من دعوتكما إلى هنا، وأنا أكرر طلبي في أن تساعداني وتساعدا مَن بقي من هذه العائلة".

تبادلتُ النظرات مع فيكتور وماريا، اللذينِ كانا يبحثان بين كتب مكتبة السيد وبين أغراضه، قال فيكتور: ".. لم أكن أريد فعل ذلك.. ولكن هنالك أشياء يجبُ علينا فحصها فوراً، ولا يمكننا الانتظار أكثر".

- ".. وهل وجدتُما شيئاً؟".

أجابتني ماريا: ".. لقد قتلَ السيد..".

لم أستوعب الجملة في بادئ الأمر، وأحسستُ أنني أحتاج إلى الجلوس، ولكنني ظللتُ واقفة

وسألت: ".. مَن قتله؟..".

لم يُجيباني هذه المرة،.. فاستجمعتُ أنفاسي وأعدتُ صياغة سؤالي: ".. ما الذي قتلهُ؟".

- "هذا ما نحاول اكتشافهُ". أجابني فيكتور وهو يعاود البحث بين الكتب والأغراض، هذه المرة دون أن يغطي بالرباط عينه اليمنى .

شرحَ لي بينما مايزال يبحث: "عيني اليمنى يمكنها أن ترى الأشياء غير الطبيعية.. على الأقل آثارُها.. عندما دخلنا إلى هذا المنزل في بادئ الأمر كان مليئاً بدخان أحمر ضبابي، بالكاد استطعتُ أن أرى شيئاً،.. ولهذا لم تستطع ماريا التنفس في داخله، لقد كان جوُّه ملوثاً جداً،.. يبدو أنَّ تلك كانت إشارة لوجود متضخم لنوع من أنواع الشر فيه،.. نفس النوع الذي تسبَّب في موت سيد العائلة،.. والآن بعد أن أنهى مهمته، فقد غادر.. وأصبحت الأدخنة الحمراء أقل كثافة بكثير.. بل شبه مختفية.. وأنا أحاول تعقّبها الآن.. فقد تدلني إلى شيء معين محمَّل بنفس هالتها؛ فأستطيعُ أن أستنتج ما حصل للسيد.. ولكن اتّباع خيوط من الدخان ليست بتلك السهولة".

استمعتُ بهدوء لما يقوله، على الرغم من أنني كنتُ متفاجئة مما أسمع،.. ولكني لم أكذّبه.. أظنُّ

أن مشاعري كانت أكثر إرهاقاً من أن تُجهد الآن أيضاً...

سألتني ماريا: "..كيف حال الفتاة؟".

- "لقد نامت أخيراً بعد أن أعطاها الطبيب مهدئاً،.. قلتَ أنكَ تستطيع أن ترى إن كانت تلك الأدخنة الحمراء تحيط بشخص ما.. هلا تفقَّدت لوسيا؟".

وافقَ فيكتور في الحال، فتبعَني نحو غرفة لوسيا، وتبعته ماريا ببطء وهي تنظر حولها في أرجاء المنزل،.. دلفتُ إلى داخل الغرفة، وطلبتُ من الخادمة الأخرى الانصراف، ففعلتْ بعد أن انحنتْ لي وللضيفين. أغلقتُ الباب وسألتُ فيكتور: "..أهي بخير؟.. أهي في أمان؟".

- "..لا يمكنني أن أجزم كما قلتُ لكِ... الأدخنة ماتزالُ في كل مكان هنا،.. إنما فقط أقلّ كثافة... حتى وإن كانت لا تهددها بشكل خاص.. إنها ماتزالُ حولها، ولا بدَّ أنها ستؤثر عليها".

- "ألا يمكنكَ أن تعرف مصدرها؟".

راقبتُ فيكتور وهو ينظر نحو لوسيا من جميع النواحي، يبحث عن شيء خفي، مدَّ يده أمامه، وبدا وكأنه يتبع خيطاً لا أراه،.. راقبناه أنا وماريا التي

أسرعت لتفتح له الباب ليخرج من الغرفة، مشينا خلفه وهو يعمل جاهداً لكي لا يضيّع خيط الأدخنة الكثيف جداً كما وصفهُ لي،.. والذي قادهُ إلى غرفة مغلقة.. غرفة سالي..

لم أسأل أيَّ سؤال،.. كان قلبي مفطوراً؛ لأنَّ ما خفتُ حصوله يبدو أنه قد وقع وقد فات الآوان..

فتحتُ له باب الغرفة، ودموعي تنهمر دون قدرة مني على إيقافها،.. حينما رأيتُ ملامح الدهشة التي ظهرت على وجهه وهو ينظر إلى فضاء الغرفة، طلبتُ منه بصوت يهتز: ".. أرجوك... أرجوك.. هل سالي بخير؟.. أين هي؟".

ضمَّتني ماريا إليها بينما يقول فيكتور: ".. الكثافة هنا هي الأشد،... إنَّ الشقيقة المختفية سالي.. هي بؤرة هذا الدخان الأحمر".

أضافت ماريا: "مانزالُ لا نعلم ما يعنيه ذلك... لذلك أرجوكِ اهدئي".

- "لقد اختفت لأسابيع... لم نجد لها أثراً، ولم تتواصل مع أحد منا.... كنتُ أعلمُ في قرارة نفسي أنَّ شيئاً سيئاً قد حدث. ولكن توجَّب عليَّ أن أظل قوية ومتماسكة بينما انهارَ جميع من حولي... احتجتُ لأن أكونَ سندهم وقوتهم.. لكن لم أعد أستطيع.. أرجوكما.. لم أعد أستطيع".

سقطتُّ على ركبتيَّ أبكي وأناشد،.. لم نكن أنا وماريا قد دخلنا غرفة سالي،.. فقط فيكتور،.. الذي خرجَ وأغلقَ الباب خلفه، وجاء ليسندني وساعدني الاثنان لأجلسَ في كرسي في الممر، وهمّا بتهدئتي.. لم أسمع أيّاً ممّا قالاه،.. فقط ظللتُ أكرر وسط نحيبي: "افعلا شيئاً... أرجوكما.. أنتما تعرفان هذه الأمور.. أنا لا أعرفُ شيئاً. أرجوكما.. افعلا شيئاً".

كنتُ أضغط على يد ماريا بشدة وأنا أرجوهما... ضمّتني إليها وقالت: ".. سنفعل.. أعدكِ.."..
عندها تمسَّكتُ بها بصورة أقوى،.. لن أفلتَ بصيص الأمل الذي وجدتهُ بعد صبر وتضحيات كبيرة.. لم يعد بإمكاني فقدانه أبداً.. يجب أن أفعل أيَّ شيء لإنقاذ لوسيا.. مهما كلف الأمر.

ماريا كارسون

استنشقتُ دخان سيجارتي ببطء متلذذة بكل لحظة، كنا مانزالُ في منزل آل بانكرافت، أقفُ في الحديقة الشاسعة، أملأ رئتيَّ بنسمات المساء المنعشة وبرائحة دخان نوع سيجارتي المفضل. أخمدتُ سيجارتي الأولى في صحن حملته من داخل المنزل، ثم هممتُ بإشعال الثانية.. وتبعتْها الثالثة.

كسرتُ القاعدة التي وضعتُها لنفسي: في أن أدخّن سيجارة واحدة في اليوم مهما كانت الظروف،.. أنا ببساطة لم أختبر ظروفاً سيئة كالتي أمرُّ بها الآن، ظروف تستحق أن تُكسر لها جميع القوانين وتُضرب في عرض الحائط.. همستُ للسماء وأنا أتذكر المرات الكثيرة التي دخَّنت فيها سيجارتي بسلام من قبل: "... آسفة أيتها القطة، يجب أن تعتمدي على نفسكِ اليوم في إيجاد عشائكِ "

أخمدتُ سيجارتي الثالثة، حملتُ صحن السجائر وعدتُ إلى المنزل. صعدتُ إلى الطابق العلوي حيث وجدتُ فيكتور وإزميرالدا ينتظرانني، أخبرتُهما دون أن أتوقف عن السير: "أنا جاهزة "

و بخطوات لم تهدأ؛ خوفاً من أن يُقنعني فيكتور بالعدول عن رأيي، دخلتُ إلى غرفة سالي المملوءة

بالدخان الأحمر الكثيف الذي لا يراه سوى فيكتور، وشعرتُ بالاختناق من فوري.. كافحتُ لأستنشق الأوكسجين الذي شعرتُ بشحّه البالغ، وبأسرع مالديَّ من إرادة، رميتُ نفسي فوق سرير الفتاة المختفية،.. ألتقطُ أنفاسي بصعوبة، والخوف يجاهد للسيطرة على قلبي.

الجو خانق وثقيل، رائحة خشب رطب تغمر أنفي، بدأ وعيي يعود إليَّ رغماً عني، واستيقظتُ من نومي لأجد الظلام يحيطني، وفوراً علمتُ أنني لم أكن مستلقية على أيّ سرير، متأكدة أنني محبوسة في شيء ما، فحركتي كانت محدودة وأفكاري كانت مشوشة، تساءلت عمّا يحدث؟ كيف انتهى بي المطاف هنا؟ أو من أحضرَني؟،.. رفعتُ رأسي قليلاً إلى الأعلى أنوي النهوض، ولكن سرعان ما ارتطمتْ مقدمة جبيني بقطعة خشب صلبة. وبرغم أنَّ الظلام لم يسمح لي برؤية أي شيء إطلاقاً، لم يكن من الصعب الفهم أنني موضوعة في صندوق خشبي ضيق أشبه بالتابوت!

أخذتُ نفساً عميقاً، وهدأتُ فوراً، فأنا لستُ امرأة عادية!، وقليل من الظلام واحتكار لحرية حركتي ليس بالأمر الجلل بالنسبة لي!.. أغلقتُ جفنيَّ، وبدأتُ أركز حواسي. وفي غضون ثوانٍ كنتُ أستطيع

أن (أرى)، ليس بمقلتيّ عينيّ، بل باستشعار حواسي لكل ما حولها برهافة بالغة. أستطيع أن أرى في ذهني الصندوق الخشبي الذي يحتوي جسدي بكل وضوح من الداخل،.. ويمكنني أن أحسَّ بأنَّ تابوتي موضوع في غرفة فارغة ليس فيها أحد.

المضحك أنني لم أفاجأ بوجودي داخل تابوت، بقدر المفاجأة التي أحسستُ بها عندما رفعتُ غطاءه الخشبي بقوة قليلة، وانزاحَ بكل بساطة! مَن قد يفعل أمراً بهذه الحماقة والغباء؟، لكن أظنُّ أنَّ هذا طبيعي. إن كان أحدهم قد ارتكبَ جريمة، فهو لن يتخيل أنَّ ضحيته ستعود إلى الحياة وستخرج من التابوت بكل بساطة! لكن هل قتلني أحدٌ فعلاً؟ عاينتُ جسدي ولم أجد أنني مصابة في أيّ موضع، هل خنقني؟ حتى هذا كان سيؤلم!! وأنا سليمة معافاة بلا شك! إذاً، ما سبب وجودي داخل تابوت في مكان عجيب؟

كان هذا ما يدور في ذهني، وأنا أتريَّث في فتح جفنيَّ لألقي نظرة فيما حولي. قد أكون ذات قدرات مميزة، ولكني أحتاج الوقت لتفعيلها، ولإيقافها كذلك.. احتجتُ لثوانٍ حتى تختفي صورة المكان من ذهني.. ثم بادرتُ إلى فتحِ عيني، لأفاجأ أنه لا يوجد ضوء من حولي يسمح لي بالرؤية. ازدردتُ

ريقي بقلق من هذا المكان المظلم والرطب.. عاودتُ إغلاق عيني لأعيدَ تفعيل قدرتي، وبعد دقيقة تقريباً.. بدأتُ (أرى) بالاستشعار الحسّي.

التابوت الذي كنتُ بداخله رطبٌ من المياه التي تتقطّر من صدوع عديدة في السقف، بينما رفعتُ جسدي بحذر لأستقيمَ على قدميَّ وأخطو إلى منتصف الغرفة. استوعبتُ كمية المياه التي كانت ترشح من السقف! وكأنَّ سحابة مثقلة بالمطر كانت داخل الغرفة وليست خارجها.. الأرض الخشبية مليئة بالماء، وكذلك كان حالي!

تحسستُ جسدي باستغراب فجأة، ليس لأني شعرتُ بأي ألم مفاجئ أو ما شابهَ، بل لأنني استشعرتُ ارتدائي لملابس لا أميّزها! بل ملابس ما كنتُ لأفضّل أن أرتديها يوماً: فستان فاخر!، تعجبتُ من ذلك كثيراً، لكنني أحتاج إلى مزيدٍ من المعلومات لأفهمَ ما يجري لي بالضبط.

اضطررتُ إلى المشي بكل حذر وبطء، وأنا أقترب من كل شيء في الغرفة لكي أرسم خريطة واضحة لها في ذهني. الغرفة التي كان تابوتي موضوعاً فيها كانت قديمة للغاية، كما بدا من أنين أرضيتها الخشبية والشقوق في جدرانها. أثاثها محطّم كما تحسستُ براحة يدي،.. فيها سرير عليه أغطية

ممزقة.. ليس فيها نوافذ أبداً، ولا حتى نوافذ تمَّ إغلاقها بألواح خشبية مثلاً! لا شيء في هذه الغرفة يمكنه أن يساعدني أن أعلم أين أنا؟، أو من أحضرني إلى هنا؟، أو ما الذي أحضرني إلى هنا؟.. فنظراً لمجال عملي.. ليس من الغريب أن تحاول قوى العالم الآخر أن تُظهر نفسها لي بين الفينة والأخرى. أشعرُ أنني أنسى شيئاً فظيعاً.. ولكن لم يكن هذا وقتاً مناسباً لتشتيت أفكاري.

أسيرُ ببطء وبقدميَّ الحافيتيْن، حتى جلستُ على الأرض، بأكبر هدوء ممكن. لو كان هنالك بشري قد قتلني، لا أريدهُ أن يشعر بأنني قد عدتُ إلى الحياة، وأستطيع السير كما أرغب.

قمتُ بتمزيق أغطية السرير بأكبر هدوء ممكن، فقد كانت ممزقة أساساً من البداية، جذبة واحدة أو اثنتين كانت كافية لي للحصول على قطع قماش، وربطتُها حول قدميَّ الحافيتين لأحميهما، فآخر ما أريدهُ هو أن تتأذّى قدماي من أي شيء مرميّ على أرضية هذه القلعة القديمة، فيُعيقني الأمر عن الهرب عندما أحتاج الفرار، أو أن أنجح في الفرار وتخلّف جراح قدميَّ أثراً يمكن تتبّعه.

نهضتُ بعد أن انتهيتُ من إحكام أربطة قدميَّ، وسرتُ ببطء أستشعرُ مكان الباب؛ ففي الاستشعار

الحسّي أرى فقط أطيافاً لما يوجد حولي، بلا وضوح.. كلما اقتربتُ من الشيء فقط، يمكنني أن أفهم ما هو؟. وبعد دوراني في الغرفة ورسم خريطتها في ذهني، استطعتُ أن أعرف أين الباب.

عندما لامستْ أصابعي المقبض البارد؛ سرت قشعريرة في جسدي. أدرتُ المقبض، فالخاطف يتوقّعني ميتة، فلمَ سيغلق الباب؟، وإن كان هنالك شيء عجيب استدعاني إلى هذا المكان، فلا يمكنني أن أتخيل ما الذي سأواجهه بعد خروجي من هذه الغرفة. شعور حقير ألّا تعرف مَن ستواجه: مجرم بشري؟، أم مخلوق غيبي!. وكما خمَّنت نظراً لكل ما مررتُ به حتى الآن وقلبي يطرق بتوتر، لم يكن الباب مغلقاً، فتحتهُ ببطء شديد، ثم قررتُ أن أفتح جفنيَّ لأوقفَ استشعاري الحسّي وأبدأ باستخدام نظري. فهل هنالك ضوء في الممر، أم في أيّ مكان أوشكُ على الخروج إليه الآن؟.. وقفتُ مكاني لبعض الوقت أنتظر، وعندما فتحتهما أخيراً، تحقق أسوأ مخاوفي. الظلام كان يغطي المكان بشكل كامل..

ازدردتُ ريقي وفوراً عاودتُ إغلاق جفني؛ لإعادة تفعيل استشعاري الحسي، هذا يعني أنني يجب أن أخوض المجهول.. في الظلام الدامس!

خطوتُ إلى خارج الغرفة.. إلى ما بدا كممر،.. يمتد لليمين ولليسار، لا أجد سبيلاً لاكتشاف ما هو الطريق الصحيح، لا تلتقط أذناي أي صوت لأي مصدر حياة.. فقط صوت انهمار المياه من السقف المتصدع حتى في الممر. تسارعت نبضات قلبي.. فصوتُ قطرات المياه قد يمنعني من سماع أية خطوات أو أية أنفاس لأيٍّ كان يتربص بي.. لكني سرعان ما تداركتُ نفسي.. عليَّ أن أفكر بأنَّ صوت القطرات المتواصل الأشبه بالمطر يمكن أن يُخفيني أيضاً كما سيخفي غيري، عليَّ أن أستخدمه لصالحي.

سرتُ ببطء في الممر الذي يحوي أبواباً كثيرة، أفتحُها بحذر واحداً تلو الآخر باحثة عن باب الخروج، أو على الأقل لكي أفهم أين أنا.. ينقبض قلبي عندما أباشر بفتح أي باب، فقد يكون هنالك ما يتربص بي خلفهُ.. وأكون قد جئتُ بنفسي وبقدميَّ إليه!، ولكن لا أحد... أنا وحيدة تماماً هنا.لم أسمع أو أشمّ رائحة أيّ أحد أو شيء في هذا المكان العجيب! كل ما أشمّه هو رائحة الرطوبة لا غير! حتى سمعتُ صوتاً وكأنه همس!.. حملتهُ إليَّ رياح لا أعرف ما هو مصدرها! انقبضَ قلبي وتلفتتُّ حولي.. أتمنى لو باستطاعتي سماعهُ من جديد بتأهّب أكبر له، لأقرر إن كنتُ سأذهب نحوه.. أو

أبتعد عنه!.

عندما مشيتُ لمسافة كافية متقدمة في الممر لجهة اليسار من الغرفة التي خرجتُ منها، أحسستُ بقوة تشدّني من يدي اليمنى وبالأخص من إصبعي الخنصر!، استغربتُ ذلك كثيراً، تحسستُ يدي، لم أكن منتبهة لذلك قبلاً، ولكن وجدتُ أنَّ في خنصري خيطاً نحيفاً مربوطاً حوله!.. وكان الخيط كما يبدو قد وصلَ إلى أطول امتداد له.. ولهذا لا يمكنني التقدم أكثر إلا إن قمتُ بفك الخيط. ابتسمتُ وقد فهمت أنَّ هذه الطريقة تضمن لأيّ شخصٍ كان قد وضعني هنا أن أسلكَ الطريق الذي يريد مني سلوكه، إذاً يبدو أنني في خضم لعبة استفزازية سخيفة نوعاً ما، ووسط هذا الظلام، فأنا لا أملك سوى الانصياع!

توجَّب عليَّ العودة، سأكذبُ إن قلتُ بأنني لا أشعر بتوتر كبير الآن. لمَ أنا هنا؟.. ما هي الفكرة التي يريدُ أن يوصلها لي كائنٌ من كان الذي وضعني هنا؟ هل هذا الخيط يرشدني إلى الخلاص؟ أم سيجعلني أتعمق أكثر في السير نحو الخطر؟ لمَ سيضعُني أحد في مكان دامس الظلام؟، فقط ليطلب مني أن أتبعهُ إلى مكان آخر؟ أيريدني أن أخوض تجربة معيّنة حتى أصل إلى المكان

المنشود؟.. أيريدني أن أكتشفَ شيئاً معيناً في واحد من آلاف هذه الأبواب التي على جانبيّ الممر؟ لا يمكنني أن أتخيل إلى أين سأصل!

بدأتُ أسحبُ الخيط وأجمعه في يدي كلما تقدمتُ خلفه. عدتُ طبعاً خلال كل التقدم الذي كنتُ قد أحرزتهُ سابقاً، وبدأتُ أسلكُ اتّجاه اليمين كما يريد مني الخيط،.. أمشي بهدوء في الطريق الذي يمهدهُ لي، بحذر بالغ وبأنفاس منضبطة. مايزال السقف يرشح بالماء فوقي، أصبحتُ مبللة بالكامل.

أستمرُّ في المشي، وأسمع صوت الهمس من جديد، توقفتُ مكاني فوراً عازمة على فهمه هذه المرة، ولكنه اختفى أسرع من المرة الماضية، مع الرياح الباردة التي جلبتهُ!، لكن فور أن عاودتُ المشي وكلما تقدمتُ، تباغتني نسمة الرياح المتجمدة وهي تحمل معها إليَّ همساً. أحياناً كلمات رجل، مرة امرأة... وأخرى طفلاً،.. كلما تقدمتُ، أستمعُ إلى المزيد بينما تلسعُ جسدي برودة الرياح:

"لقد تركتُ أطفالي في عهدتهم، أطفالي. قتلوني وتركتُهم وحيدين!".

"لا أريدُ أن أموت! لا أريد أن أموت!".

"أمي تقول بأنني سأصبح بطلة، يفتخر بي الجميع

ويحبونني، تقول أنني سأنقذهم!".

"سوف أموتُ بشجاعة، هذا هو دوري في هذا العالم! "

"لتذهب البلدة إلى الجحيم، لن أموت من أجلها!!".

"لقد قتلتُ الكثيرين.. الكثيرين.. سأنضمُّ اليوم إليهم،.. لكنَّ الموت مخيف، مخيف!".

"أبي.. أين سنذهب؟ لم يَسِر الجميع في الغابة في غضون الليل؟ كيف يعرفون الطريق في هذا الظلام؟".

"أحبكِ يا حبيبتي،... حتى في الموت.. سنكون معاً".

"سأدفعُ لكم أيَّ مبلغ تريدونه! أرجوكم فقط دعوني أعيش.. دعوني أعيش".

"لا مجال للنجاة.. لا مجال للنجاة!".

"لقد كذبتم عليَّ! لقد استدرجتموني لتقتلوني!!".

"أنا محظوظة بالموت إلى جانبكَ "

"إنَّ البلدة تعتمد على حياتي!.. إنني أحقق الهدف منذ ولادتي!".

سمعتُ الكثير، الكثير من المخاوف، الكثير

من القصص. ترددتْ أصوات مختلفة تناجي مَن بالتحديد؟ لا أعلم! أشخاص مختلفونَ بفئات عمرية مختلفة. انقبضَ قلبي أيّما انقباض وأنا أسمع أصوات الأطفال الخائفين ورجاءَهم، بكاء الأمهات اللواتي يتمنّين البقاء إلى جانب عوائلهنّ، والرجفة في أصوات الرجال والاستسلام في أصوات كبار السن.

بدأتُ أفقد اتزان أنفاسي.. فالأصوات لم تتوقف ولو لدقيقة واحدة! أساليب الحديث والكلمات المستخدمة كانت تدل على تفاوت العصور واختلافها... إنني أستمعُ إلى أجيال وأجيال من الأرواح العالقة!!!..

أرواح كثيرة محتكرة في هذا المكان، غزت أصواتها عقلي بلا رحمة، فقدتُ بصيرتي، ولم أعد أرى أيَّ شيء وسط الظلام، فقط أسمع أصواتهم!

غطَّيت أذني بكلتا يديَّ؛ علّي أستطيع التخفيف من قوة الأصوات، وأستعيد توازني وبصيرتي، فاستشعاري الحسي يقتضي مني إعمال جميع حواسي معاً في استشعار ما حولي. لا يمكنني تحقيق ذلك والأصوات تفجّر طبلتي أذني، وتجعل حاسة سمعي تطغى على بقية الحواس!! يجب أن تكون حواسي جميعها متساوية!

استجمعتُ كامل تركيزي، وبدأتُ أصدُّ الأصوات تدريجياً. لم تتوقف تماماً، ولكني نجحتُ في إبعاد تركيزي عنها. لا أدري كم من الوقت استغرقَ ذلك، ولكن الأمر الهامّ أنني تمكنتُ من معاودة المشي والتقدم. أتبعُ الخيط المربوط بإصبعي من جديد.

ثم توقفتُ!..

يمكنني أن أراه بوضوح..

هنالك ما يقفُ ينتظرني على بعد عدة خطوات!

كيان أبيض واضح!.. ينتظرني على بعد عدة خطوات وسط هذا الظلام، وخلفهُ باب أحمر مزخرف عملاق، يحجب إضاءة الحرية.

كيان.. يربطُ طرف الخيط الأحمر حول عنقه..

كيان لم يتقدم نحوي.. وهذا يعني أنه عليَّ أنا أن أذهب إليه..

تقدمتُ ببطء نحو ذلك الباب ذي الشعاع المضيء.. حتى أحسستُ بألم مفاجئ في كلتا قدميَّ!.. انطلقت مني شهقة ألم، وحولتُ تركيزي رغماً عني إلى الأرضية. لم أستشعر وجود شيء غريب في بادئ الأمر، لكن بعد التركيز أكثر، ظهرتْ في ذهني صورة للدبابيس الخشبية المنبثقة من الأرض والتي آذت قدميَّ. أطلقتُ سباباً في

نفسي؛ فالأصوات التي تطاردني تجعل التركيز صعباً جداً! لحظة واحدة شتّتتْ تركيزي جعلتني لا أنتبهُ إلى تلك الدبابيس!، لكنَّ جراح قدمي لم تكن غائرة، ذلك لأني ربطتُها من قبل بقطع قماش. لو كنتُ في وضع أقل ضيقاً من هذا الوضع؛ لكنتُ صفقتُ مهنّئةً نفسي!

تقدمتُ في اتّجاه زاوية أخرى، مبتعدة عن المكان الذي برزتْ فيه الدبابيس الخشبية، خطوتين،.. ثم صرختُ من جديد والألم يغزو قدميَّ!! وجدتُ أن الأرضية كلها أصبحت مغطاة بالدبابيس الخشبية التي ظهرت من العدم، على الرغم من أنني في أشد حالات تركيزي الآن!. سحبتُ قدمي اليمنى أولاً من الأخشاب التي اخترقتْها وأنا أصارع رغبتي بالصراخ.. وتراجعتُ خطوة إلى الخلف.. لم يكن الألم فادحاً، ولكنه كان مزعجاً.. اعتراني غضب عارم بشأن هذا المكان كلّه! يكفي أنه رطب ومليء بالأرواح المزعجة،.. وهنالك كيان عجيب يوجّهني بخيط سخيف مربوط في إصبعي،.. والآن قد جرحتُ قدميَّ أيضاً؟ هذا سخيف! كيف لهذا المكان أن يحوي هذه القوة وهذا التأثير عليّ؟

وجهتُ قدميَّ نحو زاوية أخرى، وقبل أن أضع ثقلي عليها، ظهرتْ دبابيس خشبية في الأرض، فأبعدتُ

قدمي فوراً بعد أن فهمتُ لعبة هذه الخطوات الأخيرة!

لا يهمّ أين كنتُ سأخطو. كانت الدبابيس ستنغرز في قدميّ مهما فعلت.

تسارعتْ أنفاسي في غضب، كان يمكنني أن أشعر بارتفاع حرارة جسدي وتصبّبي عرقاً، على الرغم من أنَّ السقف كان يمطر فوقي، وقد أغرقني بالماء! في الخطوات الأخيرة القادمة، يجب أن أتحمّل الألم، وأنا مغمضة العينين وسط هذا الظلام. إن فتحتُهما، سأحتاج وقتاً لإعادة استجماع تركيزي وتفعيل الاستشعار الحسّي. وأشكُّ أنني سأفلحُ بذلك إن كنتُ أشعر بالألم. سوف تحطم هذه الأصوات التي لم تتوقف ولو للحظة واحدة كل محاولاتي.. عليَّ ألَّا أفتح عيني أبداً.. مزقتُ قطعة عشوائية من فستاني، وربطتُها حول عيني. لو كان فيكتور هنا؛ لقالَ إنني أقلده!.

يتوجَّب عليَّ أن أستكمل السير.. يتوجَّب عليَّ الحفاظ على تركيزي مهما كلفَ الثمن لكيلا أفقد بصيرتي. إن فقدتُ بصيرتي.. سينتهي كل شيء! لم تبقَ سوى بضع خطوات نحو هذا الكيان الأبيض المشعّ، وذلك الباب المغلق المنير خلفه. هذا الكيان الذي يقف لا يحرك ساكناً.. ينتظرني لأصلَ

إليه!.

ملأتُ رئتيَّ بالهواء، وتقدمتُ وأنا أخطو فوق الدبابيس دون تراجع أو تردد! أفكر بفكرة واحدة: "إنني ساحرة، إنني في عالم غيبي، لا شيء من هذا حقيقة.. هذا الألم ليس سوى خدعة، أنا سأصل إلى الحقيقة الآن، وسأوقف كل ما يجري عند حدّه!".

فجأة استطالت الدبابيس الخشبية أكثر، أطلقتُ رغماً عني صرخة ألم لم أستطع كتمها!!بالكاد استطعتُ الحفاظ على توازني واقفة! استطعتُ الإحساس بالدبابيس تخترق قدمي!، الألم يخنقني، وبالكاد يمكنني إبقاء التركيز على حواسي. فقدتُ بصيرتي بما حولي.. لكنني كنتُ أعلم أمراً واحداً.. أنَّ ذلك الكيان ينتظرني بعد بضعة خطوات، ولن أتوقفَ الآن.

احتجتُ لثوانٍ لأستجمعَ أنفاسي، هذه أول مرة أختبرُ فيها أمراً مشابهاً!! تساءلتُ كيف يمكن أن يكون ما أختبرهُ الآن بهذه القوة؟! إنني ساحرة.. إنَّ لي دماءً مميزة لا تصلحُ سوى لمجابهة مثل هذه الأمور.. لكن حتى أنا لا يمكنني أن أفهم ماذا يجري؟ وأين أنا؟ وكيف جئتُ إلى هذا المكان! بل أيَّة قوة أحضرتني إلى هنا على غفلة مني؟ ماذا يكون هذا الكيان المضيء الذي يأمرني أن آتيَ

إليه؟

استجمعتُ قوتي وأنفاسي، تصمُّ صرخات الأرواح مسمعي، تنهمر دموعي وتتعالى أصوات شهقات ألمي، لكنني سأنجح، سوف أصل إلى ذلك الكيان مهما كلفَ الأمر.

رفعتُ رأسي نحو مكان وقوفه، لم أعد أرى شيئاً سوى هو، فقط هو.. يضيء في الظلام! ولم أعد أشعر بشيء، لا أعلم كم خطوة خطوتُها نحوه تمزقت فيها قدماي، ولم أعد مدركة للألم أو للصداع. كل ما أعرفه أنَّ الكيان المضيء كان لفتاة شابّة، لها شعر بني طويل، وجهها أبيض خالٍ من أية ملامح، وشفتاها داميتان. مدّت يدها نحوي تستقبلني بعد رحلتي الشاقة، ومددتُ نحوها يدي وأنا أشعر بآخر دفقات طاقتي تنتهي. وحالما تلامستْ أصابعنا معاً، تذكرتُ (لوسيا) واشتدَّ رباط الحبل على إصبعي الخنصر، لأشعرَ به ينفصل عن يدي بلا رحمة.فتحتُ عينيَّ وأنا أصرخ بهلع والألم يعصف بي، أعتصرُ جرح يدي بكل ما أوتيتُ من قوة. أستوعبُ الآن أنني أتلوّى والدماء تغمرني على فراش توءم لوسيا المفقودة: سالي، الذي خلدتُ إليه بعد أن اكتشفنا تلوث غرفتها بالدخان الأحمر الكثيف، والذي تغطيه جميعُ دمائي المنبثقة من

يدي، وقد فقدتُ القدرة على الشعور بقدميَّ!

لم تمضِ لحظات من تحمّلي للألم، حتى فُتح باب الغرفة على عجل، وهبَّ فيكتور إلى داخلها، وركضَ مباشرة نحوي والذهول يغمره! سحبَ أقرب قطعة قماش وعملَ على تضميد جرح إصبعي. وفي اللحظات التي سبقتْ فقداني لوعيي، رأيتُ إزميرالدا تأتي راكضة إلى الغرفة أيضاً، وفور أن لمحت إصابتي، وضعت يدها على فمها في صدمة! وهرعت نحو هاتف الطابق الأرضي وهي تقول: "سوف اتصل بالطبيب!".

لتتركني أنا وفيكتور وحدنا، يهدّئني ويساعدني على شرب شيء من الماء بعد أن أنهى إحكام رباط يدي. سألني بخوف واضح في صوته: "ماريا، ماذا جرى؟!!".

كنتُ ما أزالُ غيرَ متمالكة لنفسي من هول الألم، ارتسمتْ على شفتيَّ المُرهقتين نصف ابتسامة رغماً عني، شعرتُ براحة غامرة لسماع صوت هذا الرجل، شعرتُ بماء بارد ينهال على وجهي!، قلتُ له بتعب: "أيها الغبي.. أنا مستيقظة "

سمعتهُ يسأل بكل الاستغراب، والخوف في صوته: "ما الذي يجري؟ ماذا فعلتِ؟"

- "كنتُ أطبخ الغداء و.." لم أستطع إكمال

سخريتي؛ فقد كنتُ تعبة حقاً.

سألني: "أين إصبعكِ؟".

كنتُ واعية تقريباً، لكني لم أجد في نفسي القوة لأشرح له ما جرى، اكتفيتُ بهز رأسي بالنفي، لا أدري ما الذي فهمهُ بالضبط، لكني أحسستُ به يباشر بحملي بين ذراعيه وهو يقول: "سأخرجكِ من هذه الغرفة اللعينة!.. سماحي لكِ باستخدام قواكِ الحسية للإحساس بهالة الفتاة المفقودة كانت فكرة سيئة!".

في الحقيقة لم أبالِ بما يريد فعله، ولو تركني مستلقية على ذلك الفراش لحظتها لما اهتمَّيتُ أيضاً؛ فلقد كنتُ مشوشة إلى أبعد درجة وبالكاد أعلم أين أنا؟.. كنتُ أريد شيئاً واحداً فقط، احتضنْتهُ بأقوى ما لديَّ، كان يمكنني أن أشعر باستغرابه!، كنتُ متعبة جداً، ولكنَّ الراحة التي أشعر بها الآن كانت تغمرني، أو أنني مخدرة من فرط الألم، قلتُ له بابتسامة: "فيكتور... لقد حلمتُ حلماً... لقد كنتُ داخلَ حلم رائع!".

سألني وهو يربّت على ظهري ليهدّئني: "وماذا حصل في ذلك الحلم لتستيقظي بإصبع مقطوع؟!".

أخبرتهُ بما في قلبي: "فيكتور.. لتكن هذه قضيتنا الأخيرة".

شعرتُ به يتوقف عن الحركة، واحتاجَ لوهلة ليسأل: "ماذا تعنين بهذا؟".

أطلقتُ قهقهة ضعيفة رغماً عني، يمكنني قراءته وكأنه كتاب مفتوح، يمكنني أن أعرف ما يفكر به دون أن يحتاج إلى نطقه، ودون الحاجة لتلتقي عينانا معاً، قلتُ له: ".. لننهِ ما يجري هنا،.. ولنتزوج بعدها.. ولنلاحق جنيات الأسنان أو أيّاً من السخافات الأخرى... لتكن قضيتنا الأخيرة..".

لم ينطق بشيء، أكملتُ بسعادة تغمر صوتي: "إنَّ هنالك معنى لوجودي في هذه الحياة يا فيكتور... هنالك مغزى لقوتي! سأستخدمها أخيراً،.. وثم سأكمل حياتي إلى جانبكَ في الهدوء الذي نستحقه..".

أخيراً أخبرتهُ، أشعر وكأنَّ ثقلاً انزاحَ عن كاهلي، أحسُّ أن صدري أصبح خفيفاً، وأنني أستنشقُ الهواء لأول مرة منذ مدة طويلة، فقدتُ إحساسي بما حولي تدريجياً، قبل أن أجد منه جواباً على ما اقترحتهُ.

الجزء الثالث

يمكننا الابتعاد عن الواقع بالأحلام.

أمَّا الشر فهو مرتبط بالوجود..

لأنه لا يتعدى إلا ليصنع كوابيسنا.

المنام الثالث

أرى حشداً، ووجوهاً طفولية تراقبني خلف نافذة منزلي الصغير. أصدقائي الذين أفتقدهم. لكنَّ تلك الوجوه تحولت فجأة، وأصبحت وجوه أشخاص بالغين. من بينهم، كانت تلك الفتاة التي تحوم حول نهر الماء وتشرب منه. لطخت ثيابها بالدماء، ابتسمتْ لي مسرورة بمظهرها الغريب.

"عدْ إلينا". الجميع ينتظرونكَ هنا.

خرجتُ من منزلي، وحاولتُ الانضمام للجميع، ولكنهم هربوا مني، وتركوا أمامي طريق الغابة المكشوف الذي كان يؤدي إلى تلك المدينة التي أرى قمم منازلها الفيكتورية في أحلامي دائماً. عبرتُ الغابة جرياً، ولم أكن أتخيّل بأن المسافة ستكون بهذا القصر. تبعتني الفتاة بصمت، وأشارت لي أن أتجاوز مدخل المدينة،ولكنني رفضتُ.

وُضعتْ لافتة حديدية على جانب الطريق. حاولتُ قراء ة الاسم المكتوب عليها، ولكنني عجزتُ فقد اختفت الأحرف، وبدلاً من وجودها كان هناك العديد من الوجوه تراقبني داخل اللافتة الحديدية التي تحولت إلى مرآة. تلك الوجوه كانت لا تحمل أي ملامح، ليس هناك سوى وجه ضبابي، زرعَ في كل

واحد منهم عينينِ باكيتينِ تراقبان بحزن.

"أين أنا؟"، سألتُ الفتاة الملطخة بالدماء.

"أنتَ في الوطن، لماذا لا تدخل إلى هناك؟"

فيكتور

لا شيء، لا يمكنني أن أجد أيَّ أثر لإصبع ماريا، لقد قلبتُ غرفة سالي رأساً على عقب عشرَ مرات بحثاً عنه بدون جدوى. ضربتُ طرف المكتب بقدمي بقوة ثائرة، فتهشَّم وكاد أن يتداعى ويسقط،.. نظرتُ نحو ملاءات السرير المغطاة بالدماء، وبدأ الندم ينهشني من جديد، ما كان عليَّ أن أوافق على نومها في غرفة مسمومة بتلك الهالة الحمراء الثقيلة.. كانت خطتها تقتضي أن تنام في المكان الذي اعتادتْ أن تنام فيه سالي دوماً، لتستشعرَ وتلتقط شيئاً من هالتها، فيمكنها أن تتعقبها أو تعرف أين هي عن طريق الأحلام،.. لا أدري إلى أيّ مدى نجحتْ.. ولكنَّ فكرة أنها تعرضت لإصابة جسدية جسيمة، لأنها كانت تحاول التواصل مع أي ممَّن كان يقف وراء هذا الضباب الأحمر لا تبشر بخير.. وهي الآن مستعدة لملاحقة هذا الظلام بكامل طاقتها.. زفرتُ بغضب وأنا أنظر بعيني اليمنى إلى الدخان الأحمر المتكثف في السقف، سألته بكل حقد: "ماذا تكون؟".

عندها جاءت إزميرالدا إلى الغرفة، التعب بادٍ على وجهها بكل وضوح وقالت لي: "لقد انتهى الطبيب من علاج الآنسة ماريا، إنها تود التحدث إليكَ".

رأيتُ في عينيّ المرأة نظرة استسلام واضحة. كان كل شيء يتداعى أمامها.

نزلتُ معها فوراً نحو بهو المنزل في الطابق الأرضي، حيث أبعِدت ماريا عن الغرفة التي تتركز فيها الأدخنة الحمراء بقدر الإمكان، خاصةً أن المنزل كان قد أصبح شبه فارغ منها بعد موت سيد العائلة. وجدتُها تنظر إليَّ مبتسمة بملامح متعبة بصورة واضحة، نظراً لكمية الدماء التي فقدتها. أمسكتْ بيدي وأجلستني إلى جانبها وقالت: "... سأخبركَ عن الحلم".

أخبرتُها حرصاً عليها: "يمكن لهذا أن ينتظر حتى تستريحي".

هزَّت رأسها بالنفي وردَّت: "ماأزالُ أذكر تفاصيله بوضوح، أخشى ألَّا أستيقظ أبداً إن خلدتُ إلى النوم الآن".

"ما هذه النكتة البائسة؟". قلتُ لها بمزاج واضح إنني لن أتحمَّل نكاتاً كهذه الآن.

"آسفة... فقط.. استمعْ إليّ".

ثم نظرتْ إلى إزميرالدا وقالت: "... وأنتِ أيضاً".

بدا على إزميرالدا أنها تتأهب لسماع الأسوأ، ولكنها احتفظتْ برباطة جأشها وجلست قِبالتنا،

مستعدة للمواجهة مهما كان ما ستنطقُ به ماريا. ولأكونَ صادقاً، لم يكن أيٌّ منّا مستعداً لسماع تلك التجربة المروعة، لم أصدق أنَّ المرأة التي أعملُ معها والتي أطلبُ منها باستمرار أن تطرد الأرواح عن المكانس واللوحات المعلقة، استطاعتْ خوض أمر كهذا وهي تجلس الآن بجانبي مبتسمة وسعيدة. من أينَ لها بذلك العزم؟ والقوة؟.. والتصميم والهدوء؟.. لم أنفكّ أرمشُ بجفوني انبهاراً بما أسمع.. ولكن في نفس الوقت تأكدتُ أنَّ ما نواجهه لهو أمر لم نختبر مثله قط من قبل.. ولا أعلمُ إن كان هنالك من واجهَ أمراً شبيهاً بهِ حتى.

في النهاية أخبرتنا أنَّ كل ما تذكره هو وصولها إلى كيان الفتاة الذي كان ينتظرها، والتي عندما نظرت إلى وجهها الخالي من الملامح، تذكرت لوسيا فوراً..

عندها تمتمت إزميرالدا بكل أسىً: "سالي... إن نظرتِ إلى لوسيا فهذا يعني أنكِ تنظرين إلى سالي أيضاً،.. إنها توءمان تتشاركان نفس الوجه" استجمعتْ أنفاسها وسألت السؤال الذي كان يُرعب فرائصها منذ اللحظة التي فتحت فيها ماريا فمها: "... اعذراني إنني لستُ ضليعة بأمور الخوارق،.. ولكن أهذا يعني أنَّ سالي.."

مضت ثوانٍ قبل أن تجيب ماريا: "... أعتذر.. سالي لم تعد حيّة في هذا العالم "

أطرقتْ إزميرالدا برأسها، لم تكافح لإخفاء دموعها، حاولت متشبّثة بآخر بصيص أمل: ".. ولكنها ظهرت هنا... لقد طلبَ منا أن نساعدها.. أن نُعيدها.. أيعقل أنهُ لا توجدُ أية وسيلة؟"

شعرتُ بكل الأسى نحو هذه المرأة الفاضلة، والتي تحبُّ هاتين الفتاتين من أعماق قلبها الصادق، لقد كنتُ أنظر إلى أم تتحدث عن طفلتيْها،.. أم قوية وصلبة لن تنحني لأجل أن يستندَ عليها الآخرون ويستمدوا منها قوتهم للاستمرار. شرحتُ لها: ".. سالي تشتركُ في رابط روحي مع توءمها لوسيا،.. إنَّ سالي عالقة في المكان الذي استدعث إليه ماريا لسبب ما.. وهي تبلغ لوسيا بذلكَ؛ لأنها تريدها أن تساعدها في العبور إلى العالم الآخر..".

- ".. ولكن لِمَ هي عالقة؟ كيف ماتت بالضبط؟ أنا أعلم أنَّ من يتعرض للقتل.. هو من تعلق روحهُ على هذه الأرض.. هل تمَّ قتل سالي؟".

يشكّلُ الموت سوراً داكناً، يلفُّ منطقة لا يمكن الحصول منها على أي جواب. خباياها لا تصل إلى عالم الأحياء. ولو صحَّ أنَّ هذه الفتاة كانت ميتة، ولو بأية طريقة مختلفة، هذا يعني أنَّ عودتها

مستحيلة. قد نتمكن من التواصل معها بشكل طفيف، لو كانت مجرد طيف عالق على الأرض حتى الآن، ولكنها لم تعد مرتبطة بالحياة بعد الآن.

كان سؤالاً نابعاً من القهر، وجوابه كان صعباً،.. فلقد كانت سالي مقتولة فعلاً، لا يوجد تفسير آخر،.. ولكننا لا نملكُ إجابات دقيقة يمكننا أن نشاركها إياها إزاء كل هذا. فمايزالُ هنالك الكثير من الأمور الغامضة بالنسبة لنا أيضاً... فدلائل وجود الدخان الأحمر، وشبح سالي متكرر الظهور، واستدعاؤها ماريا إلى عالم آخر متحلية بكل القوة لتؤذيها جسدياً، يدلُّ أنها ماتت في طقس من طقوس السحر الأسود المحرم. لكنْ لم نجد شيئاً في غرفتها يدل على أنَّ أمور السحر كانت من اهتمامات الفتاة.. لقد كنَّا نفقد كثيراً من قطع اللغز هنا.

أجبتُها: ".. لا يمكننا أن نكون متأكدين الآن، أعلمُ أنَّ ما سمعته صعب جداً.. ولكن يجب أن تتحلي بالإيمان والصبر، ربما إن استطعنا محادثة لوسيا؛ فقد نفهم الصورة بشكل أفضل".

أومأتْ إزميرالدا برأسها وهي تحبسُ الدموع، وقررنا أنهُ سيكون من الأفضل الانفصال، وأن نعود نحنُ إلى مكتبنا لأخذ قسط من الراحة، ولمباشرة العمل من أيِّ مكان نستطيعهُ؛ حتى تتمالكَ لوسيا

قوتها، وترتاحَ ماريا بعد كل ما مرَّت به.

تأكدتُ أنَّ ماريا تستريح في غرفتها، وجلستُ خلفَ المكتب. وبصدق لم أعلم ماذا أفعل؟، الموقف الذي نحنُ فيه خطير للغاية، وماريا مستعدة للركض نحو هذا الخطر بأذرع مفتوحة. لم أكنْ أريد أن أرى المرأة التي أحبها تعرِّض نفسها لخطر أنا أعلمُ أنني لن أستطيع حمايتها منه. خلعتُ رباط عيني اليمنى ونظرتُ عبر النافذة، لأرى انتشار خيوط الدخان الحمراء في السماء. لم تكن كثيفة مثل ذلك اليوم منذ عدة أسابيع، ولكنها بكل تأكيد تزداد قوة يوماً بعد يوم. إنها كثيفة ومنتشرة فوق البلدة جميعها. مهما كان ما يجري فلابدَّ أنه يؤثر على البلدة بشكل تام، وليس على منطقة محددة أو بيتٍ فقط،.. إننا الآن نملكُ خيطاً يُمكننا اتّباعهُ بفضل سالي.. وأتمنى أن يقودنا إلى مكان يُذكر!

في المساء، وبعد أن تأكدتُ أنَّ ماريا أخذت أدويتها وتناولت الطعام، لاحظتُ أنها كانت أسعد من العادة. لم أحتج أن أسألها لأعلمَ السبب، فأنا متأكد أنه سيكون بسبب أنها وجدت شراً سيمكّنها من استخدام قواها التي ظهرت في دمها.

أنا حتى لا أعلمُ ما هي قوى ماريا؟، فلقد كنا نعيش في عالم مسالم لدرجة أنها لم تحتجْها. ولم

أتخيَّل يوماً أنها ستحتاجها. هذا أمر ينغّص سعادتي بخصوص عرضها الذي يقول أن نجعل الزواج يوقّع عقد نهاية عملنا في المجال الخطير، وننعم بحياة الرخاء والسلام.. لا أريدُ أن نصل إلى هذه المرحلة وأعناقُنا مهددة.

غداً سيُقام مأتم آل بانكرافت، وسنكونُ موجودين أيضاً للتنقيب في مكتبة والد لوسيا بصورة أوسع.. لم أستطع أن أبحث كثيراً عندما كنتُ وحدي، وكان جلُّ تركيزي منصباً على ماريا النائمة في غرفة سالي.. سنقابل المعزِّين أيضاً، وقد نقابلُ الدخان الأحمر كذلك.

إزميرالدا

كان الجو ثقيلاً ومرهقاً.. وكلما فكرتُ أننا قريباً سنقوم بنفس المراسم لأجل سالي ينفطر قلبي.. شاهدتُ لوسيا التي لم تنطق بالكثير بعد استيقاظها من نومها لتواري جسد والدها بالتراب.. ثم تستقبل التعازي بكل هدوء، وكأنَّ الروح قد انسلَّتْ من جسدها، وعيناها فقدتا بريقهما... حاولتُ أن أسرقها من الجموع عدة مرات؛ لكي أسمح لها أن ترتاح قليلاً في عزلة وخصوصية.. ولكنَّ هذا لم يُعد إليها طاقتها..ولا يمكن لأحد أن يلومها... فلقد توفيَ والدها بنوبة قلبية بينما كانا يتحدثان.. في اليوم الذي بدا فيه بخير وفي تحسّن.. هذا الأمر محزن جداً..

كنتُ أراقبها بعيني طوال اليوم،.. وعندما جاء السيد بيتر لورينت.. شكرتُ وجوده في قلبي، عندما رأيتُها تبادر برمي نفسها بين ذراعيه وتتشبَّث بسترته السوداء بقوة.. وكما يبدو أنها بادرت إلى البكاء.. أسندَها ومشيا إلى مكان بعيد عن ضجة الجموع.. كان قراره حكيماً.. انضممتُ إليهما بعد دقيقة، وقد كانت تبكي بحرقة في حضنه.. تبادلتُ النظرات مع بيتر، وفهمتُ من نظراته أنه يعدُني بالاعتناء بها..فعلمتُ أنها تحتاج أن تعلم أنَّ هنالك

من يقف إلى جانبها غيري.. لذا آثرتُ التراجع..

تقابلتُ مع فيكتور وماريا اللذيْن قَدَّما تعزيتهما لي.. وجودهما لم يكن غريباً، فقد كان هنالك الكثير من سكان بلدة بارادايس شيل، الذين حضروا لتقديم التعزية سواء أكانت تربطهم معرفة شخصية مع السيد بانكرافت أم لا..و كان من واجبنا تقديم الضيافة لزوّارنا.. إلى جانب أفراد العوائل الثرية القادمين من البلدة وخارجها..

أخبرتُهما أن يدخلا إلى مكتب السيد، ويغلقا الباب بالمفتاح، ويبحثا عمَّا يحتاجانه بأسرع فرصة.. أعطيتُهما كامل حرية التحرك.. لم أعد أبالي سوى بأن أنهي معاناة لوسيا قبل أن تتفاقم.. إن ظهرت سالي لها؛ فإنَّ هذا سيدمرها، وهي التي أمامها طريق طويل للتعافي.. ماأزالُ لا أدري كيف سأخبرها أنَّ شقيقتها سالي توفيت أو ربما قتلتْ في ظروف غامضة، بعد هذه الفاجعة مع والدها... الصغيرة المسكينة!.

عندما حلَّ المساء أخيراً، كان هذا ختامَ يوم عزائنا.. كان بيتر هو آخر الراحلين، ولم يغادر حقيقةً إلا عندما تأكّد أنَّ لوسيا في فراشها وسترتاح،.. كانت الساعة حوالي السابعة، ودَّعني عند الباب بعد أن رجاني أن أعتني بها، وأكّد أنه سيأتي غداً

في الصباح الباكر.

أغلقتُ الباب خلفهُ وأنا شاكرة لوجود سندٍ مثله للوسيا.. لقد لمستُ في عينيه صدق مشاعره لها.. ثم توجهتُ للبحث عن ماريا وفيكتور.. وجدتُ ماريا تقف وتدخّن أمام باب غرفة سالي.. عندما رأتني أطفأتْ سيجارتها وقالت: "المعذرة.. احتجتُ واحدة بشدة".

- ".. هل أنتِ على ما يرام؟ كيف حال إصابتكِ؟ هل أخذتِ أدويتكِ؟".

- "لا تحتاجينَ أن تضيفيني إلى قائمة مَن عليكِ الاهتمام بهم يا إزميرالدا.. لا تقلقي عليَّ... أفهمُ أنَّ البحث عن إصبعي المفقود لم يثمر عن شيء؟".

- "آسفة.. لقد بحثتُ بنفسي... لم أجد شيئاً... لا أدري كيف أعتذرُ منكِ، لقد حصلَ ما حصل لكِ بسببي".

ابتسمتْ ماريا وقالت: ".. بالفعل... ربما عليَّ أن أشكركِ".

- " تشكرينني؟... بعد ما فقدتهِ؟".

- " هذه أول مرة أنسى فيها ما فقدتهُ، وأركّز فقط على ما سأجنيه: سلام إلى الأبد".

لم أفهم كلماتها تماماً. وعيناها الصافيتان

وابتسامة وجهها الصغيرة جعلتاني في حيرة أكبر!، لاحظتْ ذلك، وقالت وهي تضع يدها على كتفي: "لا تبالي.... هل تظنّين أنَّ بإمكاني التحدث مع لوسيا قليلاً؟".

- "لقد خلدتْ إلى النوم للتو... لا أدري إن كانت هذه فكرة جيدة.. أفضّل أن ترتاح".

- "أفهمُ أنكِ قلقة عليها، ولكن كلما أخَّرنا موضوع التحدث معها، قد يضعها هذا في خطر أكبر".

كنتُ مترددة ولكنَّ كلماتها أيقظتني.. أنا الآن مصممة على حماية لوسيا ويجب أن أفكّر في مصلحتها فقط.. عليَّ أن أساعدهما على حمايتها؛ لذا ذهبتُ وماريا تتبعني إلى غرفة لوسيا، وطرقتُ الباب ثم فتحته ببطء فتحة صغيرة لألقي نظرة.. توقعتُ أنها ستكون نائمة في فراشها من شدة إرهاق وتعب اليوم، ولكنها فاجأتني بوجودها جالسة على حافة السرير تنظر إلى فضاء الغرفة.. نظرتْ إليَّ عندما دخلتُ، ثم أعادت نظرها للتحديق في اللاشيء.. دخلتُ الغرفة بسرعة، وبأهدأ ما أستطيع كيلا أجعلها تنفعل، وسألتُ: "عزيزتي، لم ماتزالين مستيقظة؟.. عليكِ أن ترتاحي؛ فقد كان اليوم عصيباً جداً بالأخصّ عليكِ".

- "لم أشعر برغبة في النوم".

ظننتُ أن بيتر لم يغادر جانبها حتى نامت، ولكن يبدو أنها نامت قليلاً واستيقظتْ كما حال الأطفال. احتضنْتها ثم قلتُ: "أتظنين أنكِ تستطيعين التحدث ولو لوقت قليل؟".

أومأتْ بالموافقة، وقد كانت هذه فرصة ماريا وفيكتور، فأسرعتْ هي تناديه. ولم تمضِ ثوانٍ حتى جاء.. جلستُ إلى جانب لوسيا،..بينما سحبَ فيكتور كرسي المكتب لتجلس عليه ماريا، وظلَّ هو واقفاً.

بدأ حديثهُ وأنا أحيط كتفيها: "نحنُ آسفان جداً على خسارتكِ.. ولا نريد أن نأخذ كثيراً من وقت راحتكِ المستحقّ.. ولكننا نبحث في موضوع يؤرق إزميرالدا، وتتمنى أن تضع له نهاية: الهلوسات التي كانت تراودكِ عن شقيقتكِ المختفية سالي.. وكذلك الحال التي آلَ إليها وضع والدكِ في الآونة الأخيرة.. وربما يمكنكِ أن تعيدي إخبارنا عن رؤاكِ لأختكِ.. طبعاً إن أحسستِ أنَّ بإمكانكِ ذلك".

أومأتْ لوسيا برأسها مشيرة إلى أنها مركزة في طلباته. لكن عندما جاء وقتها لكي تتحدث لم تباشر بالحديث مباشرة، حركتْ مقلتيْ عينيها يميناً ويساراً وكأنها لا تعلم من أين تبدأ؟، ثم أضافَ فيكتور: "لا بأس عليكِ.. حاولي أن تسردي علينا

كل ما حصل من البداية.. واسترجعي ذكرياتكِ ببطء.. نحنُ لسنا في عجلة".

و كأنَّ هذا سهَّل الأمر عليها أكثر، لذا بعد أن نظرتْ إليّ لتستلهمَ الشجاعة كما تعودت، باشرت تحكي: "أنا وابن عائلة لورينت الأصغر، بيتر.. منذ صغرنا كانت بيننا علاقة شد وإرخاء في صداقتنا، كنا نندمج معاً ونتفق، نلعب معاً،.. أغارُ عليه من اللعب مع الفتيات، يوصلني إلى المنزل بعد دوام المدرسة ويشتري لي الآيس كريم،.. كنا صديقيْن عزيزين، وظللنا هكذا حتى بدأنا نتواعد السنة الماضية،.. لم أحبّ فتىً غيره من قبل، والكل يعلمون بأمر علاقتنا، أو على الأقل لاحظوها. كان هذا الموضوع يزعج أبي دوماً ظنّاً منه أنني صغيرة، حيث منعني من الزواج ببيتر حتى أبلغ السن القانوني، ولم يكن راضياً عن العلاقة أبداً. كانَ يقول أنهُ سيطرَ على عقلي، وأرادني أن أكفَّ عن التعلق المرضي ببيتر وأعيش حياتي.. كنتُ دائماً متمردة فيما يخص قوانين والدي التي يفرضها عليَّ وعلى سالي. لقد أرادنا أن نعيش حياتنا كلها في بارادايس شيل، ندرسُ إدارة الأعمال.. بينما أطاعتهُ سالي.. كنتُ أنا دائماً أتمرد وأفعل عكس ما يقوله، مما جعل العلاقة بيننا تتدهور كثيراً".

مسحتُ على كتفيها وأنا أعلمُ أنها تسترجع فترة عصيبة من مراهقتها الآن، وتحاول وصفها في كلمات واضحة قدرما تستطيع. أكملتْ: "لم تكن علاقتي مع بيتر تخفى على أحد، وبالأخصّ على توءمي سالي، التي كانت الفتاة المطيعة لوالدي، لسبب ما على الرغم من أنني نسخة من سالي في الشكل الخارجي، إلا أننا كنّا مختلفتيْن تماماً في الشخصية. كانت سالي تحت سيطرة أبي، بينما كنتُ أنا أحرص على التحرر منها كلما سنحت لي الفرصة.. وهذا مع مرور السنين سبَّب شرخاً في علاقتنا نحن الثلاثة.. ولكن مهما جرى، كنتُ أقرب إلى توءمي سالي من والدي، لذا ما حصلَ بعدها فاجأني!".

سكتتْ قليلاً لتلتقط أنفاسها، ثم تابعت: "في إحدى الليالي التي تحمل موعداً لي وبيتر، ووعداً باللقاء في مكاننا المفضل، وعندما وصلتُ إلى هناك متأخرة ككل فتاة تريد أن تتأخر على أميرها ليزيدَ شوقه إليها، وجدتُها هناك قبلي، تحادثهُ وتحاولُ إغواءهُ. جنَّ جنوني وكشفتُ أمرهما: أمرُ توءمي التي وثقتُ بها، وأمر الفتى الذي أفنيتُ مراهقتي لا أطارد سواه.. لم أترك لهما مجالاً للشرح، وغادرتُ بارادايس شيل لما يقارب الشهر دون عودة. لم أتواصلْ مع أسرتي أبداً في

تلك الفترة.. والوحيدة التي تواصلتُ معها هي إزميرالدا".

سألَ فيكتور: "أيمكنكِ أن تحددي لنا تاريخاً تقريبياً لليوم الذي غادرتِ فيه".

- "الأول من سبتمبر".

تبادلَ فيكتور نظرات مع ماريا، لم تخفَ عليَّ، لكن علمتُ أن وقت السؤال عن فحواها ليس الآن، فعلينا ألَّا نقطع أفكار لوسيا؛ لتنتهي من استحضار ذكرياتها الموحشة بأسرع ما يمكن ثم تخلد إلى الراحة.

أكملتْ فتاتي دون أن نطلب منها: "كانت رسائل إزميرالدا توصيني دوماً بالانتباه إلى نفسي، وتخبرني بتطورات الحياة في البلدة. كانت قد أخبرتني من قبل أنَّ سالي اختفتْ، ولكني لم أبالِ.. فقد كانت هذه عادة من عادات سالي،.. عندما تغضب تختفي، تهرب إلى أقاربنا أو إلى إحدى بيوت صديقاتها.. لم أبالِ باختفاء سالي وقتها.. مع أني لم أفهم لمَ غادرت المنزل بينما أنا كنتُ قد غادرته بالفعل؟.. مع مرور الوقت بدأتْ رسائل إزميرالدا تخبرني أنَّ حالة والدي النفسية بدأت تسوء، وأنه يفضِّل أن أعود،.. فكان هذا أحدُ أسباب عودتي إلى هنا، السبب الحقيقي هو أنني

شعرتُ بالذنب لما جعلتُ إزميرالدا تُعانيه".

فيكتور: "أتذكرينَ التاريخ؟".

فكَّرت لوسيا قليلاً، ثم أجابت: "كان يوم عودتي هو اليوم الذي حضرتُ فيه جنازة السيد آدامسون. هذا يعني: السابع من أكتوبر".

أكملتْ لوسيا: "منذ يوم عودتي وأنا هنا، يزداد قلقي كل يوم بخصوص سالي، على الرغم من أنني كنتُ مازالُ غاضبة منها،.. تسنّى لي أن أتحدَّث مع بيتر، وتأكدتُ بخصوص مشاعره نحوي، وأنَّ الغلطة كانت من شقيقتي سالي، وأنها كانت تحاول أن تقنعهُ بأن يقطع علاقته بي؛ لأنَّ العلاقة لا تُسعد والدي،.. كانت دوماً مطيعة له، أو أنها كانت تشعر بالغيرة لأني أملكُ حبيباً بينما هي لا.. فحصلَ ما حصل.. وكانت تلك آخر مرة أراها فيها".

هزَّ فيكتور رأسه لها مؤكداً أنه متابع، وأكملت لوسيا: "حالة والدي ظلت تزداد سوءاً، لقد كان غياب ابنتهُ المفضلة يثير جنونهُ، إلى درجة أنه كان يخلط بيني وبينها فنحن توءمان، ويناديني باسمها، غير مكترث أبداً أنَّ ابنته لوسيا كانت قد غادرت بدورها لمدة شهر كامل.."

تكورتْ قبضتاها عند ركبتيها؛ لتسحقَ ملابسها بهما معبرةً عن الألم الذي يخلتج في صدرها،..

أكملتْ: "طلبتُ له الأطباء الذينَ قالوا أنهُ ليس به علة جسدية، وأنَّ الموضوع نفسي،.. وتواصلتُ مع الشرطة ليبحثوا عن سالي، ولكن بسبب ماضيها المتكرر في الهرب لم يعيروا الأمر كثيراً من وقتهم وجهدهم، بالأخص أنَّ الجميع مشغولون في محاولة الحد من زيادة الجريمة التي ارتفعَ عددها في الآونة الأخيرة بصورة مروعة، لذا لم تكن قضية اختفاء سالي من أولوياتهم. تواصلتُ مع أقاربنا وحتى مع عوائل الخدم، لأسألَ إن كانت سالي تقطنُ عندهم، ولكن لا أثر لها".

فيكتور: "هل بدأت الهلاوس في تلك الفترة؟".

- "لقد بدأت الهلاوس في أول يوم عدتُ فيه إلى بارادايس شيل".

- "كم مرة كانت تنتابكِ الهلاوس؟".

- "لا أظنُّ أنَّ لها وقتاً محدداً، أحياناً كنتُ أرى سالي مرة واحدة، وأحياناً مرتين. أحياناً أرى أحلاماً، وأحياناً أخرى أعيشُ أحلام يقظة،.. إلى درجة أنني كنتُ أمشي أثناء نومي، وتجدُني إزميرالدا نائمة في أغرب الأماكن".

أعطيناهما وصفاً للهلاوس التي كنّا نراها أنا ولوسيا، لم تكن حالتي مثل حالة لوسيا، كنتُ أرى سالي في أحلامي فقط، وكذلك كان يخبرني السيد

في الصباح عندما أضعُ له الإفطار. أول جملة ينطقُ بها يقول أنّه حلمَ بسالي في ليلة البارحة، أو أنه يطالب برؤيتها بعد عودتها أخيراً؛ فأجدُ نفسي أذكّره يومياً أنَّ سالي ماتزالُ مختفية ولم تعُد بعد.. استمعَ فيكتور وماريا بصمت وبتركيز.

أكملتْ لوسيا بعدما انتهتْ من ذكر كل الهلاوس والأحلام التي انتابتها: "ثم استدعينا أحد معارف إزميرالدا، فرانز، الذي قال أنهُ لا يمكنه الشعور بشيء في منزلنا هذا، وأعطانا أرقام التواصل معكما. ولأكون صادقة كنتُ مشككة في موضوع الروحانيات هذا.. لذا لم أبادرْ للتواصل معكما، وإزميرالدا هي من فعلتْ".

قلتُ لأكمل القصة، ولأجعل الصورة واضحة للجميع: "في اليوم الذي خرجتْ فيه الآنسة لوسيا لتناول العشاء مع عائلة لورينت، وردني اتصال أنَّ فرانز قد مات، ومن وصفهم للحادث، أحسستُ أنها جريمة قتل غير طبيعية، وخفتُ أن يكون الأمر بسبب زيارته لمنزلنا؛ لهذا أسرعتُ في أخذ ورقة عنوانكما، وجئتُ إليكما في الليل".

لوسيا: "في تلكَ الأيام، كان جنون والدي وتوهُّمه يزدادان، لقد كان يوشكُ على ضربي. وأحسستُ أنه سيؤذيني في مرات عدة،.. لم أعدْ أميّز أبي عندما

أنظرُ إليه. كنتُ أرى شخصاً آخر، شيئاً آخر، لم أملك أدنى فكرة عمّا كان يحصل! وكل ما تمنيتُهُ هو أن ينتهي الكابوس، وتعود سالي الحمقاء إلى رشدها، وتعود إلى منزلها"

لم تبكِ لوسيا على الرغم من اهتزاز صوتها، ثم جئْنا على أحداث يوم وفاة السيد.. ومقابلته مع ضيفه السيد أوين ومارشال، وأخبرتنا لوسيا بأسىً كم أنّها تأمّلت أن تكون حالة والدها قد تحسنت بطريقة إعجازية عندما رأى صديقهُ القديم، وأنها تزينتْ لأجله. ثم قالت وصوتُها يمتلئ بالقهر: "عندما ظننتُ أنهُ هذا هو اليوم الذي سيضمّني فيه أبي أخيراً، لكنَّ هذا لم يحصل،.. لقد ظنَّني سالي.. مايزالُ يظنُّني سالي.. لم أكن أحبّه أن يناديني هكذا؛ لأنه مايزالُ متشبّثاً بالفتاة التي آمنتُ أنها تسبّب له كلّ تلك المتاعب النفسية. لقد كان كل ما يحصل بسببها، ومع ذلك ماتزال هي التي ينتظرها والدي، ويتمنى أن يحتضنَها،... لقد كنتُ أصاب بالقهر في كل مرة يناديني باسمها.. ولكن يومَها اندفعَ نحوي وضمّني.. كانَ عناقاً لم نتعانقه لسنين طويلة،.. لم أتمكن من أن أصححَ لهُ غلطته، لذا فقد ظنّني سالي.. وقد ماتَ وهو مايزالُ يظنّني سالي.. وفقط لأني كنتُ سالي، فهو أخبرني كل شيء".

سكتتْ لكي تبحثَ عن كلماتها، وعلى الرغم من أنَّها وجدتها، إلا أنّها جاهدت لتنطقَ بها، وربما لم تُرد ذلك حتى،.. لقد جاهدتْ للتغلب على أيّ عائق كان يقف في حلقها وصدرها، ثم قالت وهي تأخذ شهيقاً مليئاً بالبكاء: أخبرني أنَّ العوائل المؤسسة الثلاث عندما انتقلتْ إلى هذه الأرض ليستعمروها، وطالَ بقاؤهم فيها، بدأ السكان الأصليون يضيقون ذرعاً بهم، وقامت حرب أهلية بين المستعمرين والسكان الأصليين، سُفكت إثرَها الكثير من الدماء من كلا الطرفين. لم تتوقف الدماء إلا باقتراح هدنة، تضمَّنها شرط آخر، وهو أن يصبح المستعمرون جزءاً من الأضحيات التي يقدّمها السكان الأصليون؛ لردع شرّ قديم محبوس في هذه الأرض. وأصبحَ هذا هو الوعد بينهم: أن يتبادلوا الأدوار في تقديم أضحيات في طقوس تضحية معينة. وقد تمَّت كتابة أسماء جميع ضحايا الحرب الأهلية في مجلد تملكهُ عائلة مارشال، عندما يُعلن عن اسم عائلة هذا يعني أنَّ وقت هذه العائلة قد حانَ لتقديم أضحيتها، ولا مجال للتراجع أو الرفض والهرب، وقد ظلّت هذه هي الحال لمئات السنين، يقدمون الأضحية لردع الشر، ولتصفية دَين الحرب الأهلية".

سألَ فيكتور بصدمة: "أمايزالون يمارسونهُ إلى

يومنا هذا؟".

أومأتْ لوسيا برأسها، رأيتُ الصدمة جليّة على وجه فيكتور وماريا، بينما شعرتُ أنا أنَّ هنالك حجراً يسحق رئتيَّ. أمسكتُ بكتفي لوسيا أكثر.. وطلبتْ منها ماريا: "..أكملي.. أرجوكِ".

- "أجل.. يمارسونهُ إلى الآن.. كما أخبرني...".

هربتْ الكلمة من شفتيَّ: "سالي.. "

أغمضتْ لوسيا عينيها، وانهمرت الدموع منهما: "بل لقد كنتُ أنا.. أنا هي من رشَّحها والدي لتكونَ الأضحية من عائلتنا هذه المرة".

بقينا جميعاً ننظرُ إليها غير مستوعبين!.. شرحتْ لنا بكل ألم: "في الليلة التي غادرتُ فيها المنزل دون أن أخبرَ أحداً سوى إزميرالدا.. كان اليوم الذي جاؤوا فيه لأخذي... وبالطبع لم يجدوني؛ فقد كنتُ خارج البلدة، وما جرى أنهم وجدوا سالي... وأخذوها بدلاً منّي... خالطينَ بيننا؛ لأننا متشابهتان".

- "كلا.. كلا لوسيا، كيف تقولينَ أمراً كهذا.. والدكِ ما كان ليفعل هذا أبداً!".

صحتُ في غير تصديق!، أجابتْ بألم صارخة: "هو من قالَ لي ذلك.. هو من اعترفَ أنه اختارَ لوسيا

لتتمَّ التضحية بها.. لهذا جنّ جنونه عندما اختفتْ سالي.. لهذا كان يسألني دوماً إن كنتُ سالي، وإنْ كنتُ قد عدت. لم يتحمّلْ هول أنَّ ابنته سالي هي مَن ماتت وليست لوسيا!! لأنه لم يكن يعلم حتى أنني غادرتُ المنزل يومها.. لقد ظنَّ أنَّ خطته نجحتْ.. وتخلّصَ من الابنة المتمردة التي لطالما كرهَها،.. وبقيتْ فتاته المطيعة.. ولكن ما حصلَ كان العكس، لقد ماتت ابنتهُ الحبيبة، وشاركَ هو في قتلها، بل أمرَ بقتلها وجلسَ هناك يردد طقوساً ما، بينما كانت سالي تصارع الموت!، بينما كان من المفترض أن تكون الأضحية.. المفترض أن تكون الميتة هي: لوسيا... وليست سالي".

وضعتْ يدها على فمها وانهارت تبكي في حضني، ولم أستوعب ذلك. واحتضنتُها بصدمة بالغة! لا أدري حتى إن كان حبي ومشاعري قد وصلا إليها أم لا؟.. ما كنتُ أعلم كيف سأصبح قوية لأجلها مثلما عهدتْني، احتضنتُها بلا كلمة، دموعي تنهمر مع دموعها لفظاعة ما سمعتُ..

نظرتُ إلى فيكتور بكل حزن، وإلى ماريا كذلك،.. رجوتُهما بنظراتي أن يكونا هما قوّتنا الآن.. الصدمة التي وقعتْ علينا لا نريد تصديقها، نريدُ تفسيراً.. نريدُ أن يقنعنا أحدهم أنَّ ما يجري مجرد كذبة

وخدعة سخيفة،.. الأب الذي قلقنا عليه وبكت عليه هذه الفتاة وعلى حاله، كان هو من أمرَ بقتلها؟ وبسبب رغبته الشريرة بفعل هذا الشر.. راحت ضحية لكل هذا ابنته سالي... لم يكن هنالك نجاة لأي سيناريو في هذا الموضوع،.. كان كل مسار ينتهي بموت واحدة من الفتاتين اللتيْن اعتبرتُهما ابنتيَّ.. لقد كنتُ أخدم الرجل الذي لم يُبالِ بحياة واحدة منهما...

على الرغم من أنَّ كل هذا صعب التصديق، إلا أننا في هذه المرحلة قد رأينا ما يكفي لنصدق أنَّ هذه هي الحقيقة. بل في الواقع، لا يمكن تفسير أيٍّ ممّا كان يجري لنا إلا بهذه الحقيقة.. مهما كانت سوداء.

نهضَ فيكتور من كرسيه، وقال: "سوف نحقق أكثر فيما يجري".

ماريا: "اسمعيني يا لوسيا، لا يمكن لكِ أن تعيشي في عقدة الذنب.. كل ما حصلَ كان خاطئاً منذ البداية، وكان خطأ والدكِ وأسلافكِ وأجدادكِ. أنتِ مجرد ضحية هنا، ولستِ المذنبة فيما حصل لسالي.. كلتاكما ضحيتان مسكينتان وقعتما في الطرف غير العادل من المعادلة، تحت رحمة مجانين مختلّين عقلياً يؤمنون بأمور سوداء حمقاء".

ظلتْ لوسيا تنظر إلى ماريا، ثم أومأت لها أنها توافق كلامها بالفعل، ولا أدري إن كانت اقتنعت حقيقةً بذلك أم لا؟.

أكملت ماريا: "اتركي الأمر لي ولفيكتور، سوف نبحث عن كل ما يمكننا إيجاده لنعرف الحقيقة.. ونوقف الأمر عند حدّه..".

قالا ذلك وخرجا، خطوتُهما التالية هي البحث من جديد في كل ما يعرفانه بخصوص بارادايس شيل.. هذه المرة وهما يعلمان الحقيقة التي أخفتْها هذه البلدة عن سكانها لفترة طويلة.

سألتني لوسيا: "هل كنتِ تعرفين.. بخصوص هذه الطقوس؟".

ما كنتُ لأكذب عليها أنا أيضاً... قلتُ: "أجل... لقد شاركتُ فيها قديماً... لهذا أنا لم أتزوج حتى الآن، لقد فقدتُ كل أفراد عائلتي فيها تدريجياً،.. ومنهم من هربَ وغادر، ولكنهم دائماً ما كانوا يعيدونهم ويقبضون عليهم... بينما بقيتُ أنا هنا لا أستطيع تناسي ذكريات الذين فقدتهم، أن أتركهم وأرحل. لم أتخيّل يوماً أن يتم تسليط الضوء عليكِ يا لوسيا... أو على سالي.. لقد ظننتُ أنَّ السيد بانكرافت لن يسمح بحدوث ذلك أبداً كونه سيد إحدى العوائل المؤسسة.. في الآونة الأخيرة لم

يعد هنالك الكثير من الأضحيات من طرفهم بفضل نفوذهم. كان الذين يدفعون الثمن هم الأشخاص العاديون.. ثمن لم أعد أدري ما نشتري به حتى.. أنا.. لا أدري ما أقول. أنا آسفة جداً".

و بدأتُ أنا أبكي، وهي تهدئني: "ليس هنالك ما تعتذرين بشأنه يا إزميرالدا... لستِ مذنبة في أي شيء... أنتِ بريئة مثلي... والدي هو المذنب الوحيد هنا.. ولقد نالَ ما يستحق أليس كذلك؟.. لقد أصيبَ بالجنون، وأصبح مثيراً للشفقة في أيامه الأخيرة، ومات من هول الذنب.. لقد فهمتُ أنَّ ماريا وفيكتور كانا يستشعران وجود قوة غامضة في منزلنا، وأنها اختفت تدريجياً بعد موت والدي... أنا أؤمن أنَّ سالي هي تلك القوى.. وأنها هي من انتقمت منه... لقد أخذتْ لنا بثأرنا".

أرعبَني كلامها وأحزنني، لم أضفْ شيئاً، فقط احتضنْتُها احتضاناً طويلاً.

مارجيت ستروم

بلغني أنَّ السيد بانكرافت قد توفيَ، وبعد حضور مأتمه وتعزية أفراد أسرته البعيدين وابنتهِ لوسيا، علمتُ أنه استدعاني اليوم. لن يكون ليتأخر أكثر. عندما دخلتُ مكتب شقيقي ألكساندر؛ وجدتُ السيد الراهب أوين مارشال يجلس إلى كرسي قبلي. رفعتُ حاجبيَّ، ولكن سرعان ما تداركتُ موقفي ورحبتُ بوجوده. نهضَ من كرسيه مظهراً احترامهُ لي، فتقدمتُ لأجلسَ في الكرسي المقابل لمكتب ألكاسندر، حيث يجلس كل من جانين وماركوس.

"أعتذرُ على تأخري". قلتُ وأنا أخرج الكلمات التي كانت ترفض ذلك، ممَّا جعلها تخرجُ وأحرفها متكورة على بعضها. لم أضفْ سبباً لهذا التأخر تاركة إياهم يقبلونه مثلما هو، الوقت الآن هو المساء بعد غروب الشمس.

قال ماركوس وهو يتزحزح في مكانه: "لا عليكِ يا عمتي، لم يفُتكِ شيء سوى سبب الإجتماع". لم أدرك إن كان ذلك استهزاءً، أم أنه يتحدثُ بجدية.

"يمكنني أن أخمّن أنَّ السبب هو وفاة اثنين من سادة العوائل المؤسسة لبارادايس شيل.. ولم يبقَ سوى عائلة لورينت". قلتُ ذلك، وأدركتُ أنا نفسي

حقيقة ما قلتهُ، فبدا لي الأمر مربكاً في حقيقته.

"بالضبط.. وفاة جيل كامل من سادة العوائل في وقت متقارب، هو أمر عجيب لم يحدث من قبل، بالأخص أنَّ الفارق الزمني ليس سوى ما يقارب الشهر أو يزيد عنه بالقليل". ردَّ ماركوس، مفسراً ما يجول في خاطر المجتمعين.

عمَّ الصمت بيننا، ثم سألتْ جانين بقلق: ".. وماذا يمكن أن يعني هذا يا سيد مارشال؟، أنتَ هو من يحمل الأسرار وتعرفُ تفسيرها. ألا تقولُ كتبكَ القديمة شيئاً يفسر ما يجري؟". التفتتْ جانين إلى أوين، وألقت عليه نظرة تجبرهُ على الخوض في هذا الأمر بسرعة لم يكن قد خططَ لها رجل الدين المنافق هذا.

كان وجه أليكساندر سيد عائلة لورينت الحالي، ورفيق جيل السيد آدامسون والسيد بانكرافت خالياً من التعابير، صارماً أكثر من عادته، يُخفي خوفه ببراعة، وقلقهُ باحتراف. لا يمكن لوم شقيقي، فما يحصل أمرٌ غريب.

قال مارشال: "لن أكذب، وأقول أنني أفهم ما يجري. كما قلتُ، لا أظن أنهُ تمَّ تسجيل حادثة مشابهة من قبل في تاريخ بارادايس شيل،.. سيكون عليَّ مراجعة الملفات القديمة، وقد بدأتُ بالفعل،

ومازالُ لم أوفّق في إيجاد وجه شبَه أو تفسير".

ردَّت جانين بانفعال: ".. أرجو أن تضع الأمر كأولوية لكَ يا سيد مارشال.. نحتاج لأن نفهم ما يجري هنا".

ماركوس بصوت مرتجف، يحاول تدارك الفتيل الذي يكاد يشتعل بين الجميع: ".. اهدئي يا أمي، أنا واثق أنَّ السيد مارشال يبذل ما بوسعه، لم يمضِ سوى يوم على وفاة السيد بانكرافت التي فاجأتْ وفجعت الجميع،.. متأكد أننا سنحصل على جواب قريب"

بلهجة مصطنعة ردَّ مارشال: "استمعي إلى كلام ابنكِ يا سيدة جانين، وآمني أنه على حق. لن أدّخر جهداً في محاولة اكتشاف ما يجري،.. فكل المؤشرات تدل على حدوث شيء بالفعل، فما يجري غير طبيعي. كلا السيدان آدامسون وبانكرافت أصيبا بحالة من الانهيار والجنون وفقدان السيطرة على الذات قبل وفاتهما المفاجئة. أنصحكَ يا سيد لورينت أن تحاول أن تبتعد عن الضغوط ومسببات التوتر في الفترة القادمة، حتى نجد فهماً لما يجري، وأرجو منكم كأفراد من العائلة أن تنتبهوا إلى صحة سيدكم، أعلمُ أنكم لن تتوانوا في الحرص على راحته".

لم تُطمئن كلماته أيَّ أحد من الموجودين في الغرفة، وبالتأكيد ليس أليكاساندر، الذي لم ينطق بكلمة واحدة منذ بدء الاجتماع في مكتبه،.. حتى نهضَ السيد مارشال وودَّعنا باحترام. وقبل أن يهمّ بالمغادرة، سألهُ: "لقد قابلتَ السيد بانكرافت في اليوم الذي توفيَ فيه؟ أليس هذا صحيحاً؟"

التفتَ إليه أوين مارشال، وأجاب: "بالفعل، حرصتُ على زيارته عندما سمعتُ أنه مريض، ولم تتحسن حالته نتيجة اختفاء إحدى فتياته".

قال ماركوس: "أجل، منذ أن تمّت التضحية بسالي "

جانين: "ولكن هو من اختارَ الفتاة للأضحية!".

أضافَ مارشال: "كما يبدو أنهُ اختارَ لوسيا للأضحية، وأخطأ الرجال وأخذوا ابنتهُ الأخرى، سالي، فهما توءمان كما تعلمون.. لهذا أصيبَ بانهيار نفسي. وقد يكون هذا هو السبب الوحيد لتراجع صحته ووفاته ولا شيء آخر.. في ذلك اليوم حدَّثني عن كل ما فعلناه سابقاً.. نتذكر الماضي.. والأضحيات المختلفة.. ظننتُ أن الحديث قد يعيد إليه توازنه.."

سألتْ جانين: "لقد دفعَ بحياة ابنتهِ دَينه وهذا كل ما يهمّ.. أيهمُّ جدياً من ماتت.. لوسيا كانت أم

سالي؟"

تدخَّل ألكسندر فجأة بنبرة باردة: "إن كان الخطأ في الأضحية له معنى فعلاً؛ هذا يعني حلول كارثة. شيءٌ آتٍ إلى هنا، ولا أعتقدُ بأنه سيتسنّى لنا التعرف عليه قبل أن يقضي علينا جميعاً. شيءٌ ما لا يمكن تخمينه سيغطي شمس هذه البلدة حتماً".

أومأ السيد أوين مارشال برأسه، وهو يقول: "لا أظنُّ أن خطأً كهذا قد حصلَ من قبل أيضاً، ولكني أتساءل إن كان سيكون له تأثيرٌ فعلاً؟.. فأرجو ألّا تقلق بخصوص هذا الأمر الآن، قبل أن أتحرى بشأنه يا سيد لورينت". وهمَّ بمغادرة المكتب وهو مضطرب، ولم ينفِ بنبرتهِ الكاذبة كلمات الكسندر.

طوال تلك الفترة، لم تفارق عيناي شقيقي أليكاسندر، وهو يكافح للظهور بمظهر الرجل القوي المتماسك.. بينما يمكنني سماع طرقات صوت قلبه المرتعب من مكاني.. نظرتُ إليه بكل برود.. لم أكن أعلمُ أنَّ لشقيقي سيد عائلة لورينت قلباً من الأساس... ولكن هذا يفسّر الكثير.. فقلبه لا ينبض سوى لنفسه فقط.

عندما خرجتُ من غرفة مكتب ألكساندر، ما كدتُ أصل إلى غرفتي حتى سمعتُ صوت بيتر يناديني. التفتُّ إليه فوجدتُ أنه قد أصبح قريباً مني أكثر مما

كان يبدو صوته بعيداً.. قال لي وهو يتلفّت حولي بصوت خفيض: "عمتي.. أيمكنني أن أحادثكِ في موضوع؟".

بقيتُ أنظر إليه بتساؤل، على الرغم من إيمائي بالموافقة. سرتُ معه إلى غرفة فيها بيانو، وأغلقَ الباب من خلفنا. بقيتُ واقفة ولم أجلس، حتى سحبَ هو يديَّ وأجلسني على الكرسي، وظلَّ هو واقفاً لوهلة، ثم جلسَ إلى الكرسي بجانبي، وبدأ حديثه بعد أن أخذ نفساً طويلاً ونظرَ إلى عينيَّ مباشرة: "عمتي.. أنا أريد أن أتزوج لوسيا".

لم أجدْ رداً أجيبهُ به، بقيتُ أنظر إليه بكل صدمة واستغراب!، وأسألُ نفسي: لمَ أنا هي من يتحدث معها بهذا الخصوص، وليست والدته جانين أو شقيقه أو والده؟ أكملَ كلامه: "أنا أعلم أنَّ الكل سيتحججون بكون الوقت غير مناسب؛ فهي قد فقدت والدها للتو، وبأنني ما أزالُ صغير السن ولم أكوّن نفسي بعد.. ولكن لوسيا.. لقد فقدت الجميع.. وماتزالُ سالي مختفية.. أنا أشعر أنَّ عليَّ أن أسندها،.. أن أجعلها تتأكد بأنني لن أذهب إلى أي مكان.. إنها تحتاجني أكثر من أي وقت مضى،.. لهذا كنتُ أفكر أن أعرض الأمر على والدي في عشاء الليلة، وكنتُ آمل أن تدعميني يا

عمتي".

"إنها محظوظة.. لوسيا.. لتفكيركَ بها لهذه الدرجة.. أنتَ فعلاً تحبها" قلتُ ولا أعلمُ إن كانت كلماتي هذه صادقة أم لا. أصبحت العبارات المبتذلة المشابهة لهذهِ تخرج من فمي من تلقاء نفسها.

ابتسمَ، وأومأ لي مؤكداً أنهُ يفعل هذا بحق.

ابتسمتُ له بدوري، أمسكتُ بيده وضغطتُ عليها وقلتُ: "ولكن الآن بالفعل هو وقت غير مناسب يا عزيزي، لقد فقدت الفتاة والدها للتو، وشقيقتها مختفية، ولم تظهر حتى مع جنازة والدها. لكَ أن تتخيل كمية القلق التي تعيشها الفتاة المسكينة، والتي بكل تأكيد ستؤثر على مشاعرها وحكمها على الأمور. لا يمكننا أن نظلمها بعرضنا لهذا الارتباط الأبدي بينكما بمحاصرتها في وقت كهذا، أنا ليس لديَّ شك أنها تحبكَ أيضاً، ولكن يجب أن نعطيها بعض الوقت لتحاولَ إعادة مياه حياتها إلى مجاريها، وتتخذ قراراً حكيماً لا تندم عليه مستقبلاً أو تندم أنتَ عليه... أرجو منكَ أن تتريث قليلاً يا عزيزي بيتر".

- "أ.. أظنُّ أنكِ محقة.. لم أفكر في ذلك".

- "لأنكَ تحبها بصدق ولا تريدها أن تقاسي

الوحدة... أنتَ تريدها أن تشعر أنكَ سند لها... كنْ ذلك بالضبط،.. دعها تستند إلى كتفكَ، حتى تعود إلى الوقوف على قدميها من جديد".

لم يتحدث. بل بدا مقتنعاً بكلامي،.. ثم ابتسمَ بنضج وقال: "فهمتُ. أشكركِ جداً يا عمتي. أنا مسرور لأنني تحدثتُ معكِ قبل أن أصنع من نفسي أحمقَ أمام البقية".

- "بل شكراً لكَ. صدقاً، شكراً لكَ".

- "أنا؟ لم أفعل شيئاً". رفعَ حاجبيه وأخفضهما، وهو يُبعد بصره عني بطريقة مباغتة.

- "لا بأس.. شكراً لك يا بيتر". أردتُ أن أبعثَ الاطمئنان في قلبه.

وبينما نهضْنا، بادرَ هو إلى عناقي فلم أردّه، بل عانقتهُ وأغمضتُ عيني أتخيل أنَّ من أعانقه هو ابني، ابنايَ اللذانِ فقدتُ لذة العيش معهُما،.. بفضل بيتر استطعتُ اختبار هذا الإحساس. غادرني وتركَ الغرفة، وعلمتُ أنني لن أستطيع أن أصارع دموعي حتى أصلَ إلى غرفتي،.. فأغلقتُ الباب من خلفه في غرفة البيانو، وهو يظنني قد خرجتُ منها بدوري، وجلستُ على الكرسي أتداركُ توازني حتى تجفَّ دموعي... زوجي.. وولداي الاثنان، لقد فقدتُ الكثير لأجل هذه البلدة.. الكثير لأجل عائلة

لورينت. كنتُ أحافظ على رباطة جأشي منذ اللحظة التي دخلتُ فيها إلى هذا المنزل، ولم أتوقع أنَّ ما سيكسرني هو رغبة ابن أخي بالزواج.

لوسيا بانكرافت

الأيام اللاحقة لانكشاف لغز مأساتي، كانت مؤلمة وبطيئة. وكأنَّ ناراً حارقة تستعر في صدري؛ فتغلي مشاعري وتفيض. تحاول دموعي إخماد اللهيب بلا فائدة، فقدتُ الكثير من وزني وطاقتي، كرهتُ أن أستيقظ في كل مرة لأكتشفَ بأنني مازلتُ في ذات النطاق الذي لم يعد كما ألفتهُ طوال حياتي، آثرتُ النوم، ولولا وجود إزميرالدا لما نهضتُ لأستحمَّ حتى.

أنظرُ إلى وجهي في المرآة، ولا أميّزني! كل ما أراه هو طبعة دماء الوحش الذي كان أبي في لون عينيَّ وتقاسيم وجهي. أصابُ بالغثيان كلما أتذكر ما فعلهُ، وأغرق باحثة عن السبب الذي قد يجعل والداً يكره ابنتهُ إلى هذه الدرجة؛ فيختارها بنفسه لتكون أضحية في طقس لعين. تهمسُ شياطيني أنها غلطتي، فلطالما كنتُ المتمردة التي تعارض كل قانون أصدرهُ. ترى إزميرالدا ذلك في عيني، وتذكّرني بالكلمات التي نطقتُها بنفسي منذ عدة ليال: هو ومَن سبقه المخطئون الوحيدون في هذه المعادلة، ولستُ إلا من يدفع الثمن.. كما دفعتهُ سالي من دون أي ذنب تقترفه.

اعتدتُ أن أصدّق تلك الكلمات، ولكنَّ إيماني

يضعف بها يوماً بعد يوم.

أحدّق في صورنا العائلية مطولاً، بعد أن سهرتُ الليل أقصُّ وجه والدي منها، لم تبقَ سوى صورنا أنا وسالي، والصور القليلة التي تحمل وجه أمي التي توفيت في صغرنا بسبب المرض، أو ربما أنهم قدّموها كأضحية! لم أعد أعرفُ شيئاً. احتضنتُ الصورة وهمستُ لسالي التي فيها: "أنا آسفة.. آسفة جداً".. كان يريدني أبي أن أكون مكانها.. ولكن لأنها حاولت إغواء بيتر فقد غضبتُ وغادرت البلدة، ولهذا عندما جاؤوا في محاولة للقبض عليَّ، وقعت توءمي التي تشبهني بين أيديهم، وماتت بدلاً عني.. لا أدري لمَ أنا أعتذر؟.. هل أستحقُّ أن أكون أنا الميتة؟ ألهذا أعتذر؟ أهذا ما أؤمنُ به؟.. قلتُ لها أيضاً: ".. لو كنتُ أعلم سوء هذا الذي يغلي في صدري الآن.. لكنتُ ذهبت إلى الموت بنفسي بأذرع مفتوحة..".

وبكيتُ تلك الليلة حتى ذهبتُ في النوم، وأنا أحتضنُ توءمي، أو وجهها المطابق لوجهي في تلك الصور.

لم أدركْ متى نمتُ، لكن حينما استعدتُ وعيي علمتُ أنني أحلم، لأنَّ سالي.. شقيقتي الميتة، كانت تجلس أمامي، بينما أنا مستلقية على عشب

غابة بيضاء تماماً. كانت سالي تعطيني ظهرها، بينما تضع نصف ساقيها في نهر يجري بالدماء، .. لونهُ أحمرُ قانٍ فقط يتوسط كل ذلك البياض.

رفعتُ نفسي من وضعيّة استلقائي، وثبتتُ ناظري على ظهرها أتأمل تسريحتها وكتفيها. لم أستطع النطق بأيّ شيء. فيما سبق كنتُ أناديها وأحاول الحديث معها كلما ظهرت لي، كنتُ أظن أنها خجلة مما فعلتْ مع بيتر ومن خيانتها لثقتي، هاربة من المنزل حتى تجد القدرة على التصالح مع ذاتها ثم معي. لكني الآن أعلمُ أنها ميتة، ميتة لأنها تشبهني، ميتة بينما كان يفترض أن تكون حية، لهذا لم يكن هنالك ما يمكنني أن أقوله. لقد أردتُها أن تعتذر لي لفترة طويلة، لكني الآن أجدُ نفسي أنطق تلك الكلمات بكل صدق: "أنا آسفة، سالي.. أنا آسفة، أنتِ ميتة.. بينما كان يفترض أن أكون أنا.. القاتل هو والدنا يا سالي. لقد أرادَ أن يضحّي بي لأجل طقوسه الغريبة.. بل طقوسهم جميعاً.. لكي يحبسوا شراً قديماً ما يعيش في هذه الأرض. لقد كان هذا في اليوم الذي كنتِ فيه مع بيتر يا سالي، وكانت الليلة التي غادرتُ فيها بارادايس شيل من شدة غضبي.. أرسلَ رجالهُ للبحث عني ولم يجدوني، وأخذوكِ ظناً منهم أنكِ أنا... ولقد... لقد قتلوكِ".

و انفجرت الدموع التي كافحتُ لإبقائها حبيسة. كنتُ أقول كل شيء بسرعة لأني ماأزالُ أعاني من تصديقهِ أيضاً. لم تُدر أختي وجهها لي،.. لكنها قالت وتحدثت وكأنها تفهمني أخيراً: "إذاً هذا ما جرى".

مدّتْ يدها إلى جدول المياه الدامي الذي يجري عند قدميها، واغترفتْ منه في يدها، ثم شربت تلك الدماء،.. بينما ظللتُ أبكي وأرددُ أنني آسفة،.. قالت لي: "لا بأس يا لوسيا.. أنا لا أمانع".

سالتُها بدهشة "ماذا تعنينَ بهذا؟.. أنتِ ميتة بسبب رجل مجنون سمَّى نفسه والدنا!".

"ليس والدي مَن قتلني".

"أحدُ أعوانه بكل تأكيد.. لو نظرَ إليكِ قبل أن تموتي؛ لكان عرفَ أنكِ لستِ أنا، ولن يقتلكِ بكل تأكيد".

"كلا.. ليسَ والدي من قتلني.. الدماء هي ما قتلتني". أثارَ ما قالته استغرابي! وجعلَ كل ماحولي يبدو ضبابياً أكثر ممَّا يجب على المنام أن يبدو عليه. غابَ العالم حولنا، ولم يبقَ سوى نهر الدماء ذاك.

"الدماء؟" سألتُها وصوتي بالكاد يخرج من

حنجرتي.

"لا تبالي... أنا الآن سعيدة". ماتزالُ تعطيني ظهرها، نبرتُها الحالمة المسترخية تصدمني.

"سعيدة؟"، أردتُ جرَّها وتنويرها بحقيقة رحيلها عني للأبد. أردتُ الصراخ فجأة.

اغترفتْ من مياه الجدول الدامي وشربت الدماء، ولم تتحدث. سألتُها: "لقد قابلتكِ من قبل، قلتِ أنَّ عليَّ إخراجكِ، أنّه عليَّ أن أنقذكِ أو أقتلكِ... ماذا عنيتِ بذلك يا سالي؟".

"أقلتُ شيئاً كهذا فعلاً؟". نطقت بضحكة صغيرة، تسللتْ بين كلماتها

- "أجل فعلتِ... أخبريني ما جرى معكِ يا أختي".

"أتشربين؟". ماتزالُ تعطيني ظهرها، لكنها أظهرت لي كفَّها الذي يضم دماءً من الجدول، وكأنها تقدمها لي في كوب.

لم أردّ عليها وبالطبع كنتُ سأرفض، لم تُنزل يدها التي تقطر منها الدماء، ولم تقل شيئاً بدورها حتى رفضتُ: "كلا.. لا أريد".

"لقد أخذتُ روحاً بلا جسد... ورابط هذه الروح معكِ قوي جداً".

همستُ لها بيأس: "سالي.. استديري ودعيني أرى وجهكِ، وكفّي عن هذا الكلام،... أنتِ روح عالقة كما قالت ماريا، أنتِ تحتاجين لأن نساعدكِ على العبور وإيجاد السلام، وهذا ما نفعله الآن. وسأبذل كل جهدي لذلك".

"آآه.. ماريا، لذيذة "قالت وهي تطلق زفير توق.

"لذيذة؟"

رأيتُها تُظهر لي إصبع ماريا الذي فقدتهُ، وتُغطسه في الدماء ثم تستخدمه للرسم على وجهها وكأنه أداة زينة. ثم التفتتْ إليَّ لأرى أنها كانت عديمة الملامح كما وصفت ماريا في حلمها، وقد رسمت لنفسها عينين مرعبتين بالدماء، وفماً دموياً مبتسماً. صرختُ بينما استدارتْ نحوي وأمسكتْ يدي بأقوى ما لديها، وسحبتني بقوة لنغطس إلى ذلك الجدول العميق.

نهضتُ وأنا أبحثُ عن أنفاسي، لم يكن هناك سواي في الغرفة وقد أشرقت الشمس، لم أرد البقاء في الغرفة بسبب الشعور الذي خلّفه ذلك الحلم فيَّ.. نزلتُ إلى الأسفل أبحثُ عن شيء لأشربه؛ فقد أحسستُ بضعف رهيب. مضت دقائق هدأتُ فيها، وسرعان ما غططتُ في النوم من شدة تعبي في الصالة السفلية.

أيقظتني إزميرالدا بعدها بخوف غامر، وهي تسأل: "هل أنتِ بخير يا لوسيا؟".

احتجتُ ثوانيَ حتى أجيبَها أنني كذلك، ثم أضفتُ: ".. لقد حلمتُ حلماً مزعجاً". رأيتُ في عينيها قلقاً، أخبرتُها: "لقد كانت سالي". تحولَ ذلك القلق إلى خوف شديد، وسرعان ما رأيتهُ يتغير إلى ذعر بينما أخبرها بمجريات حلمي. ولم يمضِ وقت طويل، حتى كنا نركب سيارتنا نحو مكتب فيكتور وماريا..

أخبرتُهما عن الحلم من جديد، وظلت إزميرالدا تسأل عن معناه وعمّا يجب علينا فعله، وما يجب علينا توقّعه في المستقبل بخصوص إيجاد جسد سالي ومنحها حقّ الدفن الذي يليق بها. وسألتْهما عن تقدّمهما في البحث وعمّا وجداه. تولّى فيكتور الحديث هذه المرة بالكامل، وأخبرنا أنهما قابلا كثيراً من الناس، واستجوباهما بخصوص طقوس غريبة أقيمت مؤخراً، ولكن لاحظا تحفظاً كبيراً فيما يخص هذه المسألة، مما يعني أن هنالك ما يحدث فعلاً ولا أحد يدري بشأنهِ، أو لا يريدون التحدث بشأنه. ولكنهما لم يستطيعا إمساك دليل واضح ومحدد، حتى إنهما تحدثا مع رجل سكير في إحدى الحانات، يحكي قصصاً مضطربة عن تاريخ

باراديس شيل. واستمعا إلى الكثير من القصص، ومنها ما يذكرُ شيئاً عن الطقوس ولكن لا دليل ملموس يقودنا إلى أيّ مكان. وتوصلنا جميعاً إلى الحل الوحيد الذي يبدو أنه يمكننا استعماله.

قلتُ: "ماريا، هنالك شيء يجب أن أخبركِ بهِ إن كنتِ ستعودين إلى داخل ذلك الحلم.. أنتِ لم تجدي إصبعكِ المقطوع أبداً أليس كذلك؟".

نظرت إليَّ، وأكدت بصمت بحركة من رأسها أنها لم تجده. "لقد قالت أنَّ طعمه لذيذ". خفضتُ بصري؛ لأتفادى توجيه رعبي إليهم.

سألتني إزميرالدا: "مَن؟"

"لقد استخدمتهُ لترسم الملامح على وجهها بالدماء"

كان هذا هو التفصيل الوحيد الذي تغافلتُ عن ذكره عندما حكيتُ لإزميرالدا الحلم أول مرة، ولكن بما أنني الآن أمام فيكتور وماريا توجَّب عليَّ أن أحكي كل شيء بالتفصيل. يحتاجان لأن يعرفا ذلك، وأيضاً لم أرد ذكر ذلك أبداً؛ لأنه أرعبني بحد ذاته وأصابني بالقشعريرة. تجنبتُ النظر إلى أعينهم القلقة. ما عدتُ أريد النظر إلى عيون مهما حملت لي من خير فإنَّ عقلي يفسرها بأنهم يلومونني، إني ألوم نفسي بما فيه الكفاية.

فيما تبقّى من اللقاء تجنبتُ التواصل البصري. خرجنا من دون أن نتخذ أيَّ قرار بشأن أي شيء، سوى أنَّ ماريا وفيكتور سيعاودان البحث والتقصي، ففي النهاية نحنُ نطلب من ماريا أن تخاطر بنفسها إن عادت إلى ذلك الحلم من جديد. وأنا لا أستطيع تحمّل دماء شخص آخر بسببي.

مارجيت ستروم

وقفتُ أمام باب مكتب شقيقي ألكساندر، نظرتُ إلى الباب من جميع جوانبه. يتمّ استدعائي بكثرة مؤخراً إلى هذا المكتب. طرقتُ الباب وسمعتُ صوته يسمح لي بالدخول، ففعلت. وجدتهُ يتنقل بغير هدوء وتوتر يميناً وشمالاً، وطلبَ مني أن أجلس. ومما أثار عجبي هو وجود الراهب أوين مارشال يجلس على أحد الكراسي. حيَّاني بإيماءة من رأسه. لم تكن لديَّ فكرة أنه جاء لزيارة ألكساندر هذا اليوم.

كانت قد مرت بضعة أيام على آخر لقاء جمعنا معاً في هذه الغرفة، حيث أبلغنا مارشال أنه سيتقصى أكثر عن تاريخ بارادايس شيل، وعن السبب الذي قد يجعل اثنيْنِ من سادة العوائل المؤسسة يفقدان حياتهما بعد القيام بالطقوس القديمة. وبما أنَّ أخي ألكساندر هو الوحيد الباقي كرئيس لعائلة لورينت المؤسسة لبارادايس شيل، فالتركيز كله ينصبُّ عليه الآن.. ورغم المراقبة المستمرة للبيئة المحيطة به، فإننا مانزالُ نراه يكافح للحفاظ على هدوئه، صابراً على تعليمات مارشال.. وهاهو مارشال هنا اليوم..

بدأ ألكساندر الحديث فوراً: "شقيقتي مارجيت، أنتِ تعرفين الوضع المؤسف الذي مررنا به مع وفاة

المؤسسيْن السابقيْن في وقت متقارب جداً، وإصابة كليهما بما يشابه فقدانهما للعقل. منذ اجتماعنا السابق والسيد مارشال يبحث في تاريخ بلدتنا عن حادثة مشابهة أو تفسير لما يجري".

نظرتُ نحو مارشال، هذا الرجل الذي لم يكن سوى متحدث باسم الناس بيننا وبينهم، أصبح بطريقة ما، الراهب التي تسير كلمته على الجميع كما لو أنها أمر مقدس لا نقوى على رفضه. أصبح هو من يبحث في التاريخ مع أنه بالكاد يعرف القراءة أو الكتابة.

أجبتُ: "أرجو أن يكون قد وجدَ حلاً، أو أن يكون كل ما يحصل صدفة غريبة ليس أكثر". أصبحتُ أجيد لعبة الكذب، كما يجيدها سكان هذه البلدة القتلة، ويمكنني أن أدَّعي عدم وضوح الأشياء، بالرغم من أنني جزء من دوران هذه العجلة.

"بل وجدَ ما هو أكثر، لقد وجدَ السبب". لمعتْ عيناه ببريق شرير أعرفهُ تمام المعرفة. "إنني أشتبهُ بوجود تلاعب في طقوس الطقس الأخير، لستُ أعلم ما هوَ بالضبط حتى الآن". خيّلَ إليَّ بأن طيف ابتسامة أنانية كاد يولد على طرف شفتيه.

"يا إلهي"! أعربتُ فجأة عن شعوري، ثم سألتُ: "وماذا يعني هذا؟"

"في أسوأ الحالات قد نضطر إلى تنفيذ طقس آخر". قال مارشال ملقياً قنبلته الصغيرة عليَّ بهدوء.

"بهذه السرعة؟ كيف سنفسر ذلك للناس؟، إنهم يتوقعون العيش بأمان الآن لعدة سنوات على الأقل، أليس من الأفضل أن نتريث؟"

ردَّ عليَّ مفسراً: "الطقس الآخر هو آخر حلّ لنا، أنا أتفق معكِ تماماً يا سيدة مارجيت، لا أؤيد إقامة طقس بهذه السرعة؛ وإلا فقدنا ثقة الناس في العوائل المؤسسة، يجب أن ننتظر على الأقل حتى تستقر أمور عائلة بانكرافت، وهذا ما أخبرتُ به السيد ألكساندر".

"ولكنكَ مصرّ يا ألكساندر أنَّ هنالك شيئاً ما خطأً؟ على الرغم من أننا حريصون على صحتكَ النفسية؟ عليكَ أن تتمالك نفسك وتطمئن. أنا متأكدة أنَّ ما حدث للسادة الآخرين ليسَ سوى صدفة، كما أنهما أكبر منكَ عمراً، لكل ذلك عوامل!".

"ولهذا السبب بالذات استدعيتكِ للتحدث". اقتربَ مني وجلس إلى جانبي، تمكنتُ من رؤية السواد تحت عينيه، وكمية الرهبة التي كان يعانيها ويقاسيها، قال: "لقد مضى على حالتي هذه أسبوعين، إنني لا أتحسن مهما فعلتُ، إنما يزداد

الوضع سوءاً، إنَّ هنالك أمراً ما خاطئاً، وعلينا التحرك بسرعة كيلا أقع ضحية لأيّ شيء كان قد حررناه في الطقوس الأخيرة". كان يتحدث بخوف سكّين ستنغرز في أعماقه، لا يريد الاستسلام وإظهارهُ بوضوح.. هذا هو أخي.

"إننا نؤمنُ بأنَّ الشر الذي في هذه الأرض قد تمَّ تحريره". قال السيد مارشال.

"يا إلهي! ولكننا قد قمنا بالطقس على أتمّ وأكمل وجه! كيف يمكنكما أن تقررا أمراً كهذا؟".

ردَّ عليَّ: "نسبة الوفيات تزداد بين عامة الشعب، الجو العام، الحوادث والسرقات، وموت اثنين من أهم رجال بارادايس شيل في غضون شهر واحد،.. كل هذه أدلة وعلامات لا يمكننا تجاهلنا، ومنذ موت السيد بانكرافت، والسيد الكساندر في حالة نفسية متدهورة.. لا يمكن أن يكون هذا طبيعياً، لابدَّ أنهُ الشر... لقد كان موجوداً طوال تلك السنين". لم أكد أصدق عينيَّ وأنا أرى هذين الرجلين بتلك الحالة.

"أريدُ يا أختي أن أعلم أنكِ معي إلى النهاية، أريدُ أن أعتذر لكِ بشأن زوجكِ وولدكِ ديلان. لقد فقدتِ عائلة ستروم. أريدُ أن أخبركِ أنَّ الشر موجود، ولتفرحي لأن تضحياتهم لم تذهب هباءً. إنَّ ما حدث

في التضحية الأخيرة كان خطأ، وإن كانت ستتزعزع صورتنا قليلاً بين العامة، إلا أنه حدث بكل الأحوال، ولا بدَّ من إصلاحه. وإلا سنكون هالكين جميعاً، ولن ننتفع بثقة أحد أبداً".

سادت لحظة صمت قصيرة، ثم قلتُ: "لطالما آمنتُ بذلك يا ألكساندر... هذا ما جعلني قوية". ردَّ صوت في داخلي: هل أنتِ جادة فيما تقولين؟ هل هذا حقيقي؟ أيظنُّ فعلاً أنَّ أمَّاً يمكنها أن تفقد عائلتها، لا تؤمنُ بوجود الشر لكي تصمد؟

كانَ ألكساندر يصاب بالجنون أمامي، لقد كان فرحاً جداً لاكتشافهِ وجود هذا الشر أخيراً. قال: "كل هؤلاء.. أقصد من ماتوا تحت يدي، أخيراً..أخيراً... لقد ماتوا فعلاً لإبقاء الشر محبوساً، لم يكن أمراً عبثياً".

مَن سيسمع هذا الآن؛ سيظن أنهُ أصيب بالجنون. استغلّيتُ الفرصة وعلمتُ منه: "إذاً كنتَ لا تصدق بوجود الشر طوال هذه السنين التي كنتَ تأمر فيها بإقامة الطقوس.."

قاطعني: "أجل، لم أكن أؤمن بوجود قصص خرافية كوجود شر في هذه الأرض! نحن نعيش فيها منذ عشرات السنين ولم يحصل شيء، لقد كانت تلك مسوغات بائسة لأجل أن يضحوا بأضحية بشرية،

لجلب الحظ السعيد".

كتمتُ الأذيّة في قلبي، لقد قتلَ شقيقي عشرات الأشخاص خوفاً على مركزه فقط! قال: "سرعان ما أصبحتْ تلك عادات لا يمكن التخلي عنها، لا يمكن أن نقتل شاباً، ثم حينما يصبح الدور دور أهله، نقول لهم أننا ما عدنا نقوم بالطقس بعد الآن.. سيسألون ماذا عن ولدي الذي قتلتموه، لمَ لم تتوقفوا عن الطقس قبلاً؟".

ردَّ مارشال: "كنا نقوم بالطقوس للحفاظ على الأمان والعدل بينهم، كنا نفعل ما نفعله لكي يسكتَ الناس عنا فقط.. ليس لأجل أيّ شر أو أرواح كامنة، مهمَّتنا هي أن نتقيد بمجلد حقن الدماء، الذي يحوي أسماء كل من سفكت دماؤهم في الحرب الأهلية الطاحنة، نحقق لهم العدل أخيراً، ونمنع اندلاع الجنون من جديد "

- "لم أعد أحتمل يا مارشال، لا يمكنني أن أسمح لنفسي بالسقوط هنا.. علينا أن نتصرف الآن،.. سنقيم طقساً جديداً".

ردَّ فجأة، وكأنَّ الفكرة كانت جاهزة في رأسه: "نحتاج إلى اثنيْنِ آخريْنِ؛ ليكتمل عدد الواقفين على النجمة".

"سأتحدثُ مع جيريمي بن آدامسون.. وأحد أعمام

لوسيا، إخوة السيد بانكرافت". أخبرهُ ألكساندر

فردَّ مارشال عليه: "فهمتُ.. دعني أبحث في المجلد؛ لأرى من أية عائلة ستكون أضحيتنا التالية".

قال ألكساندر فجأة بنفَس واحد: "كلا، لقد حددتُ الأضحية سابقاً. بما أن الشر يستيقظ وهو في داخل عقلي ويمتص مني روحي، فنحن نحتاج إلى دماء نقية صحيحة لنكتُمه ونقضي عليه.. نحتاج إلى دماء شخص من العوائل المؤسسة". ظللنا صامتين في لحظات ترقب ثقيلة. قال: "لوسيا.. لقد فقدت الفتاة كل شيء، أمها منذ الصغر، أختها، والدها. لتكن هي الضحية ولتلتقِ بهم جميعاً أخيراً".

نظرتُ إليه بحقد، لكني لم أتحدث. أكَّد له مارشال أنه سيفعل. هذه هي أفكار أخي الشريرة التي تخرج كالسيل من تحت هذا الوجه الجليدي الشاحب. لم أخبره أنَّ ابنه يحب لوسيا، إنه يعلم ذلك، ومع ذلك اختارها. هذا يعني أنَّ بقاء الفتاة في بارادايس شيل سيكون خطراً عليها مهما كانت الأسباب التي قد نقترحها على ألكساندر ليعدلَ عن رأيه. لقد اتَّخذ قراره وانتهى الأمر.

وأنا أيضاً اتخذتُ قراري.. منذ زمن بعيد جداً.. ولن يغيره شيء الآن.

فيكتور

فركتُ جبيني أحاولُ التخفيف من صداع رأسي، كنتُ أراجع أوراقاً للمرة المائة، مخطوطات قديمة استطعتُ التسلل إلى مكتب فرانز ومقر عمله وانتشالها من هناك. أحاولُ أن أجدَ فيها خيوطاً للقصص الخفية على أرض بارادايس شيل، محاولاً أن أصل إلى الحقيقة،.. بينما كانت ماريا تجلس في جلسة تأملية في غرفتها،.. طريقة تستخدمها لتحاول أن تستكشف الجانب الروحي من أية قضية تواجهنا. إنها أضعف من طريقة الحلم الذي خاضت أحداثه، ولكنها ستفي بالغرض إن أعطتْها رؤية أو ما شابه يمكنها أن تقود أقدامنا إلى الخطوة التالية التي نجهلها تماماً.

سمعتُ طرقاً على الباب وتوجهتُ إليه، ناوياً أن أعتذر فوراً إن كان الزائر زبوناً جديداً. فتحتُ الباب لأجد أمامي رجلاً يرتدي معطفاً ويمسك في يده زجاجة شراب، وإن كنتُ لم أميزه شكلاً، فقد تذكرتُ رائحته فوراً. المحقق السابق تيموثي بارنز الذي قابلناه أنا وماريا في إحدى الليالي في الحانة، بعدما علمنا أنه يسرد قصصاً قديمة وغريبة حدثت في بارادايس شيل.

لم يكن لقاؤنا الأول معه مثمراً. كان مجرد رجل لم

يستطع المضي في حياته بعد الجرائم الكثيرة التي لم يستطع حلها، أو لم يستطع غيره حلها في بلدة بارادايس شيل، وانهارَ بشكل رسمي عندما تمَّ اتّهام رفيقه في العمل بارتكاب جرائم بدوره. لم يستطع تيموثي بارنز تبرئته، وانتهى المطاف بزميله منتحراً في زنزانته. تساءلتُ ما الذي يفعله هذا الرجل أمام مكتبي؟

قال دون أيّ توضيح، وكأنه يتوقع مني الانصياع له: "إن تحركنا الآن؛ سيكون هنالك فرصة لإنقاذ الفتاة".

"عن أيّة فتاة تتحدث؟" باغتتني كلماته فعلاً

"تلك.. الباقية الوحيدة. شقيقة التي ماتت".

حاولتُ استجماع المعطيات بلحظات قصيرة، وفككتُ شيفرة هذا اللغز القصير. "أتعني لوسيا بانكرافت؟".

"أجل.. بانكرافت". ردَّ وأزاحَ نظراته عني، وأخفى كل تعبير عن وجهه.

بقيتُ أنظر إليه بكل تساؤل، وسرعان ما تحوّل صبري إلى غضب وطالبتُهُ بنبرة عصبية أن يتحدث بجدية وبوضوح. شربَ من زجاجته وقال: "لقد اختاروها أضحية جديدة لهم. كنتُ سأهرّبها بنفسي،

ولكن سيكون الوضع حرجاً والوقتُ ضيقاً بالنسبة لي.. أحتاج مساعدتكما".

" أتتحدثُ عن طقس التضحية الذي يقام في بارادايس شيل؟ في آخر مرة تحدثنا معكَ لم تقلْ ما ذكرتهُ، وأنكرتَ معرفتك بأيّ أمر كهذا". بدأتْ ألغاز هذه الأرض الدفينة تظهر أخيراً.

"توقفْ عن إضاعة المزيد من الوقت. علينا أن نتحرك". حدّثني على عجل.

ونزلَ سابقاً إيّاي نحو سيارته، أسرعتُ منادياً ماريا، ولكنها فاجأتني أنها هي من ناولتني معطفي، وكانت جاهزة للخروج! يبدو أنَّ جلستها التأملية أظهرت لها قدوم تيموثي بارنز. شرحتُ لها كل شيء بسرعة،.. وفي غضون دقائق كنا في سيارة يقودها هذا الرجل الذي لا ينفك يتجرع من زجاجة شرابه. شرحَ لنا دون أن نسأله: "لقد علموا أنَّ هنالك خطأً جسيماً في طقس التضحية الذي سبق، وأن موت اثنين من العوائل المؤسسة بصورة مفاجئة وغامضة لم يكن صدفة. سيد لورينت مقتنع الآن بوجود الشر القديم،.. وينوي إخماده قبل أن يسلبه روحه،.. بأن يسقيه دماء لوسيا، ماسحاً بذلك أية غلطة كانت ولابد قد حدثت في الطقس السابق".

" كيف تعلم كل هذا؟". سألتهُ أنا

اغتنمتْ ماريا لحظة التساؤلات، وطرحت بدورها سؤالها الغاضب: "ولمَ علينا تصديقكَ؟".

ردَّ دون أن يلتفت إلينا: "لديَّ مصادري التي لا تخطئ أبداً، وإن لم نتحرك الآن ونبعد لوسيا.. سيصلون إليها قبلنا". طريقة حديثهِ المباشرة، وطريقة إدارته لمقود السيارة بكل براعة دون أن يخفف من سرعتها؛ صرَّحتْ وكشفتْ طبيعة مهنته القديمة في سلك الشرطة.

"إن كانت بارادايس شيل كلها متورطة فيما تقوله.. أين يمكننا أن نهرب بها؟". سألته ماريا بريبة على الرغم من أنها شاهدتهُ في رؤياها.

"إلى مكان لن يتوقعوه أبداً.. المكان الذي سيأخذونها إليه في المقام الأول".

"كيف تتوقعنا أن نثقَ بك؟". أعادت طرح سؤالها بصيغة أخرى.

"اسمعا". أبطأ من سرعة السيارة، ليتمكن من النظر إلى عيوننا بالتتابع: "لقد خططنا لهذا لفترة طويلة.. ولن نسمح لهم بتدميره الآن.. سيضيع صبر السنين". استأنفَ سرعة قيادته من جديد.

"من هو شريككَ؟". طرحت ماريا السؤال. كانت تجيد دور المحقق الصارم، وتبرعُ في جعل الآخرين

لا يرفضون الإجابة على سؤالها.

"مارجيت ستروم، شقيقة ألكساندر لورينت".

احتجْنا ثوانيَ لكي نستوعب تلك المعلومة! علمَ تيموثي بارنز أنها الطريقة الوحيدة لكي نثق به على الرغم من أننا كنا في سيارته، لكن ما كان هذا ليضمن له أننا سنتعاون معه ونُخرج لوسيا معه، ونذهب إلى المكان المجهول الذي يريدنا أن نذهب إليه. لهذا أخبرنا بقصة مارجيت ستروم كاملة، الرأس المدبر لهذه الخطة كاملة، والتي كما قال.. عَمِلا عليها لسنوات.

مارجيت ستروم

لم يوافق أخي الكسندر على زواجي بالرجل الذي أحببته، فكما يحبّ أن يتحدث دوماً عن الدماء، دماء العوائل المؤسسة لبارادايس شيل النبيلة، كان اعتراضهُ قائماً على ما يتبجح به دون توقف. لا يمكن لدماء عائلة لورينت أن تندمج مع دماء أقل منها قيمة، كدماء عائلة ستروم الأقل مستوى. الحب الذي جمعني مع الرجل كان صادقاً. كنت مستعدة للانقلاب ضد العالم أجمع فقط لكي أكون معه، ولكنني لم أحتج لفعل ذلك، فلقد أيَّد والدي زواجنا، وكذلك والدتي.. فما كان من أخي إلا أن رضخَ لقرارهما، وحظيتُ أنا بالسعادة التي أستحقها..على الرغم من الشرخ الذي بدأ يجعل علاقتنا تتصدع أنا وألكساندر. لكن هذا لم يعنِ أنهُ لم يقف إلى جانبي يوم زفافي... لقد تمنى لي الحياة الطيبة. احتضنني كأخته الصغيرة التي كنتُها. كانت غيرتهُ تعميه في بادئ الأمر، ولكنه عندما أدركَ أنه يساوم على سعادتي، رضخَ. على الأقل هذا ما أظنّ أنَّ أمي اخترعته لإصلاح ما تبقّى من علاقتنا.

بعد حياة زوجية هانئة وسعيدة، رزقتُ بطفلي الأول ديلان، من ثم أتبعتهُ بنور حياتي الآخر رايان.

حياتي الهانئة التي أحببتُ كل تفاصيلها وعشقتُ استقرارها... لم أدرك كم كانت ستتغير عندما فقدتُ أمي بسبب مرض تأصَّل في جسدها لفترة طويلة. لم تمضِ أشهر حتى فقدتُ والدي الذي توفي حزناً على أمي. وبهذا فقدتُ سنديَّ الأخيرين، ولم أدرك وقتها أنهما كانا قفليْن يقفلان سجناً يضمُّ وحشاً على هيئة بشر.

لقد كانا يُؤويان الشر بذاته.

بعد سنين من استلام أخي لزمام عائلة لورينت، إحدى العوائل المؤسسة لبارادايس شيل، تمَّ إعلان زوجي ضحية للطقس القادم... فتوقفَ العالم عن الدوران بنا. انتهتْ هنا السعادة التي عرفتُها طوال حياتي. لم يكن هذا قراراً يمكنني أن أعترض عليه، ولكن كان يمكنني بلا شك إقناع أخي بالتلاعب وباستخدام وساطة ما؛ لمنع موت زوجي. لقد شاهدتهُ يفعل ذلك طوال الوقت إن عقدَ معه أحدهم صفقة ما.. ولكنَّ رجائي كان بلا جدوى.... كسرَ كل أمل لي عندما أخبرني أنه قد فعل.. ولمرات عديدة من قبل، صحيح أنه تمَّ استدعاؤنا عدة مرات، وأخبرونا أن زوجي وقع الضوء عليه،.. وعندما نرجو ألكاسندر فهو يغيّر الاسم بالفعل، ويقع الاختيار هنالك على ضحية أخرى ليست منا..

ولكن هذه المرة قال أنَّ الأتباع سيبدؤون بالشك.. لم يعد باستطاعته التغطية على الموضوع أكثر من ذلك.. ماضي عوائلنا يطلبهُ،.. الدماء التي سفكت منذ مئات السنين تطالب به... إنه دورهُ الآن، ولا مفرَّ لعائلة ستروم، فهم مَن اختاروه بعد تدارس دمائهم معاً. لم أكد أصدق أنَّ هذا يحدث لي... كيف كنتُ سأكمل حياتي مع فقدان زوجي؟ وطفلاي سيربيانِ بلا أب!. قررتُ أن نغادر هذه البلدة السوداء المشؤومة، حتى لو حلت علينا آلاف اللعنات.

عندما دخلوا إلى منزلنا رجالاً كثيرين برفقة مارشال وألكساندر، سقط قلبي بين قدميَّ؛ فلقد عرفتُ أنهم لن يسمحوا لنا بذلك. وقع الاختيار على زوجي بسبب سجلات الدماء القديمة، والتي آن أوان دفع ثمنها. قبضوا عليه وجرّوه خلفهم. لم أصدق أني كنتُ سأخسر زوجي هذه الليلة.. ماذا كنتُ سأقول لولديَّ؟ لقد وقفتُ في طقوس كثيرين من قبله.. لم أذرف دمعة واحدة. أهذا عقابي على موت أحاسيسي، وعدم إحساسي بأي ألم أو تعاطف تجاه أولئكَ الضحايا الذين تمَّ اختيارهم؟ والتضحية بهم كأكباش فداء لنعيش نحن سكان البلدة حياة هانئة؟. لم أفكر أبداً بالأمر من قبل... واعتراني الرعب وأنا أسقط أرضاً، قدماي ترفضان حملي. لم

أكن أرى زوجي ككبش فداء كما أصبح جميع الناس يرونه الآن، كنتُ ما أزالُ أراه زوجي.. حبيبي... رجلي... والد ابنيَّ.

قاومتُ وحاربتُ.. ضربتُ وآذيتُ.. عضضتُ، خمشتُ... لقد فعلتُ كل شيء، لكنهم منعوني من الوصول إليه. آلاف الأيادي تثبّتني، لم أهدأ إلا عندما سمحوا لي بلقاء أخير... ناشدتهُ أن نهرب، وأنا أعلم أنَّ مئات الرجال يقفونَ خلفنا، ولن يسمحوا بذلك.. كلماته هي التي بثَّتْ فيَّ الشجاعة والصلابة، لقد قال بأنَّ هذه هي الحياة، وهذا هو الثأر الذي يجب دفع ثمنه بالدماء.

لقد ذهبَ معهم بكل شجاعة.. لأنهُ يعلم أنني سأظل قوية لأجلِ ولديْنا.. فقدتُ زوجي في تلك الطقوس... أرغمتُ نفسي على التصديق أنني فقدتهُ، لأجل شر قديم يختبئ في باطن الأرض. يطفو أحياناً فنهرع لإسكاته بالدماء... فقدتُ زوجي لأجل شر يعيش بيننا... شر ينظر إلينا بعينين خاليتين من الرحمة... شر يغرز السكين في قلوبنا دون لحظة تردد.

كان هنالكَ نوعان من الشر: شر كامن، خفيّ لا نراه. وشر يسكن في داخل كل من قابلتهُ وعشتُ معه يوماً في بارادايس شيل. لقد كانت بارادايس

شيل هي الشر بحد ذاته. لقد كانت تحتوي شراً في الماضي، ذلك النوع الذي يجثم على الصدر.. افتُعلتْ فيها كل المساوئ. انتشرَ القتل والظلم والعنصرية.. وقامت حرب أهلية مرعبة. لم تخمد إلا عندما انضمَّ المستعمرون إلى قائمة الأضحيات التي كان السكان الأصليون يقومون بها،.. كلما شعروا بذبذبات الشر.. هرعوا لإسكاته بإرواء ظمئه بالدماء..

يقعُ الاختيار على شخص، يتحول في لمح البصر من بشر إلى أضحية. لن يعود هنالك من يرى قيمة فيه كبشري.. بل كل ما يرونه هو وسيلة لإخماد الشر... بالنسبة للسكان الأصليين فقد بدأ الطقس هكذا.. أضحيات نبيلة. يضحي الرجال بأنفسهم لتعيش عوائلهم بسلام. .تضحي النساء لأجل أبنائهنَّ... لتحميهنَّ من براثن الشر المحيطة بهم. ومع تزايد السنين ومرورها، وبعد قيام الحرب الأهلية مع المستعمرين، وعدد الموتى الكبير ولإرضاء كلا الطرفين، ولنشر الصلح والسلام بينهما.. أصبحَ الأمر روتينياً... لقد نسيَ الناس الهدف من تلك الأضحيات القديمة التي آمن السكان الأصليون أنها تمنع عنهم الشر. أمّا بالنسبة للمستعمرين فأصبحَ عنوانها هو: حقنٌ للدماء التي سفكت في الحرب الأهلية بغير وجه

حق. بالكاد يذكر أحد الهدف القديم بعد الآن. نسوا معناه بعدما عاشوا في رغد السلام والنعيم والهدوء لسنين طويلة. أصبحوا يقتلون بعضهم بعضاً حقداً وحنقاً. فلمَ تغرز يا جاري السكين في صدر ابني بكل بساطة؟، بينما تعترض عندما يفعل جاري نفس الفعل في ابنتكَ، وتطالب بالعفو عنها؟ لمَ تستحق ابنتكَ العفو.. بينما أحرمُ أنا من ابني؟

لمَ يموتُ من أحبُّ... وينجو من تحبُّ؟

هكذا تعكَّر كل شيء.. وأصبحَ عدد موتانا يزداد وفقاً لجدول لعين يتوارثه أوين مارشال عن أجداده.

بعد موت زوجي أصبحتُ أرى كل شيء حولي بألوان جديدة. لكن لأكونَ صادقة.. لم تكن ضربة لم أتوقعها.. في باطن عقلي كنتُ أعلم أنها ستحدث. لم أتوقعها هكذا سريعاً فحسب.. حتى زوجي كان يعلم أنها قادمة. لسببٍ ما ظنّنا أننا مترفعون عن القانون؛ لأنني كنتُ من العوائل المؤسسة المكرّمة في بارادايس شيل.. لكن ذلك لم يفلح.. لقد شعرتُ بصدمة غامرة، طلبتُ من ألكساندر أن يعدني أن يحمي أبنائي من هذا المصير... فأكّد لي يومها أنه سيفعل ما بوسعه ليحمي دمائي.. دماء عائلة لورينت.

لقد ظننتُ أن أوراق الثأر القديمة الموجودة في

حوزة عائلة مارشال قد تمَّ إتلافها؛ لضمان ألَّا تلحق بعائلتي أية شرور،.. لقد أتلفَها والدي أمام عينيَّ بعد أن استخدمَ نفوذه ليحصل عليها،.. ولكن ما لم أتخيّله أو أتوقعه أنَّ ألكساندر في وسط غضبه عليّ في بدايات رغبتي في الزواج، احتفظَ بنسخة منها،.. وأعادها إلى مكانها وكأنها لم تُفقد قط،.. ولهذا عندما جاء أوين مارشال ليتفقّد مَن سيقع الدور عليه هذه المرة لتتمَّ التضحية به انتقاماً للدماء المسفوكة، وكذلك لإطفاء ظمأ الشر،.. فإنه وجدَ اسم زوجي... هذا أمر لم أكتشفهُ إلا مؤخراً أثناء انهيار ألكساندر.. وهو ما جعلني أدركُ أنني على الطريق الصحيح، وأنني يجب أن أفعل ما عزمتُ عليه مهما كلف الثمن..

بعدها بسنوات، تفاقمَ مرض ابني الأكبر ديلان... ووصل إلى مرحلة متعبة كان يعيش فيها على الأدوية وبالكاد يتحسن،... ظلَّ يعاني لسنتين متتاليتيْن... يضعف يوماً بعد يوم.. حتى تمَّ إعلان وفاته دماغياً بسبب قلبه وجسده الضعيفين.. كان يُخبرني من قبل أنه يريد الذهاب إلى جوار والده؛ فلقد كان متعلقاً به كثيراً،.. لذا عندما تمَّ إعلان وفاته الدماغية.. جاءني ألكساندر ومارشال ليقنعاني أن أجعلَ روحه تخلد كبطل لأجل بارادايس شيل،.. أن أهبَها لها،.. كان الممرضون

في المشفى وأقاربهُ،... يقولون له ذلك،.. حتى أصبحتْ تلك وصيتهُ.. وتوجَّب عليَّ أن أحققها له، حتى وإن كانت تمزقني

قدمتُ ابني ذا الخمسةَ عشرَ عاماً الميت دماغياً، أضحية لطقوس بارادايس شيل القذرة... لقد سبقني إلى جانب والده..

إن كنتُ حافظتُ على بعض صلابتي بعد موت زوجي.. فقد فقدتُ كل ذلك بعد موت ولدي الأكبر... أصبحتُ أرى الدنيا بلا ألوان.. كان لوني الوحيد وبقية روحي في رايان..

وما عدتُ لأؤمّنَ أحداً عليها.. كنتُ سأحاربُ للحفاظ عليها ما حييتُ، ومهما كلفني الأمر،.. حتى إن كان مصير كل روح في بارادايس شيل على المحك!

حبكتُ خطتي.. وواثقةً بأقرب أصدقاء زوجي... نفّذتُها..

لم يكن تيموثي بارنز من مواليد بارادايس شيل،.. لقد انتقلَ إليها.. ولهذا لم يكن له الأحقية أو يحقُّ له أن يعرف خفاياها، بالأخص أنَّ موضوع الطقوس ما كان ليمر على العالم مرور الكرام، إن تحدثَ أحد فيه معترضاً كانوا يجدون طريقة لإسكاته. لكنَّ عملية التضحية خفّتْ كثيراً مع بدء التطور والأنظمة

الحديثة؛ ربما خوفاً من الرقابة.. لكن دوماً عندما تصبح الأحوال صعبة قليلا، يقتلون أحداً في تلك الطقوس فيرتوي الشر، وتخفُّ هالاتهِ الخانقة والقاتلة في المكان، فيتطهر الهواء في باراديايس شيل.

بالنسبة إلى تيموثي، فقد كان يحقق هو وزميلهُ في ملفات الأشخاص المختفينَ من العاصمة،.. وعندما شكا من وجود شيء مريب.. فقد قررا التموضع والبقاء والتمركز في باراديايس شيل. علّهما يكتشفان ما يجري.. ولكن مضت سنين دون فائدة..

تحوّل الطقس الذي يعرفه الجميع إلى تقاليد لا يعرفها سوى الكبار،.. واللحظة التي ينقلون فيها علومهم المظلمة إلى الجيل الحديث، تكون هي ذاتها اللحظة التي يضعون فيها سكيناً في يدِ أحد أفراد هذا الجيل، ويطالبونه ويحثّونه على قتل أحد ما.. يدمّرون قواه العقلية،.. ويضمّونه قاتلاً إليهم، دون أن يملك أدنى فرصة للمقاومة..

يراقبونهُ على مدى شهور؛ ليتأكدوا أنه لن يذهب ويتحدث فيما لا يعنيه مع أشخاص آخرين.. وبهذا يضمنون بقاء عملهم وطقوسهم كما هي!

علمتُ أنهم شبكة لا يمكن التغلب عليها

بسهولة.. وإن كان ابني رايان سيظل بخير؛ لأنه يحمل دماء لورينت التي يحبها ألكساندر ولن يضحي بقطرة منها أبداً.. فيتوجَّبُ عليَّ أن أتدخل مهما كلفَ الأمر.. وهذا ما فعلتهُ.. وهذا ما حبكتهُ..

تعاونتُ مع صديق زوجي المقرب، المفتش تيموثي بارنز، تقرَّ رَ أن تتم خطّتُنا في ليلة عاصفة وماطرة، أخرجُ فيها مع ابني رايان، أسلّمه لتيموثي بارنز نائماً ونخبّئه جيداً،.. يهربُ به تيموثي بارنز خارج بارادايس شيل، وأبقى أنا فيها لأحبكَ خطتي التي صدّقها الجميع،.. أصرخُ قائلة أنَّ فلذة كبدي سقط في النهر، وأناجي الناس للمساعدة ولإنقاذه.أمثّل دور الأم المحطمة لفقدانها كل عائلتها لسنوات، بينما ابني يسكن في الخارج آمناً سالماً منهم بعد أن صدقوا جميعاً موته.. أقابلهُ عندما أطمئنُّ أن لا أحد يراقبُ تحركاتي، فهو بعد أن خرجَ من بارادايس شيل يعيش مع عائلة بعيدة يثقُ بها تيموثي. أزوّدهم بالمال لكي يحرصوا على أن يعيشَ حياة هانئة نعيمة رغيدة.. ولكن هذا لا يعني الأمان لهُ، فلطالما هو حيّ؛ يمكن لأيّة صدفة حمقاء أن تكشفَ وجوده لهم. إنني أعيشُ في هذا القلق والرعب في كل ساعة من يومي، أخشى أن يستدعوني إلى طقس أضحية، فأحضر فقط لأجدَ أنهم يضحّون

بالهارب الذي قبضوا عليه صدفة، فأجدهُ ابني.

.. تظاهرتُ أنيّ أؤمنُ بوجود الشر.. فلا يمكن لأم أو لزوجة أن تتقبل حرمانها من زوجها أو ابنها دون أن تصدّق أنَّ هنالك شراً..و لكنهُ شر في البشر.. قبل أن يكون شراً في غير البشر...

البشر هم أعداءُ بعضهم الأوائل..

و أنا الآن، ومنذ عشر سنوات، أحبكُ خطتي... لقد بحثتُ في كل المخطوطات القديمة عن طريقة ناجحة تقلبُ السحر عليهم.. لم أعد أبالي بحياة أيٍّ شخص يود البقاء في بارادايس شيل لممارسة فعلتهم الشنيعة القبيحة.. لقد فقدوا إيمانهم في أنَّ ما يفعلونه هو لأجل شر ما.. ويفعلونه لكي يقمعوا ثورات قديمة ماتَ فيها أفراد من عوائلهم، متذرّعينَ بموضوع الشر الذي يجب إرواء عطشه..

لن أسامحَ أحداً منهم، وسأنتقمُ من الجميع.

فيكتور

لم يتمكن تيموثي بارنز أن يُخبرنا بكل شي، كنّا قد مررنا بمجموعات من الرجال يحتشدون، ولم يعيرونا انتباهاً، ولكنّه أخبرنا أنهم يتجهون إلى منزل لوسيا لأخذها ولإجراء الطقوس في هذه الليلة. الوقت الآن يشارف على المغيب، ولم يكن هنالك لحظة واحدة لتضييعها، تأكّدنا من ذلك عندما شاهدنا رأس اوين مارشال الحليق ينضم إليهم في سيارة. عندما وصلنا إلى باب منزل بانكرافت، أسرعنا الخطا إلى الداخل، وقابلتنا إزميرالدا تنظر إلينا بتساؤل ممزوج بقلق، ونحن نقتحم المنزل إلى جانب زميلنا الجديد تيموثي بارنز.

سألتُها: "أين لوسيا؟"

"لقد كنتُ معها في غرفتها للتو، أخبِرْني ماذا حصل؟" نقلتْ بصرها بين وجوهنا جميعاً محاولة تحديد ما يجري.

ركضتْ ماريا إلى الأعلى لتتولى مهمة تجهيز لوسيا للرحيل، بينما أمسكتُ بكتفي إزميرالدا وأخبرتُها بما سيجري، كانت عيناها في اتساع، ولم ترمش وأنفاسها تتسارع.

"سوف يأتون لأخذها الليلة، بلا أهل ليدافعوا

عنها. لن تصمد الفتاة في وجههم". قال تيموثي مختصراً أسوأ الأحداث.

"يا إلهي!! ماذا سنفعل". لوحت إزميرالدا بيديها في الهواء.

"سوف نأخذها ونهرب، هذا هو الحل الوحيد، عليكِ أن تكسبي لنا بعض الوقت". أجبتُها

"ومن يكون هذا السيد؟". سألتْني.

"إنّه الذي حذّرنا بشأن كل هذا، من الأفضل لكِ يا إزميرالدا ألّا تعرفي الكثير لتبقي في أمان. لا تخافي سوف أكون أنا وماريا إلى جانبها، ولن نتركها أبداً".

"لا يمكنني أن أثق به يا فيكتور، عليكَ أن تخبرني مَن هذا الذي سيأخذ لوسيا؟و كيف عرفَ بما يجري؟،..ربما يقودكم إلى فخ!"

سمعتُ صوت ماريا: "إنه لا يكذب، لقد قالَ الحقيقة".

قالت ذلك ولوسيا تقف خلفها، وقد جمعت ملابسَ عشوائية في حقيبة صغيرة، واضح أنها أمسكتْها على عجل، والخوف والذعر واضحان على وجهها. كان تيموثي بارنز قد ابتعدَ عنا وركّز على مراقبة النوافذ.

قالت ماريا لنا: "يمكنني أن أستشعر كذبةُ من صدقه، إنه صادق. لكن مايزالُ هنالك أمر غريب يزعجني: إن كانت أضحية سالي قد تمَّتْ بلا أية عرقلات أو مشاكل، فما هو سبب استيقاظ الشر؟ أنت تعلم أنَّ لطقوس السحر قوانين، فإن لم يكسر أحد هذه القوانين، لمَ أصبحت بلا وجود؟".

كانت ماريا محقة، ولكنَّ أحداً منا لم يملك إجابة على هذا السؤال: لمَ استيقظَ الشر إن كان كل شيء في طقوس الأضحية قد سار على ما يرام؟. نظرتُ نحو تيموثي بارنز متأكداً أنني سأسأله هذا السؤال عما قريب، قلتُ في عجل: "تعلمين أنه لا يمكننا التناقش هنا الآن؛ فالرجال قادمون". حولتُ حديثي بجدية إلى إزميرالدا: "عليكِ أن تكسبي وقتاً لنا يا إزميرالدا؛ حتى نأخذ لوسيا ونهرب بأقصى سرعة، وإلى أبعد مكان".

"سأفعلُ ذلك بلا شك، سأضعُ حياتي على المحك لأجلها". كان وجهها يخبرنا الحقيقة، ويُرينا كم هي مستعدة للتضحية من أجل هذه الفتاة، التي تعدُّها كابنة لها.

ونظرتْ نحو لوسيا المذعورة، واحتضنتْ الاثنتانِ بعضهما بقوة، وما كانتا تريدان الفراق.

قالت إزميرالدا: "تحلّي بالقوة".

قالت لوسيا وهي توشك على البكاء: "أنتِ هي قوتي!".

نبّهنا تيموثي بارنز بأنَّ الرجال يقتربون من الباب، فقد كان مستوى منزل عائلة بانكرافت فوق تلة عالية، ويمكننا أن نرى الشارع أمام المنزل. سحبتْ ماريا لوسيا من أحضان إزميرالدا بلطف، وأسرعنا في الخروج من باب المنزل الخلفي، وركبنا جميعاً سيارة تيموثي، وانطلقنا نحو الخارج بأشدّ حذر.

إزميرالدا

لحقتُ بهم نحو الباب الخلفي، أنظرُ إليهم يركضون عبر الحديقة إلى السيارة التي ركنوها بعيداً مستفيدين من خبرة السيد تيموثي كمُخبر شرطة في تجهيز طريق للهرب. يتقطع قلبي لرؤية لوسيا وهي تسترق النظر خلفها نحو المنزل خلالَ ركضها، وكأنها تناشدُني القدوم معها. ولكن ما كنتُ أستطيع فعل ذلك. عليَّ أن أبقى وأتركها وحيدة الآن لكي أحميها. لم أحظى بعائلة، أو بأطفال؛ لذلك لطالما كان التوءم هما ابنتاي. عقدتُ العزم وذهبتُ لتجهيز مظهري لأبدو وكأني نائمة، ولم تمضِ دقائق حتى سمعتُ طرقاً على الباب، بعد أن أطفأتُ أنوار المنزل. أخذتُ وقتاً طويلاً للإجابة على طرق الباب، ثم حملتُ مصباحاً شمعياً عندما أحسستُ أن الطرقات بدأ صبرُ أصحابها ينفذ، وأنهم يهدّدون باقتحام المنزل. أضأتُ المصباح وأجبتُهم. فورَ أن فتحتُ الباب، لففتُ ملابسي حول جسدي، ورأيتُ وجه السيد مارشال أمامي.

سألتهُ بكل استغراب استطعتُ من خلاله إخفاء توتري وخوفي بعينين ضيقتين، نجحتُ بهما في تمثيل أنني استيقظتُ من النوم. وسألته: "يا إلهي! سيد مارشال! ماذا حصل؟هل كل شيء على ما

يرام؟".

ردَّ عليَّ بأسلوبه المهذب والرزين المعتاد: "اعذريني على إزعاجكِ في هذا الوقت المتأخر يا سيدة إزميرالدا.. لم أقصد إقلاق راحتكِ، ولكن لقد ظهرت لنا قضية مستعجلة تحتاج إلى رأي سادة العوائل الثلاث. وبما أنَّ السيد بانكرافت قد توفيَ رحمهُ الله، لا يوجد سوى الآنسة ابنته لتحل محله".

كدتُ أظهرُ شهقة كاذبة؛ لتأكيد الدور الذي ألعبهُ بالطريقة المناسبة: "الآن؟!! هذا غير قابل للتصديق، عليكم أن تتفهموا أنَّ لوسيا فتاة شابة، لا يناسبها الخروج في مثل هذا الوقت، حتى وإن كانت قد أصبحت رئيسة عائلة بانكرافت مؤقتاً. يجبُ عليَّ أن أطلب منكم إرجاء الوقت إلى الصباح. إنهُ وقت معقول أكثر يا سيدي، مهما كانت هذه القضية المستعجلة!".

ردَّ السيد مارشال: "أعدكِ بأنَّ ذلك سيحدث من الآن وصاعداً يا سيدتي. إننا نحتاجُ الآنسة لوسيا كي تنضم إلينا بأسرع ما يمكن".

"أنتَ تعلم أنه يستحيل أن أسمح لها بالركوب معكم في هذا الوقت! أو أن تذهب وحدها". كان السير مارشال يقفُ والباب خلفهُ؛ ليعطيه هذا

المشهد في منزل آل بانكرافت وقاراً أكبر مما يبدو عليه في العادة.

"ستكونُ لوسيا تحت حمايتي، فلا تقلقي يا سيدة إزميرالدا". تدخّلَ هذا الصوت في حوارنا، وعرفتُ المتحدث فور أن ظهرَ أمامي، ولو أنه كان أشد شحوباً من المعتاد وكأنه على وشك الموت. كان ألكساندر لورينت، قال: "أنا ألكساندر لورينت، أعدكِ أنّها ستكون تحت حمايتي.. وسأعيدها سالمة". كانوا يكذبون، وهذا واضح.

لم أجد أيّة كلمات يمكنني أن أقولها بعد أن جاء سيد عائلة لورينت بنفسه إلى هنا،.. انتفضَ قلبي، وكاد يُغمى عليَّ من الرعب على لوسيا. لقد كانوا بالفعل عازمين على فعل شيء بها كما قال فيكتور!! إنَّ ألكساندر هنا؛ ليحرص على أن يسير كل شيء دون مشاكل، وكما هو مخطط له، فبالطبع لا يمكنني الرفض الآن، بعد أن ظهرَ هو بنفسه أمامي!

كررتُ قولي له: "عليكم تغيير أوقات اجتماعاتكم إلى الصباح يا سيدي ألكساندر، فلوسيا شابّة، لا يمكنني السماح لها بالخروج في الليل!".

- "مؤكد.. سامحينا على تصرُّفنا الذي استدعتهُ الحاجة الملحة. نحنُ ندركُ أنَّ الوقت أيضاً غير

مناسب، فالفتاة فقدتْ والدها منذ فترة قريبة،.. سوف ننتظر حتى توقظي الآنسة وتتجهّز للذهاب معنا، هلّا سمحتِ لنا بالدخول".

نظرتُ إليهما بتوتر، ثم أفسحتُ لهما المجال بالدخول، وجلسا. كسبتُ وقتاً إضافياً بإصراري على إعداد الشاي لهما وتقديم الحلوى، ثم أخبرتُهما أنه يمكنهما أن يستمتعا بها، بينما أجهّز لوسيا لترافقهما.

مشيتُ ببطء إلى الأعلى، حريصة أن أسمعهما آهات تعبي وألم عظامي المسنّة. استرقتُ النظر إليهما... لم يمسَّا أي شيء مما قدمتهُ.. تنبعثُ منهما هالة مرعبة. فورَ أن وصلتُ الطابق الثاني، انهرتُ على ركبتيَّ بخوف لألتقطَ أنفاسي. أضعُ يدي على فمي؛ كيلا يسمعا شهقاتي.. أنا خائفة جداً.. إنهما بلا شك لا ينويان الخير، وسيعطياني الآن أيّة وعود كاذبة، ثم سيجحدانها عندما أواجهها بأنَّ لوسيا لم تعد.. إنهما أقوى رجليْن الآن في بارادايس شيل.. لقد خسرتُ المعركة قبل أن تبدأ.

ماذا أفعلُ الآن؟ لا أفكار في ذهني الهَلِع!

نهضتُ ودخلتُ غرفة لوسيا، والتقطتُّ أنفاسي مراراً وتكراراً وأنا أحتضنُ وسادتها، وأدعو أن يحفظها وينجيها الله من براثنهم.

تأخرتُ عليهم قدرما أستطيع، قرابة الساعة والنصف. لحظتها سمعتُهما يناديان عليَّ، ولكنني لم أجبْ. علمتُ أنهُ لم يعد هنالك مجال لكسب مزيد من الوقت، وأنَّ ساعة لوسيا قد حانت. انهرتُ أبكي ونفذتُ القصة التي ظللتُ أحبكها طوال الساعة الماضية.. فتحتُ الباب قليلاً مستجيبةً إلى طرقاته، فسألني مارشال الذي صعدَ إلى الطابق الثاني: "لقد أخذتُما وقتاً طويلاً في التجهز، فهل كل شيء على ما يرام؟".

رآني أبكي؛ فطلبَ مني أن أتنحّى عن الباب. عندما شقَّ طريقهُ إلى داخل الغرفة وجدها خالية، سألني: "ما معنى هذا؟".

بكيتُ، وأسرعتُ في سرد السيناريو الذي اخترعتهُ وحفظته: "لم.. لم أرد أن أخبركما أنني لم أجدها في الغرفة عندما صعدتُ. ظننتُ أنني إن انتظرتُها قليلاً فستعود".

سألني: "أينَ ذهبتْ؟؟".

أجبتُ متلعثمة: "لا أدري، صدّقني لا أعلم!! ربما.. ربما هي مع حبيبها ابن السيد لورينت، بيترا!، أرجوكَ لا تخبر أحداً، استرْ عليها وعلى سمعتها. لو كنتُ أعلمُ أنها تتسلل في الليل؛ لما سمحتُ لها أبداً. أرجوكَ يا سيدي إنها فتاة طيبة!!

ظننتُ أنها ستعود بسرعة. لم أعلم، لم أعلم".

كنتُ قد تعلقتُ به وبدأتُ أبكي، فما كان منه متورطاً إلا أن حاولَ أن يربّتَ على كتفي، ومن ثمّ دفعني بعيداً عنه عندما لم أفلتهُ. ظللتُ أبكي منهارة وقد صدّق حكايتي، وأسرعتُ خلفه نحو السيد ألكساندر الذي علم من أصوات نزولنا الدرج أنَّ خطباً ما قد حصل، أخبره مارشال: "ليست هنا".

- "أرجوكَ استر عليها يا سيدي.. إنها مع السيد بيتر أنا متأكدة.. أرجوك استر على عدم وجودها في المنزل في هذه الساعة المتأخرة أرجوك!".

أشارَ لي بيده أن أهدأ، وسألني: "هل أنتِ متاكدة أنها مع بيتر؟".

"أجل يا سيدي؛ فهما يحبّان بعضهما جداً". راقبتهُ بعين متّسعة. أملتُ أن يبدو هذا حقيقياً.

"أينَ هما؟"

لم أجبهُ، قال محاولاً كسب تعاوني: "إنه ابني أيضاً، أعدكِ أنهُ لن يمسَّ الفتاة شيء".

قلتُ له كاذبة: "سمعتُها تتحدث ذات يوم عن الذهاب إلى حديقة البلدة معه".

اخترتُ أبعد نقطة في باراديس شيل يمكنني التفكير بها، وأسرعَ الاثنان خارج المنزل مغادرين،

وقد انطلت عليهما حيلتي دون شك،.. بقيتُ واقفة عند النافذة أراقبُ مغادرتهما مع مجموعة الرجال المرافقين لهما، بعد أن أمرا اثنين بالبقاء في حال عادت لوسيا قبل أن يصلوا إليها. لم يدخل الرجلان إلى المنزل، بل ظلّا يحومان حوله، يراقبان كافة مداخله ومخارجه. ثم هبطتُّ على قدمي أدعو ألَّا يصيب لوسيا مكروه، وأن تعود إليَّ سالمة.. أنا التي لا أملكُ أدنى فكرة أين هي الآن؟ وأين انتهى بها المطاف؟ وهل عساها تخرج من بارادايس شيل سالمة! هذه البلدة الشريرة.

مارجيت ستروم

لم أنم تلك الليلة، وأنا أعلمُ ما يعتزم شقيقي ألكساندر فعله. لقد تأكدتُ من تكهناتي عندما راقبتُ من نافذة غرفتي مغلقة الأضواء خروجهُ مساءً، بعدما اقتربت سيارة اوين مارشال من باب منزلنا، وانطلقَ الاثنانِ معاً لتنفيذ الطقس المشؤوم، وجعلَ لوسيا ضحية له. أغلقتُ عينيَّ بعد أن كنتُ أنظر نحو السماء. أتمنى أن يكون تيموثي قد نجحَ في إخراج الفتاة من هناك. حصولهم عليها يعني أنَّ كل ما اجتهدنا لأجلهِ وكل ما فعلناهُ، ذهبَ أدراج الرياح.

جلستُ حوالي ثلاث ساعات وربما أكثر عند نافذتي المفتوحة، أتنفّس هواء الليل وأغرق في الذكريات المحبوسة، حتى رأيتُ عودة سيارة ألكساندر إلى البيت، فنهضتُ من فوق كرسيّي سريعاً، وارتديتُ روب النوم مستعدة للخروج من غرفتي في أية لحظة.تعمدتُ الخروج في اللحظة التي تقترب فيها خطواته من باب غرفتي، ومثّلتُ دور المتفاجئة به: "ألكساندر"!.

"لم أقصد إزعاجكِ، هل بيتر في المنزل؟". سألني بتوتر واضح.

"على حد علمي، أجل. لقد خلدتُ إلى النوم باكراً اليوم؛ لإصابتي بالصداع بعد عودتي من الخارج. والآن فكرتُ في النزول لتناول شيء ما لأني لم أحضر العشاء. ماذا بك؟ تبدو مرهقاً". بل كان يبدو كمن يتوقع أن يصادف فشل مخططاته.

كان بالفعل يبدو شاحباً أكثر من المعتاد، والغضب يعتريه. وكذلك هنالك العجلة في حركات جسده. لقد أبلغني سابقاً بخطته في التضحية بلوسيا، لذا قال: "لم أجد الفتاة في منزلهم".

"أتعني لوسيا ابنة عائلة بانكرافت؟، أين يمكن أن تكون في مثل هذه الساعة؟".

ردَّ عليَّ وأفكاره ماتزالُ عالقة في ذهنه: "تقول خادمتها أنها خرجت مع بيتر. أتعلمين شيئاً عن هذا الأمر؟".

أجبتُ بصراحة: "لا أظنُّ ذلك، متأكدة أنَّ جانين تملك فكرة ما، فهي والدة الفتى". سررتُ لأنَّ خطته تتشتّت. ورغم أنني لا أعلم كل التفاصيل، إلا أنني وثقتُ بطريقة غريبة بأنَّ تيموثي قد وصلَ إليها قبله.

مشى نحو غرفة بيتر، وتبعته غريزياً لأكملَ كلامي. دخلَ إلى غرفة بيتر دون حتى أن يطرق الباب؛ ففزعَ الشاب الذي كان نائماً من نومه،

وشغَّلَ إضاءة غرفته فوراً؛ ليرى وجه والده المجنون يقترب منه، وهو يسأله بصوت أجش: "أين لوسيا؟ أليست معك؟".

ولكنّي دخلتُ بين الاثنين مباشرة، وأمسكتُ ألكاسندر وطلبتُ منه أن يهدأ، وسحبته بعيداً وهمستُ له: "كيف تتوقع منه أن يجيبكَ، وأنتَ في هذه الحالة؟ اخرجْ، دعني أتحدث معه!". لم أكن أرغب إلا في تشتيت خطواته أكثر.

كدتُ أرى النار في زفراته؛ لأني استشعرتُ حرارتها. ولكن وجدتُ في عقله ما بقي من المنطق موافقاً على اقتراحي. ولكن استشعرتُ أنه لن يقف من دون التدخل لوقت طويل. أغلقتُ الباب بالمفتاح بعد أن خرج، ثم تقدمتُ من بيتر الذي كان قد نهضَ من فراشه، وقلتُ له على عجل: "بيتر اسمعني، هنالك ما يجب عليَّ أن أخبركَ به"

و قلتُها بهمس لا يمكن لألكساندر الواقف خارج الغرفة أن يسمعه، وتابعتُ: "هذه البلدة التي تسكن بها بارادايس شيل هي بلدة ملعونة، أخذت مني زوجي، ولم تهدأ حتى أخذت مني أطفالي. إنها تبتلع أرواح الناس المصدقين بأساطير حمقاء غبية عن وجود شر كامن في باطن هذه الأرض يعود عمره لآلاف السنين. يعني أنَّ العوائل الأصلية

كانَ أفرادها يعيشون في أمان وسلام، يقومون بعمل تضحيات فيما بينهم، ولكن عندما زاد عدد الناس الذين يأتون إلى المنطقة، وبعد ازدهار تجارة الفحم والزراعة التي جلبتْها إلى هنا العوائل الثلاث المستعمرة المؤسسة، وبسبب كثرة عدد الناس الموجودين في المنطقة، بدأ السكان الأصليون يتذمرون: لمَ يجب عليهم أن يضحّوا بفلذات أكبادهم لكي يعيش الآخرون في سلام؟ وتمَّ التناحر بين القبائل والعوائل، وقامت حرب أهلية حمقاء سُفكت فيها الكثير من الدماء، ولم يهدأ القتل والذبح إلا بعد إقامة اتفاق يقضي بانضمام المستعمرين إلى الطقوس السوداء، وأن يُدفع ثمن الدماء بالتساوي بين الطرفين، ليشارك الجميع في إطفاء عطش الشر الذي يعيش في باطن الأرض. وهذا ما حصلَ منذ مئات السنين، ومايزال مستمراً حتى الآن".

أجابني وهو يُلقي نظرة عدم تصديق للسبب الذي سيجعلني أخبره بقصة كهذه في الليل بعد أن اقتحمْنا غرفته، وباندهاش ساخر نوعاً ما: "ظننتُ أنَّ هذه قصة قديمة! هل تتحدثين بجديّة؟"

رفعتُ كفّي أمام وجهه. لم يكن هناك وقت لإثبات ذلك، يجب أن يصدقني الآن: "لا أحد يخبر شباب البلدة وصغارها إلا عندما يقودونهم في الطقس،

ويجعلونهم يشاركون في القتل بشكل جبري، حتى يضمّوهم إلى مُرتكبي جريمتهم البشعة، ويصبحوا جميعاً تحت رحمة كفّ واحدة. وإذا تحدّثَ أحدهم سيكون مصيرة قاتلاً مثل البقية؛ لهذا أنتَ لا تعلم أنَّ هذه الشعائر ماتزالُ قائمة إلى يومنا هذا، ولا تعلم أنها قد فقدت فحواها الذي قامت عليه منذ القديم، ولم يعد أحدٌ يقدم أية أضحية لإخماد غضب أيِّ شر. بل أصبحوا يضحّون ببعضهم ويقتلون بعضهم بكل شر؛ تنفيذاً لترتيب مكتوب في مجلد يحمل أسماء الناس الذين سُفكت دماؤهم قديماً، والذين يتوجب عليهم الموت الآن ليعمَّ العدل بين الموتى ومن قتلوهم، ولتخمدَ نار الكراهية بين السكان الأصليين والمستعمرين. صاروا يقتلون بعضهم لأنها أصبحت عادات وتقاليد، وليست هروباً ووقاية. أصبحوا يقتلون بعضهم لأنهم هم الشر الحقيقي في هذه الأرض العفنة، وليس شر في باطنها".

ظلَّ صامتاً يحدق بي، وهو يتشرب الحقيقة ببطء. كان يتوقع ألّا يكون الكلام التالي الذي سأقوله خير.

"لقد وقعتْ سالي ضحية هذه الطقوس الكريهة يا بيتر، ولهذا هي اختفت ولم تظهر حتى الآن. إنّها

ميتة في باطن الأرض بلا رجعة".

شهقَ الفتى، أكملتُ: "عندما أجروا طقس التضحية الماضي، حصلَ أمر ما خاطئ، ولهذا كثرت الأمراض والقتل والجرائم في بارادايس شيل. ألم تلاحظ الأخبار في الآونة الأخيرة يا بيتر؟ بالإضافة إلى الموت الغريب لسيد عائلة آدامسون، وكذلك سيد عائلة بانكرافت! كل هذه الأمور تدل أنَّ الطقس الأخير حصلَ فيه خطأ جسيم، وأنهُ لم يؤدَّى على أكمل وجه. والآن الشرّ المتفلّت سيقضي على والدكَ، مثلما فعلَ مع سادة العوائل الأخرى، إن لم نصحح الطقس الذي جرى من قبل. والطريقة الوحيدة لفعل ذلك هي بإقامة طقس تضحية جديد، ولكنهم يحتاجون إلى دماء شابة ونقية وطاهرة من المؤسسين".

صمتتُ قليلاً لأتركَ له مجالاً ليستوعب كل هذا، ثم أطلقتُ القنبلة الأخيرة: "لقد اختارَ والدكَ، السيد الوحيد الباقي، أن تكون لوسيا تلك الأضحية، ثم يمكن لعمّها أن يتكفل برئاسة عائلة بانكرافت، وتعود كل الأمور إلى نصابها. ألم تلاحظ الجنون والتعب يظهر على والدكَ مؤخراً؟ وأنَّ حالهُ لم يكن على طبيعته؟. هو لم يعد يهمُّه أنكَ تحبها، كل ما يفكر به هو صحته وحياته، فالكوابيس تروّع لياليه،

والإرهاق يأكل صحته يا بيتر".

نهضَ بيتر من جانبي، وهو يتمتم: "يا إلهي! لا أصدّق. لوسيا؟ عمتي.. ماذا تقولين؟".

ارتجفَ صوتي: "دعني أقلْ لكَ أنني أفهمُ ما تمرُّ به؛ فقد فقدتُ زوجي في الأضحية وابني الأكبر الذي كان ذا قلب ضعيف. عندما توفيّ استخدموهُ أضحية أيضاً يا بيتر، لهذا أعلمُ ألمَ أن تفقدَ من تحبّ، وتأكّد أنني لا أريدكَ أن تشعر به أبداً؛ فأنتَ عوّضتني عن حياة ولدي التي فقدتُها، وأنا أراكَ فيه". احتضنتهُ احتضاناً صادقاً، قدّرهُ هو بدوره.

سألني بهدوء: "ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟"

ازدردتُ ريقي، وحاولتُ أن أختصرَ كل ما أريد شرحه، وأن أستثمر الوقت حتى لا نهدرهُ أكثر: "لقد رأيتَ وجه والدكَ عندما اقتحمَ عليك الغرفة يا بيتر. إنهُ لن يتراجع حتى ولو أخبرتهُ برغبتكَ في الزواج من الفتاة؛ لذا نحنُ لا نملكُ سوى حلاً واحداً لحمايتها".

طرقَ ألكساندر الباب بعصبية؛ فأجفلتُ وتحركتُ من مكاني. اهتزَّ كتفاي، وضاعت كل أفكاري للحظة قصيرة. قلتُ بسرعة: "عليكَ أن تكذب عليه بشأن مكان لوسيا، اكسبْ لها الوقت لتهرب. لقد ذهبَ والدك إلى هناك ولم يجدها؛ لهذا جنَّ

جنونهُ وأصبح لا يفكر سوى في إنقاذ حياته! كنْ عاقلاً وحكيماً يا بيتر، صدّق كل كلمة أقولها، فأنا لا أجني فائدة من الكذب عليك، وتأكَّد أنَّ لوسيا ماتزالُ بخير.. حتى الآن".

زادتْ طرقات ألكساندر وهدَّد بكسر الباب، وقد سببت الضجة التي أحدثها استيقاظ ابنه ماركوس وزوجته جانين. فتحتُ الباب لهم وابتعدتُ أفسحُ لهم مجالاً للدخول. فدخلَ ألكساندر بسرعة نحو بيتر، وقال بهدوء يكافح للسيطرة عليه: "أينَ لوسيا؟"

كانت هنالك دموع في عينيْ بيتر، دموع صادقة بسبب كل ما يجري. نظرَ نحو والده بكل ألم، فعلمتُ أنه لا يرى الرجل الذي أحبَّهُ سابقاً كوالده، فقد كان مَن يقف أمامهُ شريراً مجنوناً مهووساً بفكرة قتل فتاة بريئة، كانَ قد قتلَ قبلها العشرات وربما المئات؛ فقط لإنقاذ مكانته وحياته. قال بيتر: "أخبرتني عمتي بكل شيء، نعم يا أبي أعلمُ مكانها، لن أسامحها أبداً على خداعي بمشاعرها الكاذبة، سأبحثُ معك طوال الليل عنها". لقد فهمَ الخطة أخيراً.

تقبّل منه ألكساندر هذا الكلام وعانقهُ فخوراً به، فبادله بيتر العناق متألماً وخرجوا جميعاً. وجاءتني جانين بغضب في عينيها، لم أكن في مزاج يسمح

بتحمّل غيرتها، ونظرتها التي تقول: لم كنتِ أنتِ من تحادثين ابني وليس أنا؟. فجرجرتُ نفسي مغادرة نحو غرفتي، وأنا أسير خلفهم وأسمعُ بيتر يعدّد لوالده الأماكن التي تحبُّ لوسيا الذهاب إليها وقضاء الوقت فيها. ولم يترك الفتى مكاناً في بارادايس شيل لم يذكره، وبهذا ضمنّنا أنَّ البحث سيستمر عنها طوال الليل، وسيشارك فيه جميع الموجودين، مما يعني أنَّ هذا سيرفع نسبة نجاح هروب لوسيا من بارادايس شيل وإنقاذها.

لوسيا بانكرافت

أوقفَ الرجل الغريب الذي جاء برفقة ماريا وفيكتور سيارته في مكان بعيد مخفي، وكأنه كان يعلمهُ من قبل جيداً، ومتأكد بأنهُ لن يرانا أحد فيه. نزلنا معاً في الظلام الدامس في الليل، بين الشجيرات في الغابة في منطقة لا أظنني سأميّزها حتى لو جئتُ إلى هنا في وضح النهار. إلتصقتُ لا شعورياً بماريا التي أحاطتني بذراعيها بدورها، وطلبت أن أبقى قريبة منها ومن فيكتور. مشينا يتقدّمنا فيكتور الذي يتبع تيموثي بارنز نحو أعماق الغابة، يحذّرنا تيموثي من وجود أشياء لا ننتبه على وجودها سوى في آخر لحظة، مثل الحفر وجذور الأشجار البارزة، لقد كان يحفظ الطريق في هذا الليل الدامس. طلبَ منا الجلوس هادئين مكاننا، وهو يراقب نقطة في الظلام أمامنا بهدو تام،.. ثم قال: "كما توقعنا.. لا يوجد أحد هنا، لابدَّ أنَّ السيد لورينت قد طلبَ من جميع الرجال المشاركين في طقس التضحية الانتشار والبحث عنكِ، يمكننا أن نتسلل إلى الداخل".

ذهبَ قبلنا وتأكدَ أنَّ المكان خالٍ،اتّجهنا ناحيتهُ بدورنا، بعدما أشار لنا بالقدوم. دخلنا إلى كوخ صغير تفاجأنا أنه مجرد مظهر خارجي فقط، ففي

داخله لم يكن يخفي سوى حفرة تحتوي درجاً حجرياً يغوص إلى باطن الأرض، نزلنا خلفه بخطوات حذرة، واستمرَّ نزولنا طويلاً حتى وصلنا إلى غرفة كهف واسعة، فيها مشاعل نارية معلقة في جدرانه الدائرية. كانت مساحتهُ شاسعة تكفي لأن يضمّ عدداً كبيراً من الناس. وعلى رغم فساحته وشساعته إلا أنني أحسستُ بالهواء فيه قليلاً وخانقاً بسبب خوفي. أحسستُ بماريا تترنّح بجانبي؛ فأمسكتُها أنا بدلَ أن تمسكني هي، وسألتُها: "ما الخطب؟".

انتبهَ إلينا فيكتور وأسرعَ ناحيتها يُسندها، وسألها بدوره: "هل أنتِ بخير؟ هل تشعرين بشيء؟".

قالت له: "هذا المكان... إنني أعرفُ هذا المكان".

قال تيموثي: "إن كان لديكِ قدرة عالية على استشعار الفظائع التي حصلتْ في هذا الكهف على مدى عشرات سنين، فيؤسفني أن أقول لكِ: إنكِ تدخلين إلى جحيمكِ بقدميك. استمعي إلى نصيحتي.. وابتعدي عن هذا المكان ما استطعتِ".

لكنَّ ماريا لم تستمع إليه، ونظراتها تقول بوضوح أنها لم تبالِ بما قالهُ. أخذتْ نفساً عميقاً واعتدلتْ في وقفتها وقالت: "سأكون بخير... هذه ليست أول مرة لي هنا... يمكنكَ أن تتابع الطريق "

سأل فيكتور: "وما هو هذا المكان؟ وكيف زُرتهِ من قبل؟"

قالت له بصوت خفيض: "خلال حلمي بسالي".

سألتُها بانفعال: "سالي؟ سالي جلبتكِ إلى هنا في الحلم؟ أهذا يعني أنها هنا؟"

نظرتْ إليَّ وقالت بتعاطف: "روحها. هنا فقدت سالي روحها على الأغلب. هنا تمّت التضحية بها".

اهتزَّتْ ركبتاي معاً من الخوف الذي ظهرَ جليَّاً عليَّ في ارتجافي. سألَ فيكتور: "لمَ أحضرْتنا إلى هنا، بينما هذا هو المكان الذي يجب أن نبعد لوسيا عنه قدر الإمكان؟". كان قد وقفَ أمامنا، وأوقفنا عن التقدم خطوة أخرى نتبع فيها تيموثي.

ردَّ تيموثي: "لن يخمّن أحد أو حتى يفكر أنَّ الفتاة التي يجب عليها أن تهرب من هذا المكان جاءت إليه، وتختبئ فيه بنفسها. ثم إنَّ هذا الكهف ليس ما ترونه أمامكم وحسب "

أزاحَ فيكتور رباط عينه اليمنى ونظر بها، قال: "المكان مليء بالدخان الأحمر، لا يمكننا النزول! لقد كان اتّباعنا لك غلطة".

قالت له ماريا: "كلا، إنّه محقّ. إن كان الجميع يبحث عن لوسيا الآن فمهما حاولنا أن نسرع فلن

نستطيع إخراجها من بارادايس شيل سالمة، سيلقون القبض عليها بلا شك. هذا هو المكان الوحيد الذي يمكننا أن نضمن أنَّ أحداً لن يبحث فيه. فيكتور: لقد كنتُ هنا من قبل. ودعني أؤكد لكَ أنَّ المكان مثل المتاهة تماماً، مظلم.. مرعب".

قال تيموثي: "بعد أن اكتشفتُ هذا الكهف الذي تقوم فيه الطقوس، قمتُ بالتحري فيه عدة مرات، ونزلتُ لاستكشافه، واختبأتُ فيه مرة لأرى الطقوس بأم عيني،.. هنالكَ جزء مغلق في هذا الكهف، مدخل يقود إلى كهف صغير آخر، لا ينزلُ إليه أحد أبداً. إنهُ المكان الذي يلقون فيه بالجثث، بعد أن ينتهوا منها ويقتلونها، ويسرّبون دماءها كاملة على أرضية هذا الكهف. هذا الكهف ليس سوى البداية، وعندما ربطتُ نفسي بحبال ونزلتُ إلى الأسفل؛ تأكدتُ أنَّ هذا هو أكثر مكان آمن في بارادايس شيل بأكملها".

نظرتُ إلى أرض الكهف؛ لأجدَ رسوماً لدوائر معقدة ونجوماً على الأرض ما كنّا لنراها لولا أنَّ تيموثي قرَّب ضوء المشعل منها. ثم قال: "هنا تمَّ قتل شقيقتكِ سالي".

سرتْ رعشة رهيبة في جسدي، وأنا أنظرُ إلى البقعة التي يشير إليها. كانت داكنة اللون أكثر من

بقية الأرض، سمعتهُ يقول: "لم تكن الوحيدة التي نزفت دماءها بالكامل هنا، في كل طقس يكون عدد الجثث مختلفاً، يضعون الضحايا في توابيت وأصحابها مقيدون، وقد تمَّ تخديرهم لا يقوون على الحراك، وبقية سكان البلدة يرتدون أردية تغطي وجوههم ويتمّ اختيار أصغر فرد فيهم ليقوم بعملية القتل، حتى ينضمَّ إليهم مجرماً أو مريضاً نفسياً طوال حياته.

نظر إليَّ مباشرة، وقال والاشمئزاز يملأ وجهه: "تخيّلي نفسكِ تقفين هنا، وكل من عرفتِهِ يوماً يشجّعك على ارتكاب جريمة في حق شخص آخر تعرفينه، وربما كان أحد أفراد عائلتكِ، ملقّبين المسكين بأبشع الأسماء: كالأضحية، وأنهُ لم يعد بشرياً، وأنَّ موتهُ أصبحَ حقاً من حقوقهم، وأنه يريد الموت ليعيش الناس بسلام.

بعد لحظة صمت ثقيلة، أكملَ: "فهمتُ قديماً أنَّ الضحايا كانوا يحاولون الهرب أو كسب حياتهم بالكلام، وكان هذا يصّعب على الشخص الذي سيرتكب الجريمة لأول مرة عملية القتل، ويجعلهُ يتراجع أو يُصاب بالجنون. لذا مع تقدم السنوات حرصوا أن يقوموا بتخدير الضحية وربطها وتكميمها؛ لكي يسهلوا العملية على كل جديد

سينضم إليهم، الذي يقع تحت كل هذا التأثير المسموم ويرتكب الجريمة وينتهي دوره عندها. ثم يتناوبون على الطعن حتى تنفذ الدماء من جسد الضحية، وهم مغلقو التابوت، ثم يرمونهُ عبر تلك الفتحة هناك، مكان لا ينزل إليه أي أحد".

كانت التفاصيل تقلب معدتي، وأصابتني بالدوار وأنا أتخيّل فقط.و كانت حتى صعبة التصديق لولا أنني كنتُ أقف هناك بالفعل، أكاد أشم رائحة الدماء. وعندما باشرتُ أتخيّل ما كان قد جرى لسالي التي أخطؤوا في هويتها، وكاد أن يحصل لي ما وصفهُ للتو؛ كدتُ أفقد وعيي لولا أنَّ ماريا وفيكتور أمسكا بي، وطلبا مني أن أحافظَ على قوتي واتّزاني، وأفكر بالنجاة والبقاء على قيد الحياة فقط،.. لم أعد مركزة في أي شيء يفعلونه، كنتُ أسمح لهم باقتيادي وأنا أشكّ في أهمية هذه الحياة التي تجعل الجميع يخاطرون بأنفسهم لإنقاذها.. لمَ أنا؟.. هذا ما ظللتُ أسأل نفسي به وهم يربطونني بحبل، ويحثونني على الإسراع بالنزول إلى الأسفل واللحاق بفيكتور الذي سبقنا. نفذتُ كل ما كانت تقوله لي ماريا بحذافيره، وأنا أشعر أنني في حلم. دخلنا إلى الكهف الدائري الحجري، وفي نهايته وجدنا حفرة سوداء في جداره. قال تيموثي أنَّ كل الجثث ترمى فيها. وربطنا هو

بحبال، وساعدنا على نزولها؛ لأنهُ لا أحد من بارادايس شيل ينزل فيها أبداً، ولن يفكر أيّ شخص أنني أختبئ فيها بدوري. وأنا أنزلُ غزتْ أنفي رائحة رطوبة رهيبة، وأحسستُ أن النور بدأ يقل، وأصبحت الرؤية صعبة جداً، وأحسستُ وكأنني أنزلُ إلى قبري وهلاكي بقدميَّ. وقبل أن أبدأ بالذعر أمسكني فيكتور وطمأنني أنني بخير، ثم وضعني أرضاً وفكَّ الحبل عني، وبدأ يساعد ماريا على النزول من الضوء إلى الظلام.لم أتحركْ قيد أنملة من موقعي؛ لأنني بالكاد كنتُ أرى شيئاً، وقد بدأتُ أرتجف خوفاً. لم يكن هنالك أية توابيت، فقط أخشابها محطمة إلى جانبنا، وكان هنالك عدة حقائب مرمية يبدو أنَّ الزمن قد مضى عليها.

حينما وصلتْ إلينا ماريا، كادت أن تفقد توازنها، لكنَّ فيكتور أمسكها وأراحها إلى جانبي على الأرض. عندها وجدنا تيموثي يلقي إلينا بجميع الحبال، وشاهدتُ رأسه في النور يغادر ويتركنا.

قال فيكتور وهو يساعد كلتيْنا على النهوض: "أمسكي هذا المشعل يا لوسيا، علينا أن نتوغل ونبتعد عن المدخل".

قلتُ له: "لقد قال إنَّ هنالك توابيت هنا، وأنهم يلقونها، لكن لا يوجد جثث ولا يوجد توابيت. أين

نحن؟ أيكون قد كذبَ علينا؟"

قالت ماريا وسط لُهاثها: "كلا.. هذا هو بالفعل المكان الذي أخذني إليه حلم سالي".

ردَّ فيكتور وهو يحمل الحقائب الملقاة، وأصدر صوتاً يدل على ثقلها: "اللعين، لقد قدَّمَ لنا المياه والملابس والطعام ومعظم الاحتياجات، قال إنهُ كان يتهيأ لما سيجري منذ مدة. يبدو أننا سوف نضطر للبقاء هنا في الأسفل لفترة".

وجهتُ المشعل نحو الممر المظلم تماماً، والذي سيتوجب علينا أن نسلكهُ، التصقتُ بهما وساعدتُ فيكتور في حمل بعض الحقائب، وأسندتُ ماريا التي كانت مرهقة جداً، وسألت: "ما هذا المكان؟"

فيكتور: "سنكتشفُ الآن".

سألته: "ماذا إن وجدَنا أحد هنا؟".

"علينا أن نتوغل أكثر، لكي لا يجدنا أحد"

"لم أعنِ أحداً من الأعلى، أعني.. أحداً هنا.. من الأسفل!" قصدتُ الشر الذي يطاردنا، والذي بسببهِ وصلَ بي السبيل إلى هنا في نهاية الأمر.

تدخلث ماريا: "سنواجههُ، لا تقلقي. أعلمُ أنَّ وضعي الآن لا يبدو مشجعاً، ولكن أنا أملكُ بعض القوى يا لوسيا. والدخان الأحمر الكثيف

يخنقني فحسب، لكني أصبحتُ بخير. دعينا نتقدّم ونستكشف المكان، قد نجد طريقاً للخروج دون أن ينتبه إلينا أحد، قد نجد النور في آخر النفق".

أومأتُ إليها وانطلقنا نحمل مؤونتنا نحو الممر المظلم، الذي كان مزخرفاً بطريقة أنيقة جداً،.. رغم قدمهِ وتصدُّع جدرانه،.. لولا جمال زخرفته لكنتُ قلتُ بأننا نتوغل نحو الجحيم،.. ولكن في منظره كان هنالك شيء ما خطأ.. لم أدرك ما هو تماماً!... لكننا استمرينا في المشي في ذلك الممر الطويل، ونحن نرى توابيت محطمة على جانبيه. لكن بلا أية جثث، مدركينَ أننا سنبقى أياماً هنا في الأسفل،.. ولن نخرج إلا عندما نتأكد أن كل شيء سيكون على ما يرام.. لقد قال تيموثي أنهُ وضع مؤناً إضافية في غرفة في المقدمة... وأنهُ ظلَّ يزودها بالمؤونة لمدة سنة كاملة كلما سنحت له الفرصة، ولكن لأنهُ يعمل وحيداً؛ كان صعباً عليه إحضارُ الطعام المعلب والمياه وما شابهَ ذلك والنزول بها والصعود. ولكنهُ متأكد أننا إن اقتصدنا في استهلاكها سنتمكن من العيش مدة طويلة، كما أنهُ قال: استمتعوا بقصركم العظيم في الأسفل... متأكد أنَّ ما سنراه الآن لن يكون له مثيل... جوّه الثقيل لم يكن له مثيل فعلاً.. جو غامض مكتوم مشحون بالسواد، وبكل ما لم نتوقع أن نجدهُ أو نراه

في حياتنا. وقد كنتُ محققة، سرعان ما فغرنا أفواهنا وتباطأت حركتنا أمام ما نراه، لقد كنا داخل مبنى فخم، أو في ما يمكنني وصفهُ كقلعة، ولكنها كانت مقلوبة جميعها!.. لم نفهم كيف لمبنى عظيم مثل هذا أن يكون مقلوباً رأساً على عقب؟.. اللوحات العملاقة كانت مقلوبة، رأساً على عقب، وكذلك الدرجات، الإكسسوارات التي تزين الممر، الثريات الشمعية الضخمة محطمة عند أقدامنا، ويتناثر زجاجها في كل مكان. كان كل شيء مقلوباً.. كنا نمشي على السقف. لقد كان منظراً مهيباً ومرعباً، ويصعب على العقل استيعابه.

علمنا أنهُ لا يمكننا البقاء واقفين مكاننا إلى الأبد، وأنَّ علينا معاودة التقدم، فُوجئنا بصوت الزجاج الذي دُسنا عليه يصرخ في المكان الصامت، وقد كانت شظايا زجاج الثريا وبقايا إكسسوارات الممرات في كل مكان، إلى درجة أنَّ فيكتور علّق: "صراخ الزجاج تحت أقدامنا كفيلٌ بأن يُكشف أمرنا".

قالت ماريا: "أقترحُ أن نجد مؤنَ تيموثي، وأن نبقى هناك".

سألتُ: "وما هو هذا المكان؟". كنتُ أكثر شخص يحمل خوفاً في صوته. أعتقدُ بأنَّ ماريا وفيكتور قد

مرًّا بشيء غريب لا ينتمي إلى حياة البشر بصورة قريبة، ولكنني أنا، لم أواجه ماهو منتمٍ إلى العالم الغيبي هذا أبداً.

قالت ماريا: "أحد الأماكن الكثيرة في هذا العالم، والتي تحتوي في باطنها أسراراً كثيرة. هذا العالم مليء بأشياء غريبة تُوازيه، ونادراً ما تلامسه، أو تتطابق معه".

"لا يمكنني أن أتخيَّل ما سبب كونه مقلوباً تحت باطن الأرض، وكأنَّ أحداً رفعهُ وغرزهُ في الأرض التي كانت مفتوحة لابتلاعه. إنَّه متهالك.. هذا مؤكد. لكنّه ليس محطماً.. هذا عجيب فعلاً". قال فيكتور.

ثم همَّ بإزاحة الرباط عن عينه وينظر حوله. قال فجأة: "الدخان الأحمر كثيف للغاية. عيني لا تبصر شيئاً أبداً".همَّ بإغلاق عينه، لأنَّه إن كان لا يرى بها شيئاً فيبدو أنها ستثقلُ عليه وتُعيقه أكثر من إفادته. كلامهُ وفعلهُ زادا من خوفي وتوتري.

قالت ماريا: "كفى وقوفاً هنا، لنتحركْ. نحتاج أن نحصّن أرواحنا مثل تحصيننا جسدياً من أعدائنا في الأعلى. نحن في وكر الشر نفسه".

تبعْنا الممر الذي أوصانا تيموثي أن نتبعهُ، نتلفَّت حولنا بعد كل خطوة، لقد كان المكان فارغاً مهجوراً

بكل تأكيد، ولكن كانت فيه روح غريبة تتنفس في مؤخرة أعناقنا باستمرار.. تجعلنا نتلفَّت حولنا نبحثُ عمَّن يراقبنا، ترغمنا على البقاء متأهبين للهرب أو للتصدي لأيِّ تهديد مفاجئ قد ينقضُّ علينا. كان هنالكَ شيءٌ ما حي، مع أن المكان مليءبالموت.

سألتُ ونحن نسير: "هل أنتما متأكدان أن لا أحد ينزل إلى هنا؟ ماذا عن التوابيت التي يقول تيموثي أنهم يلقونها هنا؟ نحن لم نجد جثة أو تابوتاً إلّا فارغاً أو محطماً".

ردَّت ماريا: "نحن لم نقل أن لا أحد هنا". انقبضَ قلبي. أكملتْ ماريا: "لأكونَ صادقة، المكان مليء بالأرواح، إنها تتحرك في كل مكان، نحن نخترق العشرات منها فقط بإصرارنا على المشي في هذا الممر".

"ماذا تعنين؟ أرواح؟". لم أكن أنتظرُ شرحاً؛ لأنَّ خوفي أفقدني رغبتي في كل شي.

فسَّرتْ لي: "كثيرون من الناس ماتوا هنا.. هذا ما أعنيه، عندما أغمضُ عينيَّ يمكنني أن أراهم يقفون أمامنا، ولكن سرعان ما يتنحَّون عن طريقنا؛ ليقفوا على جوانب الممر ويتركونا نعبر. ينظرون إلينا بلا ملامح، يهمسون بكلمات متداخلة، المئات منها،.. يمكنني الإحساس بهم جميعا. إنهم هنا منذ سنين

طويلة".

وصلنا إلى الغرفة التي أخبرنا عنها تيموثي، بالطبع كان موقع الباب مقلوباً فتوجَّب أن يساعدنا فيكتور على صعود عتبتهِ الجدارية التي من المفترض أن تكون أعلاه، ثم ندخل إلى الغرفة. وجدنا حقائب إضافية فيها طعام، وحقيبة احتوتْ على سكاكين ومسدسات وطلقات.. حملها فيكتور، وقال: "لنحمل ما نستطيع الآن، نضعها في غرفة في المقدمة، ونتقدم ونعود حتى نحمل معنا المؤونة التي نحتاج. لا يمكننا أن نعلم متى سوف يكون خروجنا آمناً من هنا، قد نبقى في الأسفل لأيام".

ابتلعتُ ريقي، لا يروقني حتى التفكير في هذا الاحتمال،.. أن أبقى أياماً في مكان مليء بالموت والأرواح،.. في مكان أسود ثقيل كهذا.. وضعتْ ماريا يدها على كتفي.. لم تدبَّ فيَّ حركتها أيَّة شجاعة،.. ولكنَّ الوقوف والتفكير فقط سيقتلانني،.. آثرتُ أن أتحركَ وأنفذ أوامر فيكتور. مع أنَّ فكرة الموت قد أصبحت تروق لي قليلاً الآن، وأنا لا أرى أنَّ لحياتي قيمة بمرورالثانية...

أخبرتُهما: "أنا آسفة، كل هذا بسببي. يمكنكما التراجع، وسأظل أدفع مبلغ تورطكما معي. لستُما

مرغميْن على كل هذا".

تبادل الاثنان نظرة بينهما، كنتُ صادقة فيما أقول.. لمَ عليهما أن ينقذاني؟ لستُ هامة إلى تلك الدرجة. كان أنا من يُفترض أن تموت.. الفتاة السيئة إلى درجة أنَّ والدها رشَّحها لتموت. كان جزءٌ مني يرفض هذه النظرية. لم أخطط كي أكون في هذا الجانب، أو حتى جزء من كل ما يجري في هذه الأرض الملعونة.

قال فيكتور: "لأننا سئمنا هذه الحياة بدورنا، ونريد شيئاً من الراحة". رفعتُ نظراتي نحوه بلا فهم!

قالت ماريا: "لقد اتّفقنا أن تكون هذه مهمتنا الأخيرة.. ثم سوف نتقاعد عن هذا العمل بعد ذلك وسنتزوج. وسنعيشُ في سلام دون شرور نلاحقها. لوسيا، أنا من عائلة نادرة من مستخدمي السحر.. تكاد تتلاشى، علمتُ بالأمر عندما بدأتُ أشعر مع مرور السنوات أنَّ طاقتي الروحية مختلفة عن الباقين. عرفتُ تاريخ عائلتي وسلالتي النادرة التي اختفى السحر من دمائها لسنوات طويلة، إلى درجة أنَّ ممارسات السحر اندثرت ولم يعد لها مكان بيننا، ولم نعد نتناقلُ علومها لأنَّه لم يولد أيُّ سحرة بيننا. ثم جئتُ أنا، أسألُ نفسي كل يوم في حياتي: ما سبب ولادتي أنا بهذه القوة؟ حاولتُ تسخيرها

واستخدامها، لكنَّ العلوم التي تميزت بها عائلتنا كانت قد أصبحت شحيحة، بالكاد وجدتُ معلومات مسجلة. بقيتُ حياتي أتساءل إن كان المطلوب مني هو أن أملكَ طاقة عملاقة.. وفي النهاية لا أفعلُ بها شيئاً!.. قد يكونُ ما يوجدُ في بارادايس شيل هو بؤرة الشر.. ولكنه ما أنقذني.. الشر أنقذني".

أحاطَ فيكتور ماريا بذراعه، كان يبتسم، ولكنني رأيتُ قلقاً في عينيه: "منذ أن تعرفتُ على ماريا وهي مهووسة بهذه الأفكار،.. أنا سعيد لأنَّها مستعدة لنخطوَ معاً الخطوة التالية.. لهذا نحن عازمان على استخدام قواها وعلى الانتهاء من كل هذا.. ثم نمضي نحو الحياة معاً،.. دون أية تعلّقات بالماضي".

كان كلامهما مليئاً بالأمل، ويمكنني الإحساس بالحب بينهما. لو كان الخوف، الكآبة، الحزن، طاقة؛ فالحب طاقة أيضاً، وهي مُعدية.. بدأتُ أبكي بشدة من اختلاط المشاعر الشديد، ومن تضارب ما أحسستُ به. احتضنني الاثنان، وبعد دقائق تمالكتُ فيها نفسي.. بدأنا بحمل الحقائب وبنقلها إلى مكان آمن آخر، هدفُنا الابتعاد عن المدخل قدر المستطاع.

المنام الرابع

يمكنني أن أشعر بنداء تلك الأرض، عبر حفيف أوراق الأشجار التي تحتكُّ بالأرض القاسية.. عبر نسمات الهواء الخفيّة. ذهبَ السكون دون رجعة واستعجلَ ضوء الفجر الذهبي في السماء. تلونت الغيوم بلون الفضة والذهب ممتزجين معاً. كان المشهد رهيباً يثير الجزع في قلبي. من أنا؟ وما هذا المكان؟

يلوح لي طيفُ امرأة تقفُ أمامي في منتصف الطريق المغطى بالحصى، دون أن يسوّرهُ أيُّ شيء من جانبيه. تُناديني وتفتح ذراعيها لتضمّني. إنها مشاعر الأمومة.. إنّها أمي، وهذه أرضي! وطني الذي يطلب مني العودة إليه. تشتدُّ الرياح عند طرف الطريق، وتجرُّني إلى الداخل، بينما أحاولُ أنا مقاومتها والهروب بعيداً. تلك المرأة التي لا أرى منها سوى ظل أسود تحت الشعاع الذهبي، تكادُ تبكي لرحيلي. تُصدر نحيباً مكتوماً، ولكنها لا تنطق بأيّة كلمة.

تتشبثُ الأرضُ بقدمي فأُقع، وعندما أنهضُ أجدُ بأنني بدلاً من أن أكون عند طرف المدينة، أجدُني في داخلها، وبين مبانيها الحجرية. بنيانُها جميل يدلُّ على مدى رقيّ قاطنيها. ولكن أينَ هم؟ لا

يوجدُ أحد. لا أرى سوى ظلِّ الفتاة التي كانت ترتشفُ نهر الدماء، وظلالٍ سوداء تطفو بين الأزقة، وتخرج لتجعلَ شعاع السماء الذهبي يلامسُها.

لا ملامحَ في تلك الوجوه، سوى عينيْنِ مضيئتيْنِ كأقمار صغيرة في قلب سماء حالكة السواد. تحرقهم أشعة الشمس الذهبية الرقيقة؛ فيصرخون: "الخلاص.. أخرجونا من هذا الجحيم، إننا عالقون هنا منذ زمن طويل".

يصرخون ويهبطون على الأرض، وما إنْ تلمس أقدامهم الأرض، حتى يتحولوا إلى دخان أسود يغطي ضوء السماء الذهبي منتشراً بدلاً من النور، ظلام يغطي كل شيء. كانوا يطلبون منّي أن أعود. أرضي، وطني يُناديني.

بيتر لورينت

حرصتُ أن أشارك بقدر الإمكان في البحث ذي النطاق الواسع، الذي أطلقهُ والدي بحثاً عن لوسيا، وأثبتُّ لهم رغبتي في التعاون التام معهم. بعد ساعات من عدم الحصول على أيّة نتيجة، اقترحَ اوين مارشال أن أذهبَ إلى خادمة عائلة بانكرافت إزميرالدا، وأن أستميلَها للحديث معي؛ فهي مؤكدٌ ستثقُ بي، وستخبرني إن كانت تخبّئ لوسيا؛ لأنّي حبيبها.

فعلتُ ذلك متوتراً، ولكن من حسن حظي أنَّ والدي لم يرسل أيّاً من الرجال معي؛ لكي يجعلها تصدّق أني جئتُ وحدي دون ضغط أو تحكُّم من أحد. كنتُ قد أقنعتهُ بأني غاضبٌ على الفتاة ومغتاظ منها لاختفائها مع غيري.. لم يكن أحدٌ منهم يعلم أنني أعرفُ بموضوع طقوس التضحية التي أخبرتني عنها عمتي مارجيت على عجل.. أعطتني الفكرة الشاملة بسرعة، ولكن لا أظنُّ أنها تحتاج لأن تخبرني بالتفاصيل، فأنا أراها في عيني هؤلاء الرجال من حولي. تعطُّشهم لقتل فتاة بائسة غير خطيرة يثير جنوني! وكلمات اوين مارشال تغسلُ رؤوسهم بطريقة مرعبة،... لقد تحولوا إلى قتلة دون أيَّة ذرة تعاطف.

دخلتُ وطرقتُ باب المنزل؛ ففتحت لي خادمة غير إزميرالدا، سألتُها عنها فأخبرتني أنها في الغرفة ترتاح.. وعندما دخلتُ وجدتُ خادمة أخرى، ولكنني هذه المرة ميَّزتُها فقد كانت خادمة منزلنا!!

لقد اقتحمَ والدي بنفوذه هذا المكان، الذي لا سيّدَ له! إذا فهو ينصبُ جواسيسهُ من الداخل، مثلما هم يحيطون بكل زاوية من الخارج.ما يفعلهُ جنونٌ لا أكاد أصدّقهُ! ويثيرُ غيظي وجنوني! لا أصدقُ أنَّ والدي شخصٌ مجنونٌ مخبول، لا يهمُّه سوى القتل كما أرى أمامي... إنني منذُ أن فتحتُ عيني مفجوعاً على اقتحامه غرفتي، أتلقّى صفعة وراء الأخرى، ولا أدري كم يمكنني التحمُّل بعد. سرتُ خلف الخادمة إلى غرفة إزميرالدا. طرقتُ الباب، وعندما سمحتْ لي إزميرالدا بالدخول تركتْنا الخادمة، ولكنني متأكد أنها وقفت تسترقُ السمع، لا يمكنني أن أثقَ بأحد الآن، حتى بإزميرالدا.

كانت تلك أفكاري، ولكن سرعان ما تغيرت بأكملها عندما وقعتْ عيناي على إزميرالدا المسكينة، التي انتفخَ وجهها من شدة الضرب، وهي ترقد على سريرها متعبة! هُرعتُ ناحيتها وأنا أسألُ عمَّا جرى. حاولتْ أن تنهض نحوي من فوق سريرها، ولكنها كانت شديدة التعب، قالت

لي: "بيتر.. طمئنّي على لوسيا، أين هي؟.. هل أمسكوا بها؟".

"كلا، ماتزالُ مختفية... لا أثرَ لها حتى الآن".

بدأت تبكي، وكأنها تُتمتم كلمات الشكر لاستجابة دعواتها بصوت منخفض؛ كيلا يسمعها أحد.

سألتُها: "ماذا جرى؟، مَن فعلَ بكِ هذا؟"

ردَّت بوهن: "لا أدري لمَ يريدون لوسيا يا بيترا!... إنَّ هذا عقابي لعدم انتباهي لها، والحرص على توجيهها في هذه الفترة الصعبة التي تمرُّ بها".

"لا يمكنُ لومكِ يا إزميرالدا، لقد فعلتِ ما يمكنكِ فعله"

- "لقد اختفتْ في الليل دون انتباهي... لا أدري أينَ هي؟ أو مع من سهرت؟ أو إلى أينَ ذهبت!".

كنتُ أستمعُ إليها وأنا لا أدري هل تعلم إزميرالدا بشأن كل ما يجري؟. أيُعقل أنها لا تعلمُ شيئاً بخصوص الأضحية والطقوس السوداء؟.. أو ربما هي تعلم، ولكنَّها تتمسَّكُ بدورها التمثيلي هذا لحماية لوسيا؟.. أكانَ يمكنني أن أثقَ بها؟..

احتضنتُها، وأخبرتُها بهمس: "أنا في صفّ لوسيا".

ردَّت بهمس: "أعلمُ.. وأنا كذلك.. مهما حدثَ هنا".

تمنيتُ أن تكون كلماتي المُبهمة قد نجحتْ في إيصال نيَّتي ومشاعري نحو لوسيا لإزميرالدا، التي لا أدري كم قد كسرَها التعذيب!، ولا يمكنها أن تثقَ بي؛ فوالدي هو مَن أمرَ به. قلتُ لها: "سأعودُ لأطمئنَّ عليكِ".

نهضتُ مغادراً، وتماسكْنا بالأيدي لفترة طويلة حتى غادرتُ، وكأنها تأتمِنُني على لوسيا. أكَّدتُ لها بضغطة على يدها أني لن أخذلها، وغادرتُ الغرفة..

عندما خرجتُ كان أوين مارشال ينتظرني، وقال: هل عرفتَ شيئاً؟.

- "لا تلمسوها بعد الآن.. ما تفعلونهُ حُمق وجنون مبالغٌ فيه.. إنَّها لا تعرف شيئاً "

فورَ أن قلتُ ذلك؛ استدارَ وباشرَ بمغادرة منزل بانكرافت وهوَ يقول: "... إذاً هي لم تخبركَ بشيء أيضاً".

تبعتهُ إلى خارج المنزل: "إنها لا تعرفُ شيئاً!!!".

- "... حسناً، ... كما تقول... لنعدْ إلى المنزل".

- "أوقفوا ضربَها وتعذيبَها، إنَّ ذلكَ مضيعة للوقت".

- "كل ما يحصلُ هو بسبب وقتنا الضيق..". قال كلماته تلك، وركبَ سيارته وغادرَ.

لعنتهُ في سرّي وركبتُ سيارتي وغادرتُ عائداً إلى المنزل. كنتُ كلما أتحركُ أرى سيارة أخرى تتبعني.. ما كانوا ليتركوني بسلام.. نظرتُ إلى الأشجار على جانب الطريق، وتساءلتُ: "أين أنتِ يا لوسيا "؟ ودعوتُ أن تكون بخير.

عدتُ إلى المنزل مع مجموعة من الرجال، حيث كنتُ معهم أوجّههم إلى أينَ ينبغي عليهم الذهاب في البحث الكاذب الذي كنتُ أرشدُهم فيه على مكان لوسيا المحتمل. تفرَّقَ الرجال؛ حيثُ كنَّا قد اتفقنا على أن نأخذ قسطاً من الراحة. وعلى الرغم من أنّني كنتُ فعلاً أرتاحُ، كانوا هم لا يهدأ لهم بال، ويحرصون على البحث في كل مكان مرتين منذ الليلة الماضية.

فقط بقائي معهم، جعلني أدركُ أنهم مصممون على قتل لوسيا، وعلى أداء طقس الأضحية. ولم يحتج هذا الأمر من أوين مارشال الكثير ليقنعَهم. كلمة واحدة عن حياتهم، ووعد الثأر القديم، ومستقبلهم؛ غسلتْ أدمغتهم دون هوادة في ثوانٍ معدودات. وكلما رأى في عيونِ رجاله تمرداً أو تعباً على مطالبهم في البحث المتواصل منذ البارحة،

كان يزيدهم من ذلك الخمر المعسول المسموم الذي ينطق به؛ فتعود لهم الحياة، وتدبُّ في أوصالهم الطاقة، ويصبحون طوعَ طلباتهِ وأمرهِ.

علمتُ أنَّ لوسيا لا تملكُ فرصة أبداً.. كان عليَّ إنقاذها بكل ما أستطيع، أو أن أكسبَ لها الوقت، وأدعو أن تكون قد نجحت في الهرب إلى أبعد نقطة ممكنة.

عندما عدتُ إلى المنزل؛ وجدتُ والدي يجلس في الحديقة ينتظرني، حيث نهضَ واقتربَ يسألني. لكني أجبتهُ قبل أن ينطق: "لا أثرَ لها".

ظهرَ الغضب والنزق على وجهه، ولم يحدّثني. بل أطلقَ سباباً، ورأيتُ في عينيه خوفاً وهلعاً ونفاذ صبر من اختفاء لوسيا.

قلتُ له: "أبي، ربما يمكننا أن نبحث عن طريقة أخرى لشفائكَ".

- "لا يوجد طريقة أخرى، لا حلَّ آخر، دماؤها هي دون سواها، لقد وضعنا كلمة عند الناس، وأخبرناهم أنَّ دورها حان وفقاً للمجلد القديم، لكي نقنعهم بأداء طقس الأضحية في وقت متقارب، وهو أمر يُثير الريبة بحد ذاته. إذ لم يمضِ سوى ما يقارب الشهرين. وإن تراجعنا الآن وبدّلنا اسم الشخص؛ فسوف نفقد ثقتهم.. آسف يا بيتر، ولكن يجب أن

تكون لوسيا". قال ذلك الكلام أوين مارشال، الذي كان يجلس مع أبي وشقيقي الأكبر ماركوس في بيت الحديقة.

نظرتُ إليه؛ أحاولُ احتواء نظرات الكره والغضب ما أمكنني.

قال والدي: سنجدُها، لا يمكن أن تكون قد ابتعدتْ كثيراً، لقد تواصلنا مع أعواننا خارج بارادايس شيل، ومالم تكن قادرة على الاختباء فعلاً وعلى التخفّي؛ فلن تعبرهم".

- "والآن وقد جفَّ مطر البارحة، يمكننا أن نستخدم الكلاب". قال ماركوس أخي الأكبر، الذي كان يجلس معهم.

- " كلاب؟" سألتُ

- "سوف نستخدمُها لتقفي أثر رائحتها.. قد نصلُ إلى شيء "

- "ولكن ظننتُ أنَّ جميع الكلاب محبوسة في الآونة الأخيرة "

- "الكلاب تستشعرُ وجود شيء أسود شرير في الهواء.. لهذا هي ثائرة،.. ولكن لهذا السبب قد تقودنا إليها.. علينا أن نحاول على الأقل". شرحَ أخي ماركوس بكل بساطة، وقد قطعتْ كلماته

قلبي، كونه يتحدث عن اقتياد الفتاة التي يعرف أنني أهيمُ في عشقها، إلى موتها المحتم بكل برود وجمود.

- ".. سأذهبُ إلى غرفتي لأرتاح،... سأخرجُ مع الرجال لنبحثَ في نفس الأماكن التي أعرفُ أنَّ لوسيا تحبُّ الوجود فيها،.. قد تظهر وتقترب مني، كونها تأتمنُني".

- "لم يعد هناكَ داعٍ لخروجكَ". نطقَ أبي أخيراً

- "ماذا تعني؟"

- ".. سنجدُها نحن، وجودكَ لن يشكّل فرقاً، أعلمُ أنكَ تحاولُ حمايتها؛ فهي الفتاة التي كبرتَ معها، ولكن هذا الموضوع أكبر من مجرد صداقات طفولة يا بيتر".

لم أتحدَّث.

- "أيضاً،.. بالمناسبة... اذهبْ لترتاح.. تحتاج الراحة "

- "لِمَ؟ ماذا سيحصل؟"

- ".. سوف تنضمُّ إلينا أخيراً "

لم أفهم ما يعنون تلك اللحظة!.. ولكنَّ نظراتهم أخبرتني أنهم لن يشرحوا لي شيئاً.

صعدتُ إلى غرفتي، وقبل ذلكَ تأكدتُ أن لا أحد يراقبني، ودخلتُ إلى غرفة عمتي مارجيت.

اعتذرتُ منها: "آسف، طرقتُ الباب سريعاً ودخلتُ". كنتُ أعطيها ظهري.

قالت: "يمكنكَ أن تنظر إليَّ يا بيتر، لقد كنتُ أنتظرك "

نظرتُ إليها فعلاً، وقد كانت تجلس على كنبتها. نهضتْ بسرعة نحوي وعانقتني وقالت: "أنا سعيدة لأنكَ بخير.. أخبِرْني بما حصل"

أخبرتُها أني ضلّلتُ تحركات رجال البحث طوال الليل، وأننا عدنا الآن بعد ما لم يجدوا لوسيا أو أيَّ أثر لها، أو لم يجدوا أيّة معلومات لأيّ أحد رآها، وكأنَّ الفتاة اختفتْ من سطح هذا الكون بكل بساطة.

قالت: أحسنتَ صنعاً، لقد قمتَ بعمل رائع، إنَّ لوسيا محظوظة لكونكَ إلى جانبها.

- "لم وجهكِ مايزالُ حزيناً هكذا؟، أخبريني يا عمتي.

- ".. إنهم ينوونَ جعلكَ تقتل لوسيا حينما يقبضونَ عليها،.. يحتاجون تعاونكَ الكامل، ويريدون ضمَّكَ إلى صفوفهم".

تقلَّصَ قلبي إثرَ كلماتها، ولم أجد شيئاً لأقوله.

".. منذ البارحة وأنا أعاني لاستيعاب أنَّ من عشتُ معهم، يملكون هذه القلوب المتوحشة. وأنهم كانوا مجرد قتلة لا يعرفون الرحمة. يؤمنون بخرافات تاريخية حمقاء، لا أصدّق أنَّ هذه كانت عائلتي"

قلتُ كلماتي الأخيرة بخيبة أمل تسحق روحي، وبألم عظيم لا يمكنني وصفهُ.. احتضنتني عمَّتي بكل لطف وحب، وقالت: "أنا آسفة... آسفة جداً... أنتَ لا تستحقّ أياً من هذا.. في العادة يخبرونَ الشخص بعد أن تكون في حوزتهم الضحية، وهم يوشكون على المشي إلى الضريح لقتلها،.. لكن أنتَ علمتَ بكل هذا بأسوأ طريقة ممكنة. أنتَ تُعاونهم في البحث عن حبيبتكَ التي هي ضحيَّتهم، وفوق كل هذا قرروا أنَّهم سيجعلونكَ تقتلها بيديكَ... بشاعة لا يمكن وصفها!"

أومأتُ لها، ثم سألتُ: "أين هي لوسيا يا عمتي؟"

- إنها بخير يا بيتر

- "وكيف تعلمينَ أنتِ أنها بخير؟"

- "لأنني خطّطتُ لهذا منذ سنين يا ولدي... سنين". لمعتْ عيناها بنور غريب.

"وهل يجري كل شيء كما تخططينَ له؟". نظرتُ إليها وكأنني أرجوها أن تبقى هي منقذتي.. لا أريدُ أن أسمع عن أيَّة فظاعة ارتكبتْها بدورها.

"كلا... لم تكن لوسيا اختياري... لم أكن أريدُ جعلكَ تعاني، لكن.. ربما هذا هو الأفضل. أنا أثقُ بكَ، ومتأكدة أنكَ في صفّها قبل أن تكون في صفّي"

"إذاً أخبرني.. أينَ هي؟"

أجابتْ: "المكان الذي يخشاهُ جميع سكان بارادايس شيل دون استثناء"

"وأين هو؟". سألتُها بدوري

الضريح الذي يؤدُّون فيه الطقس، إنهُ أسفلهُ.. إنهُ مكان لا ينزلُ إليه أحد، فقط يلقون بجثثهم فيه،.. لقد نزلتُ عدة مرات، ويمكنني أن أستوعب لمَ لا ينزلُ إليه أحد. إنَّه مكان مشؤوم مرعب، ويسبب لروحكَ الغرق".

"كيفَ ستبقى هناك؟". حاولتُ التفكير قبل أن تجيبَني هي.

- ".. إنها ليستْ وحدها.. لقد وضعتُ معها أشخاصاً آخرين أثقُ بهم".

- "مَن هم هؤلاء؟. علمتُ انَّ خادمتها إزميرالدا في

منزلهم، ولم تغادر معها".

- "أحياناً أفضلُ الناس لك ولمصلحتكَ، ليسوا مَن هم حولكَ وقريباً منكَ يا بيتر.. أحياناً الغرباء يُعيدونكَ إلى الحياة، بينما يقتلكَ الأقربون".

- "ما دمتِ تثقينَ بهم... سأفعلُ.. لكن مَن هم؟".

- ".. تيموثي بارنز"

- "السكّير؟!!! تثقينَ بحياة لوسيا مع سكّير؟".

- ".. ولأنّه سكّير.... أثقُ بغطائهِ.. بينما لن يثقَ الآخرون به،.. بالإضافة إلى محقّقيْن في الخوارق: ماريا وفيكتور"

- "اللذانِ حدثتْني لوسيا أنّهما يحققان في اختفاء سالي، عندما كنتُ عندها في عزاء والدها".

- ".. أجل"

- "كنتُ أظنُّها تمزح!... هل سالي تمَّت التضحية بها أيضاً؟".

- "....أجل... أجل"

وضعتُ يدي على رأسي الثقيل، ثم دلَّكتُ ما بين حاجبيَّ؛ للتخلص من صداع مباغت: "يا إلهي"!

- "في الحقيقة،... عندما حادثَ أوين مارشال

والد لوسيا، علمنا أنَّ الأضحية كان يجب أن تكون لوسيا في تلك الليلة،.. وأنَّ لوسيا كانت غاضبة وغادرت المنزل. وكما يبدو أنَّ الرجال اخطؤوا، وألقوا القبض على سالي بدل لوسيا،.. وتمَّت التضحية بسالي بدلاً عنها".

نظرتُ إليها بكل صدمة! وأنا أسمعُ هذه الحقائق المفجعة تتساقط عليَّ.. سألتُ: ".. في أيِّ يوم؟... منذُ اختفاء سالي؟"

شرحتُ لها، بينما أنا الذي كنتُ أحتاجُ لأن أربطَ جميع الخيوط معاً في عقلي: "لقد كنتُ أنتظرُ لوسيا يومها، وجاءت سالي متنكرة كأنّها هي. في البداية خُدعت، ولكنّي كشفتُها وقد كنّا في موقف حميم. وكان ذلك عندما رأتنا لوسيا واقتنعتْ أنني أخونُها وغادرت بارادايس شيل غاضبة، وغابتْ لمدة دون أيّة طريقة للتواصل معها، أو لجعلي أشرحُ الحقيقة لها على الرغم من محاولاتي الكثيرة.. لم ألتقِ بسالي بطريقة مباشرة أيضاً. وفي تلك الفترة اختفتْ هي بدورها! كانت الشقيقتان دوماً في خلاف، ولكن كان هذا أكبر ما حصلَ بينهما، خاصةً أنَّ والد لوسيا يفضل سالي عليها دوماً،.. فهي تطيعهُ بلا أسئلة،.. على عكس لوسيا المتمردة. لوسيا لم تبالِ باختفاء سالي، ولكن عندما طالَ

غيابها؛ بدأتْ تقلقُ خاصةً بعدَ تراجع حالة والدها الصحية، وعادت إلى هنا... هل في تلك الفترة كانت سالي قد اختفت؛ لأنهُ تمَّ التضحية بها؟"

أومأتْ لي عمتي مؤكدة ما أقول، وكانت تلك الإيماءة هي ما حطمتْ كل ذرة بقيتْ لي من قوتي. وانهرتُ أبكي في حضنها، سألتُها: "هل كان والدي هو مَن أمرَ بقتل سالي؟"

شرحتْ لي عمتي: "كلا، والدها هو مَن فعل،.. أمرَ بقتل لوسيا.. ولأنها تتشابهُ مع شقيقتها، ماتتْ سالي بدلاً منها "

".. هذا لا يُعقل ولا يصدَّق،... كم شخصاً ماتَ ونحنُ نعيش على حسابه الآن؟"

"الكثيرون يا بيتر، الكثيرون... ولن تنتهيَ هذه الدائرة الملعونة، مالم نضعْ لها حداً بأنفسنا".

"إنهم ينوون إخراج الكلاب للبحث عن لوسيا". أخبرتُها وأنا أنتحبُ بلا حيلة.

- "ولكنَّ الكلاب غير مفيدة الآن،.. إنها هائجة وثائرة "

- "إنهم يعتبرونها أملهم الوحيد الآن،.. إنهم كطائفة دينية يتبعون كلام أوين مارشال دون نقاش،.. لا يريدُ أوين أن يتنازلَ عن البحث عن

لوسيا؛ فيبدو أمامهم كالضعيف الذي يغيّر كلمته بعد أن وعدهم، وأعطاهم كلماتٍ أشعلتْهم ناراً بخصوص القبض عليها "

لم تقلْ عمتي شيئاً، ثم أكدت لي: "سنفعل شيئاً.. لا تقلق.."

- "كيفَ لا أقلق؟"

- "عليكَ أن تكون قوياً وتظهر قوياً،.. لوسيا تحتاجُ قوتكَ الآن أكثر من أي شخص آخر،.. عليكَ أن تحميها،.. بخداعهم أنكَ في صفهم "رفعتْني عن حضنها وهي تقول هذه الكلمات. تنظرُ إلى روحي وتسقيني من صلابتها التي عرفتُها بها دوماً.

- "حسناً سأفعل".

قبّلتْ عمتي جبيني، شعرتُ أنَّ قبلتها وكأنّها قبلة أم لولدها، أكثر من كونها لابن أخيها،.. تقبلتُ قبلاتها واحتضانَها لي، وشعرتُ وكأنها أمي فعلاً التي أحتاجُ إلى دعمها ومساندتها في هذا الوقت المدمّر.. لا أجدُ كلمات تشكرُها كفاية على تدخُّلها لإنقاذ لوسيا.. لو لم تكن موجودة.. لو لم تكن عانتْ كل ما عانتهُ قبلاً،.. لكانت لوسيا في عداد الموتى.

خرجتُ من غرفتها متسللاً... وذهبتُ إلى غرفتي

التي أعلمُ الآن أنهم لن يسمحوا لي بالخروج منها، إلا عندما يجدونَ لوسيا لكي أقتلها،.. ودعوتُ الله ألّا أخرجَ منها أبداً!

فيكتور

نحنُ الآن نقبعُ في مكان لا يصله نور الشمس، لا يتجدد فيه الهواء سوى من مداخل محشورة بين الحجارة، لولا مصابيح الإنارة الزيتية والمشاعل لكنّا بين أجواف القبور.

بفضل ساعة معصمي علمتُ أننا استغرقنا ساعات في نقل الحاجيات التي وفّرها تيموثي بارنز لنا، وجدنا أغطية وفُرش، فحرصتُ على ترك الآنستين لترتاحا في غرفة وجدناها عندما تقدَّم سيرنا.

كانت تلك القلعة المقلوبة مثيرة للإعجاب والرهبة،.. فيها تفاصيل تجعل من المستحيل التقدم عبرها مثل السلالم المقلوبة. ولكن كان هنالكَ دوماً طريقة،كنّا نستطيع التنقل عبر الطوابق عن طريق تحطيم خشب الأرضيات المتآكل، فنقفزُ إلى الطابق الأسفل، أو الأعلى.. كان الوضع محيّراً جداً،.. إن كانت هذه قلعة مقلوبة، فهل يعني هبوطنا الطوابق أننا في الحقيقة نصعدُها؟ أم هل صمّمت القلعة ببناء مقلوب ونحنُ الآن نهبطها؟.. باختصار، كان كل شيء بشأنها غريباً وعجيباً ومخيفاً.

استغلّيْتُ وقت راحة الآنستين، في البحث عن

طريق يمكننا سلوكهُ مستقبلاً.

بعد فترة الراحة، كنَّا ننزل ونستمرُّ في النزول، ونحن نتقدم ببطء نحمل مؤونتنا،.. لقد بقينا ننزل ببطء لساعات، نحمل مؤونتنا ونستكشف الطريق بحذر، حتى نصل إلى غرفة آمنة، ونضعُ فيها الأغراض ونستريحُ، ثم نستكمل مسيرنا.

فكلما كانَ موقعنا غائراً، كان ذلك أفضل؛ لنستعدَّ أكثر لمواجهة أيّ شخصٍ كان ممّن سينزلون إلى هنا.

وبعدما وصلنا إلى عمق معين، بدأت السقوف ترشح الماء بلا توقف. أحياناً كنا نتقدم دون مؤونة، فقط لنستكشف المكان ثلاثتنا،.. ووجدنا هذه الطوابق الغارقة في المياه، كانت متهالكة ومتصدعة ولكنَّ أساساتها القوية أثارت إعجابي!.

ماريا: "هذا هو المكان الذي حلمتُ به".

- "إذاً.. فقد تكون سالي هنا".

- "جثة سالي؟.. مَن أحضرها كل هذه المسافة إلى الأسفل؟".

كانت لوسيا مقتنعة أنَّ هنالك من هو حيٌّ معنا في الأسفل، فهيَ على عكسي أنا وماريا، لا يمكنها الإحساس بالموتى أو حتى رؤيتهم. بينما ماريا

كانت تراهم في كل لفّة وزاوية وتشعر بهم.. أحياناً تنظر حتى إلى زوايا محددة لفترات طويلة ومفاجئة. وأحياناً تحادثُ نفسها بصوت خفيض..

كانت تلكَ أول مرة أراها بتلك الحالة.. خفتُ أنْ يتسبَّب بقاؤنا هنا في الأسفل فقدانَها عقلها في النهاية، بعد أن تستنزف كل طاقتها.. لهذا كنتُ أحرصُ أن ترتاح كثيراً.. وضعتُ باطن كفّ يدي على عيني اليمنى، وأنا أشعرُ بالذنب... لقد كان المكان غارقاً في الدخان الأحمر،.. وكانت عيني أشبه بالعمياء، لا فائدة منها في البحث أو رؤية أية شيء..

فجأة نهضت ماريا من مكانها، وأمرتنا: "ابقيا هنا
"

فاجَأنا خروجها من الغرفة التي كنا نجلس فيها بكل عزيمة، تبادلنا أنا ولوسيا نظرات تساؤل سريعة فيما بيننا، ثم لحقناها واعترضتُ طريقها: "ماريا.. ماالذي أصابكِ؟"

بقيتُ أنظر في عينيها، وأنا أسألُ نفسي ماالذي تلبَّسها؟، لكنها نظرتْ إليَّ بثبات وقالت: "مابكَ؟... إنني أحتاجُ أن أحضرَ أحداً إلى هنا".

سألتُها: "تحضرينَ أحداً؟.. عن ماذا تتحدثين؟".

أجابتني وهي تتلفّت في المكان" مارجيت ستروم، ... لقد نزلتْ إلى الكهف... وأظنُّ أننا يجب أن نلتقي بها يا فيكتور.. ففي النهاية هي مَن خططت لنجاة لوسيا من كل ما يجري... "

- "كيف عرفتِ بشأن وجودها هنا؟". كان من الغباء سؤال ماريا عن شيء كهذا، فهي تملكُ ما يمكّنها من معرفة أشياء بسيطة كهذه، وإن كانت خلف حاجز قدرات البشر العادية.

"غفوتُ وحلمتُ بها تنزل إلى هنا". فسَّرتْ لي ببساطة.

علّقتُ: "ولكنكِ لم تري وجه مارجيت ستروم من قبل!".

"إحساسي يُخبرني أنّها هي".

"لا يمكنني أن أتركَكِ تذهبين وفقاً لإحساسك!". كانت كلماتي تستفزُّ إصرارها.

"لا تضيعْ الوقت يا فيكتور.. إن لم نقابلها سريعاً، فسوف تضيع المرأة وقد لا نتمكن من إيجادها".

تجاوزتني بكل إصرار عائدة في الطريق الذي سلكناه هبوطاً، تبعتُها أنا ولوسيا، وصُدمتْ أعينُنا؛ فقد وجدنا مارجيت ستروم تقف وهي تحمل مصباحاً زيتيّاً، يعتري نظراتها الخوف، وكأنما تبحثُ عن

وسيلة للتقدم واللحاق بنا. وقفتْ تنظر إلينا بكل صدمة!، قالت ماريا: "لنتحركْ من هنا.. متأكدة أنَّ نزول السيدة ستروم إلى هنا ليس لكي تطمئنَّ علينا وتلقي التحية فحسب".

أومأتْ مارجيت برأسها مؤكدة كلام ماريا، كان التعب والإرهاق يبدوان عليها، فيبدو أنها كانت قد نزلت إلى الكهف منذ ساعات، ولم تلتقط ماريا أثرها إلا عندما غفتْ. سألتُها: "مالذي تفعلينه هنا يا سيدة ستروم؟ وما الذي يجري في الأعلى؟"

ردَّت مارجيت: "جئت لأحذّركم بأنَّ عليكم التوغل أكثر وعدم التوقف،.. إنهم سيكشفون أمر وجودكم هنا.. إنهم يستخدمون الكلاب في تقفّي أثر لوسيا".

"إزميرالدا... ماذا عنها؟". سألتْ لوسيا بخوف

"..لقد.. لقد تحملتْ الضرب والتهديد لأجلكِ". وضعتْ لوسيا يدها على فمها غير مصدقة، وبدأت عيناها تمتلئان بالدموع.. وضعتْ مارجيت يدها على كتفيها، وقالت: "لا تقلقي، سيدفعون الثمن... أنا متأكدة!".

وبينما كنتُ أتفقد وضع طريقنا القادم، سمعتُ صوتاً أوقفني عن التنفس، صوت لم أتوقع أني سأسمعهُ بهذه السرعة، أصوات أقدام!.. لقد نزلَ

الرجال إلى هنا! وعلى الرغم أنهم مايزالونَ بعيدين، إلا أنَّ كوننا أسفلهم وبسبب شدة هدوء المكان، فقد كانت أصوات ضجّتهم تصلنا.

تبادلنا النظرات سريعاً، وقد أدركنا أننا في خطر أسرع ممّا توقعنا. أمسكتْ ماريا يد لوسيا.. وبدأتْ بسحبها بلا أيّ تأخير لنتحركَ جميعاً بخطوات سريعة هادئة، لكي لا يصل وقع أقدامنا إلى مسمع أحد. عبّأتُ المسدسات التي أحضرها تيموثي مع الطلقات وجهّزتُها، وبدأنا بالتحرك بالنزول أكثر في هذا القصر المقلوب الغارق في العجب.

أوين مارشال

لا ننظرُ أحياناً إلى شكل وسيلة الوصول إلى غاية ما، بل نكتفي بأن تكون وسيلة ذات نفع وجودة. الأمر الهامّ هو أن تثبتَ وجودكَ في الدور الذي تعطيكَ إياه الحياة.

هاجتْ كما توقعتُ، تطلّبتْ السيطرة عليها جهداً بالغاً. الكلاب هي مخلوقات تستشعر الخطر والشر.. ما كنتُ أقفُ في مواجهته الآن كان الحقيقة، التي عملتُ على تجنّبها لسنين كما فعلَ والدي ومن قبله أجدادي. لطالما كانت مهمة عائلة مارشال هي الحياد. حفظ الدماء والحقوق التي سُلبت منذ سنين على أرض بارادايس شيل، الدماء التي سُفكت ظلماً لا يمكن أن تجفَّ إلا بسفكِ مزيد من الدماء. العوائل التي اختصمتْ وفقدت فلذات أكبادها، لن يمنعها شيء من حمل السلاح مجدداً، وغرزهِ في أعناق أعدائها.. ولكنّنا نجحنا في منعهم من الخصام والعودة إلى الحرب، وإزهاق مزيد من الأرواح البريئة دون جدوى.

لقد حفظْنا حقوقهم في مجلّد بارادیس، كتبنا فيه بالدماء أسماء جميع من ماتوا وتمَّ الفتك بهم في حروب الزمن القديم. ولم تهدأ الأنفس إلا عندما سطّرنا حقوق الجميع،.. ووعدناهم بعودة حقّ دمائهم

إليهم وإلى أرضهم. وعدناهم أنَّ مَن قتلوا فلذاتِ أكبادهم ظلماً سينالون ما يستحقون.. وسرعان ما سوف يذرفون الدماء تعويضاً لهم.

إنهُ إرثنا.. إرثُ بارادايس شيل وسكانها. نحنُ نرثُ القتل، والدماء،.. والحقد.. إنه إرثٌ يحفظ بقاءنا مسالمين معاً.. وعلى يد واحدة... وإرثٌ يضمنُ للجميع حقهم. الدماء هي كل شيء. هي ماء الحياة، وشجرة التعريف.. بل إنّها السلاح الذي يحافظ على أرضنا هنا.

مجلَّد بارادیس هو القانون هنا.. هو الدين.. لا يجوز مخالفتهُ، وتعليماته واجبٌ علينا تطبيقُها. في كل فترة عندما تصبحُ الأحوال صعبة، تكثرُ الجرائم وتصبح النفوس ثقيلة وسوداء.. عندما تهتاج الحيوانات وتهاجر وتصبحُ الغابات مليئة بالهمسات.. يجبُ أن تقدَّم الدماء.. فالظلام القديم قد عاد.. ويدلُّ أنَّ الأنفس لم تعد راضية. نختارُ عندئذٍ اسم العائلة التالية من قائمة مجلّد بارادايس، العائلة التي ارتكبَ أحدُ أسلافها جريمة قتل بغير حق، والآن على أحد أحفادهِ أن يدفعَ الثمن لما فعلَ؛ لتهدأ الأرواح وتتنفَّس الأرض من جديد.

يتفقُ أهل الضحية فيما بينهم ليرشحوا أضحيتهم، الشخص الذي يفقدُ مكانته كإنسان بيننا مباشرة.

في البداية يقاومون ويحاولون التملص إنقاذاً لحياته ويتشفّعون له.. ولكنّهم سرعان ما يقعونَ تحت تأثير الفساد..

لمَ ابنكم يعيش.. بينما ماتَ ابني؟

لمَ يبقَ لكم... وقد سُلبَ منّي؟

أنا لستُ سوى رجل يملكُ كلامه فقط. لا يمكنني أن أجرَّ بنفسي شخصاً وربما أكثر وأرغمهُ على دخول التابوت، وانتظار أن يلقى حتفه. أنا لا أملكُ سوى كلمتي فقط. كل ما أقولهُ هو اسم العائلة التي تحمل الدور بحسب مجلد بارادايس. وثمّ يتجمّع حول العائلة جيرانهم وسكان البلدة كالوحوش الجائعة.. هم يحدّثونهم.. هم يقنعونهم... هم يغسلون أدمغة بعضهم.. وفي غضون ساعات، تكون الأضحية التي لم تعد بشراً في نظرهم أمام قدميَّ.. جاهزين جميعاً لقتلها.. سواءَ كانوا جيرانها، أصدقاءها.. وحتى أفراد عائلتها.

أنا لا أملكُ سوى كلمتي،و هم يملكون وساوسهم وأحقادهم والشر المتأصّل فيهم، والذي لن يغادرهم أبداً؛ لأنهم يتشبّثون به، وقد اقتنعوا أنَّ حياتهم لن تمضيَ إلا به.

لا يرونَ في الماضي سوى مستقبلهم.. ولا يفهمونهُ.. تسيّرهم أبشع العادات والتقاليد، وأكثرها

وحشية على الإطلاق.عادات وتقاليد قتلِ أحبابهم بدم بارد.. أخذاً لثأرٍ قديم من جريمة فعلَها أجدادهم، وهرمتْ مع الدهر. حتى إنْ حاولَ أحدهم الهروب.. فهم من يجتمعون ليبحثوا عنه ويجدوه ويكبّلوه.. وإن لم ينجحوا في العثور عليه، تنتقل اللعنة التي يسلطونها باختيارهم إلى أحد أفراد أهله قريباً كان أم بعيداً... لا يدفنون حقدهم ولا يودّعونه أبداً،.. تصبحُ أعين الشياطين اللامعة والماجنة والمتعطشة للدماء هي ما يحرّكهم. كلمتي هي ما تحفظ نظامهم، هي ما يتبعونها دون نقاش. نصَّبوني حاكماً عليهم أتحدثُ بلسانهم.. وأنا لستُ سوى واحد منهم.

مهمتي كانت أن أحفظَ تركيزهم على هدف واحد.. لكي لا ينفجروا ويعيدوا قتل بعضهم بعضاً.. فهم الآن متعطشون للدماء.. لا يرون سوى الأحمر القاتم.. ولا يشمّون سوى رائحة الحديد الصدئ... كانت تلك هي لعنة بارادايس شيل التي حفظوها بأنفسهم، ولم يسمحوا لها بالموت أبداً..و لم يسمحوا لأنفسهم أن يتطهّروا منها.

السنوات التي قضيتُها لأقنعَهم بعدم النزول إلى المكان الذي نلقي فيه الجثث بعد طقوس التضحية، لم أفلح في كسر هذه القاعدة اليوم في غضون

ساعات.. بعد أن نجحت الكلاب بأعجوبة بتقفّي أثر لوسيا إلى هذه النقطة. الرعب والجنون بدأ يدبُّ فيهم، لا يؤمنون أنَّ هنالك نقطة ينزلون إليها بعد شقّ الجدار المظلم ذاك.. لا يؤمنون أنه يوجدُ جانب آخر سوى الجحيم ينتظرهم.

وجدتُ نفسي أنا وحفنة من الرجال المترددين فقط، نكوّن مجموعة صغيرة للنزول،.. ونتهيّأ بأسرع وقت لهذه الفعلة.. لم أكن لأعلمَ ما يمكن أن يجري لقومي عندما أختفي، وتنقطع كلماتي عنهم،.. فهل كنتُ سأعود لأجدهم قد غرقوا في بحيرة دمائهم؟. الذعر بدأ يسيطر عليهم، وعليَّ التحرك سريعاً قبل أن يفقدوا الأمل الذي لا يجدونه سوى في كلماتي..

إنهم الآن يتحدثون عن وجود شرّ حقيقي يفسرون به أوضاع حياتهم البائسة، واستغرابهم من قيامنا بأداء طقس تضحية جديد في هذه الفترة المتقاربة، وكأنهم يرون انتشارَ وباء سيقضي عليهم، وأنَّ الوقاية منه والسلامة تكون بقتل لوسيا.. إن لم يحصلوا على دمائها؛ فهم هالكون لا محالة.

مضحكٌ أنهم حتى وهم في هذه الحالة، وقد تذكروا أنَّ القتل كان لحبس شر دفين.. مايزالونَ مصرّين على البقاء في هذه الأرض، رافضين

مغادرتها. مايزالونَ مؤمنين أنهُ بمجرد أن يموت أحدٌ منهم، فسيكونون هم بخير.. مايزالونَ يتحلون بالأمل.. في رؤية الدماء تُهدر وتُسفك. لم أجد إلى جانبي سوى بضعة رجال، لم يدفعهم سوى رعبهم إلى اللحاق بي. أرادوا أن يتأكدوا من القبض على الفتاة فقط، لهذا نزلوا معي.

يمكنني أن أسمع أصوات ارتجاف عظامهم وطقطقة أسنانهم،.. إنهم ينزلون إلى المكان المحرم، إلى المكان الذي أكلَ جثث الكثيرين ممَّن قتلناهم طوال سنين. هل كانوا خائفين من رؤية تلك الجثث؟ هل كانوا خائفين من سماع أصوات الأرواح التي ربما ماتزالُ تصرخ بعد أن حبسناها هنا؟ ولا حتى حظيتْ بدفنٍ لائق؟ تساؤلاتي كانت تعكسُ خوفي أنا.. ولكنَّ خوفي من كسرِ كلمتي، كان أكبر من خوفي من مواجهة أيِّ شيء كان يقبع هنا في الأسفل.

سرْنا معاً نضيء طريقنا بالمشاعل وبالمصابيح الزيتية، نتسلحُ ببعض البنادق والمسدسات. نسيرُ في طريق مزخرف طويل. لم تكن تلك مرَّتي الأولى هنا في الأسفل، على عكس بقية الرجال، بحكم منصبي. فلقد نزلتُ إلى الأسفل عدة مرات من قبل،.. لكن هذه أول مرة أنزلُ إلى المكان وهو بهذه

القوة.. قوة يمكنني أن أشعر بها.. وكذلك الرجال الذينَ توقفوا في مكانهم للحظات، وهم يرون أنهم يدخلون إلى مبنى قلعة مقلوبة، تمتد جذورها إلى باطن الأرض.. كل شيء فيها مقلوب، وفكرة أنَّ بناية عملاقة بحجمها قد قلبتْ رأساً على عقب، جعلت بعضهم يفقد قدرته على المشي وينسى شجاعته، ويهرول هارباً.تابعَ الباقون السير معي في الطريق، حتى بدؤوا يسمعون الأصوات..الأصوات التي خلّقَها خوفهم، ذنبهم، رعبهم؛ ليبادروا بالصراخ ويهربوا. منهم من نجحَ في العودة إلى السطح، ومنهم من طالَ سمعي صراخهُ؛ فقد أضاع طريقهُ في متاهات هذه القلعة العملاقة.

أصبحتُ وحيداً في ذلك القبر السحيق، لم تُخفني وحدتي؛ فأنا أؤمنُ أنني وقفتُ في جانب الصواب، أنا وعائلتي: والدي وجدّي من سبقاني،.. لولانا لكانت دماء أكثر سُفكت، لولانا لكانت الدماء تُسفك حتى الآن، لقد ضمنّا حقّ الأحياء والأموات، ولا شيء يجعلني أخافُ الآن؛ فقد كنتُ أفعل الصواب.. الصواب الذي كان صعباً، ولم يتمكن أحد من فعله والالتزام به..

كنتُ متأكداً ممّا أفعله.. لهذا لم تتراجع خطواتي أو ترتعد. أكملتُ النزول وهبطتُ وهبطت وهبطت.

ظللتُ أبحث.. ثم همستُ: ".. لكل هؤلاء ممّن فقدوا حياتهم مؤمنينَ بي... وبما أؤمنُ به... ولأجل كل الخير الذي حرصتُ على أن يعمَّ بيننا... لكلّ مَن ماتَ راضياً... أرشدوني لأحفظَ أبناءكم وأحفادكم من شر الأرض!".

و في لمح البصر، بدأ الخشب يصدر صريراً أمامي.. وكأنَّ مساميره الصدئة تخرج. لم أكن أستطيعُ رؤية أيّة أرواح، ولكني أحسستُ بها وأعلمُ أنها جميعها هنا. قد يكون هنالك عشرات الذينَ صرخوا وقاوموا مصيرهم، ولكن هنالك العشرات أيضاً الذين آمنوا أنَّ موتهم هو لمصلحة أكبر،.. لحفظ الدماء.. ولإرواء عطش الشر. هؤلاء الأموات لن يخونوني الآن.. ولو خانني الأحياء.

تبعتُ صرير الخشب الذي لم يتوقف، بل كان يزداد وكأنه يرشدني إلى الطريق،.. تابعتُ الهبوط حتى وصلتُ إلى غرفة توقفَ أمامها الصرير... وألقيتُ نظرة داخلها. وجدتُ الفتاة لوسيا تقف في منتصفها،.. عيناها مليئتان بالدموع.. تنسابُ على خديّها بصمت.. تنظرُ إليَّ وهي ترتعد.

دلفتُ إلى داخلها بعد أن قفزتُ العتبة الكبيرة،.. نظرت إليها، وقبل أن أحثّها على مرافقتي، شعرتُ بأنَّ ضربة عنيفة قد سددتْ إلى روحي.. وسقطتُ

أرضاً، لم يكن الفاعل بشراً بكل تأكيد! عانيتُ للنهوض ولاستعادة اتّزاني. وفي تلك اللحظات كانت لوسيا قد هربت من الغرفة بمساعدة شابة أخرى، وقد توجَّه نحوي رجل سيطرَ على حركتي، وأخذ الأسلحة مني، وهمّ بربطي ليمنعَ حركتي.. ولكن وسط دهشتي ومفاجأتي.. كانت الأربطة التي يربطني بها تنفلتُ من تلقاء نفسها.. مهما عاودَ ربطها، فهي لا تبقى مربوطة..

لقد كانت الأرواح التي تؤمنُ بي تساعدني، عندما أدركَ ذلك، تناولَ قطعة خشب، ولوَّح بها نحو رأسي، وفقدتُ وعيي.

عُدنا إلى داخل الغرفة عندما نادانا فيكتور، فما كنّا لنبتعد عن المكان من دونه. فورَ دخولنا، قال بعجل: "ماريا، أيمكنكِ أن تفعلي شيئاً؟ هناك أرواح تساعد هذا الرجل!".

نظرتْ ماريا نحو أوين مارشال. طلبتْ مني البقاء خلفها، ثم تقدمت هي من جسده الفاقد للوعي، ورأت بأم عينيها الأربطة التي كان فيكتور يحاول إحكامها عليه تتحرك من تلقاء نفسها، وتبتعد عنه لتبقيه حُراً.. وجهتْ يدها نحوه، وقالت: "اربطاه سريعاً بينما أبقي الأرواح بعيدة عنكما. سيُكسبنا ذلك بعض الوقت". كان زمام الأمور ينتقل بين ماريا وفيكتور بطريقة انسيابية مثيرة للاهتمام. بمجرد أن قالت تلك الكلمات بدأت تتمتمُ كلماتٍ بلغة لم أفهمها! وتوقفت الحبال عن التحرك من تلقاء نفسها، فأسرعنا في ربط وتقييد أوين مارشال.. حرصَ فيكتور على أن يربطهُ بكل شيء وبأي شيء موجود في الغرفة، وسرعانَ ما هبطت يد ماريا وهي تلهثُ بتعب.

قال فيكتور: "لتوفّري طاقتكِ. سيعطينا هذا فرصة للابتعاد. هيا بنا".

وحملَ حقيبتهُ وأسرعنا مغادرين، كانت الحقيبة تحتوي على قليل من المؤونة، وهي كل ما استطعنا حمله. فنحن لم نتوقع أن يتمكن أوين مارشال من استخدام أرواح تقوده إلى مكاننا مباشرة، بينما نحن موجودون في قلعة فيها مئات الغرف! لقد باغتَنا باستخدامهِ للأرواح العالقة هنا. ولحسن الحظ أنَّ ماريا أحسَّت بهذا، ونصبنا له هذا الكمين، ولحسن الحظ أنهُ وحيد!

ولكن ماتزالُ الأرواح تساعده، وتعمل على فكّ قيده، بينما نحن نركض مبتعدين. سألتُ وأنا أمسح دموع خوفي: "ولكن هذا يعني أنَّ الأرواح ستقوده إلى مكاني من جديد أليس كذلك؟ ماذا يمكننا أن نفعل؟".

ردَّ فيكتور: "الآن.. علينا أن نستمر في النزول"

"لا يمكنُنا فعل الكثير هنا.. علينا أن ننزلَ أكثر". قالت ماريا، وهي تتحرك بسرعة.

توقفت مارجيت عن التقدم معنا، وقالت: "كلا.. سينتهي هذا كله هنا، والآن".

نظرنا إليها بينما هي تعودُ أدراجها نحو الغرفة التي فيها أوين مارشال. ركضَ فيكتور خلفها محاولاً منعها من الذهاب، ولكنها كانت أسرع. لحقنا بها، وطلبتْ مني ماريا أن أبقى عند الباب

خلفها، بينما دخلت مارجيت وفي يدها مسدس. أطلقت النار بلا هوادة نحو جسد أوين مارشال، وصرختُ أنا مغمضة عينيَّ.

عندما فتحتُهما، كان ما أراه أمامي صادماً. لم يُصب اوين مارشال بأيّة طلقة أو بأيّ أذى.. وكانت حبالهُ ماتزالُ تسحب نفسها بنفسها حول جسده لكي تفكَّ أسره.

وقفت مارجيت تتنفسُ بثقل أمامه، غير قادرة على أن تصدق عينيها! بينما كان هو يستعيدُ وعيه ويقول: "لمَ لستُ متفاجئاً من وجودكِ أمامي؟.. لن أموتَ هنا.. ليس اليوم يا مارجيت... ليس اليوم! سوف أنفذ طقس الأضحية مهما كلفني الأمر... أنا هنا محميٌّ وبأمان. لا أحتاجُ الرجال في الأعلى.. جيشي هنا يكفيني!". كان صوتهُ يتحول من لهجتهِ الرزينة المألوفة للجميع، إلى صوت حقيقي حانق، وواضح المساعي.

لحظتَها صاحت ماريا: "علينا أن نغادر بسرعة!". أعادَ صوتها الجميع إلى نطاق الرعب الذي سبَّبه مارشال. سحبَ فيكتور يد مارجيت خلفه، وابتعدنا جميعاً بينما ماريا تركض، وهي تتمتم بكلمات غريبة. شعرتُ وكأنها تحمينا من تأثير الأرواح التي تحمي مارشال، لأنني استطعتُ أن أسمع صراخاً،

وأرى حطامَ أخشاب على جانبي الممر، وكأنّها كانت تدفع الأرواح جانباً بقواها؛ لتفسحَ لنا مجالاً للهرب.

لو أنني لم أرَ هذا بعيني؛ لما كنتُ أصدق شهادة الجميع عنه، ولم يكن خيالي ليرسم صور واقعية لهذا الكابوس!. هذا كله يجب أن ينتمي إلى الخيال. الواقع كان بالنسبة إلينا شيء مفهوم وواضح، وليس هذه الدائرة اللامتناهية من الخوف.

استمرّينا في الجري. ابتعدْنا قدر الإمكان، قبل أن يعاود أوين مارشال النهوض. كانت جراحهُ بسبب إصابته بسكين في قدمه عندما كان يتعارك مع فيكتور، ولكن حتى تلك الإصابة لن تبطئهُ عن اللحاق بنا إن كانت أرواح المكان العالقة تساعده. لم أعلم ما الجدوى من الركض والهبوط أكثر الآن،.. إن كان المزيد من أفراد جيشه ينتظرنا،.. لقد رأيتُ نفس الأسئلة على وجه فيكتور ومارجيت.. اليأس والخوف بدأ يتسلل إليهما؟

نظرتُ إلى وجه ماريا.. لم أستطع أن ألمحهُ؛ فقد كانت هي تركض قبلنا جميعاً،.. ماتزالُ تتمتم بكلماتها الغريبة.. لا تتردد للحظة، ولا تقلل سرعتها.. لقد كانت تركض نحو هدفٍ تعرفه وتعلمهُ.. لقد كانت ترى أملاً لا يمكننا أن نراه؟ لم نكن ندري إن كانت تسلكُ طريقاً تعلم أنه صحيح،

خطواتُها الواثقة جعلتنا نشعر أنه صحيح، وأنه الطريق الوحيد؟ لقد كانت تتبعُ شيئاً، بينما تصدُّ بقية الأرواح الشريرة عنا.

كنّا ندخلُ إلى غرف، فقط لنخرج من أبواب أخرى داخلها، ثم نعبرُ شقوقاً في الجدران، أو ننزلُ عبر فتحات السقف الذي كان أرضنا. لقد تعاونّا جميعاً لفعل كل ما طلبتهُ منا دون سؤال واحد، دون أن نسمح للشك بأن يجعلنا نتردد. لم يكن أمامنا أيُّ خيار، إمّا أن نستمر في الهبوط نحو الأسفل في هذه القلعة المقلوبة المدفونة، أو أن نصعد إلى السطح حيث ينتظرنا مئات القتلة في بارادايس شيل، ليقتلوني ولينتقموا من خيانة البقية. لم نملك أيَّ خيار سوى أن نستمر في الغرق.

إنّها الحياة.. تلك المعادلة الصعبة، التي ما إن تشعر بالخطر من فقدانها، حتى تتحول رغباتكَ في فهمها، إلى محاولة ملحّة في التشبث بأي خيط منها. كنّا كلما نزلنا أكثر، استطعنا تبيُّن معالم القلعة المعمارية المختلفة. فقد كان ديكورها الجداري، واللوحات المعلقة، تزداد قدماً كلما نزلنا إلى الأسفل. نبّهتنا مارجيت إلى هذه المعلومة، فسيدة مثلها تربَّت تربية آل لورينت، لابد أن تكون مُدركة للتاريخ.

كنّا قد أبطأنا من خطواتنا؛ لأنَّ ماريا فعلت ذلك بدورها، وأخذت تنظر إلى اللوحات المقلوبة معنا.

نظراتنا سألتْها؛ فأجابت دون أن ننطق: "لا أشعرُ بأيَّة أرواح شريرة معاونة لمارشال في هذا الطابق".

سألَ فيكتور "وهل أنتِ بخير؟ لقد استخدمتِ السحر لمدة طويلة"

قالت وهي تبتسمُ وتنظرُ نحونا: "يمكنني التقاط أنفاسي هنا". حاولتْ أن تمحو تعابير التعب، أو على الأقل تستبدلها بتعابير اللامبالاة التي تجعلها مألوفة لفيكتور.

جلسنا كلتانا بجانب بعضنا، وأنا أمسكُ يدها وأسقيها الماء، وأناولها بعض الطعام. بينما تقدَّم فيكتور ومارجيت قليلاً، ولكنّهما ظلا قريبين منّا وهما ينظران في تلك اللوحات المقلوبة، قلتُ لماريا: "لا توجدُ غرف هنا حتى "

"هناكَ بعض اللوحات الفارغة تماماً في المقدمة "

قال ذلك فيكتور، وظلتْ مارجيت تتمعَّن في اللوحات من بداية ممر الطابق ببطء شديد، مع أنّها لم تنطق، إلا أننا عرفنا أنها فهمتْ شيئاً. بقيتُ أنظرُ نحو نهايات الممر الطويل، نحو اليمين والشمال، والتي كانت تغطّيها الظلمة، ولا يمكنني رؤية أي

شيء فيها.

كانت كلّما وقفتْ مارجيت أمامَ لوحة، نستطيعُ أن نرى اللوحة تتحرك، وكأنها تحكي أحداثها. كأنَّ اللوحات كانت حيّة. نسمعُ صراخاً صادراً منها، إنّها تحكي بدايات طقوس التضحية في بارادايس شيل، وصولاً إلى يوم قتل سالي.

وضعتُ يدي على فمي مصدومة! وأنا أرى ما يحصلُ لأختي. تقفُ فتاة بفستان فضفاض عند أحد كراسي الحديقة المنعزلة، التي اعتدتُ أن أذهب إليها عندما أكون غاضبة وأحتاج إلى تصفية ذهني. هجمَ عليها مجموعة رجال، أخذوها معهم على الرغم من مقاومتها الشرسة، تمَّ حقنُها في غرفة ما بدماء ليست دماءها.. سرت الدماء عبر جسدها، ثم وصلت إلى تابوت الأضحية وهي تحتضر أساساً. تموتُ بألم سبّبه ذلك الخنجر المغروز في صدرها.

قالت ماريا: "إذاً، هذا هو ما حصلَ. الخطأ الذي حصل"

نظرتُ إليها بتساؤل؟ فقالت لي بعطف: "لو كان طقس التضحية بسالي سليماً... ما كانَ الشر ليخرج من قفصه". بدأتُ أفهم الآن بوضوح أكثر، كانت هذه الفكرة كالوهم في رأسي، عالقة ما بين الكذب أو التصديق.

تدخَّل فيكتور، وهو يجاهد للخلاص من إرهاقه، وقد احتقنتْ ملامحه بلون دموي: "في البداية ظنّنا أنَّ السبب هو الخطأ الذي حصلَ في التضحية بسالي بدل لوسيا، ولكن يبدو أنَّ هذه لم تكن القصة كاملة". لم تنطق ماجريت بأي شيء، ولكنَّ عينيها بدتا كزجاج تعرَّض للصدع.

قالت ماريا: "يبدو أنَّ السبب الحقيقي، هو أنهُ كائناً من كان الذي قبضَ على سالي.. فلقد استبدلَ دماءها البشرية بدماء حيوان! ولهذا لم تفلح الأضحية هذه المرة! لأنَّ نوعيَّة الدماء كانت ملوثة".

"مَن يمكنه أن يفعل أمراً كهذا؟". قلتُ وأنا أبكي. لم يكن بكائي بسبب بشاعة ما رأيته، فموت سالي يحمل صدمة تفوق كل ما تبعهُ. كنتُ أبكي لوجود مثل هذه الألاعيب الكثيرة، دون أن ندركَ وجودها. لا أعلم كيف قضيتُ سنوات حياتي هنا، في هذا العرض التمثيلي، دون أن أدركَ وجود أيِّ خداع دفين.

سالي ماتت مقتولة، والآن نعلمُ أنها عانت حتى اللحظة الأخيرة.

سمعنا صوتَ خطوات تقترب، التفتْنا جميعاً متراجعين بهدوء بدورنا لنباشرَ الهرب. ولكنَّ إحدى

اللوحات الفارغة في المقدمة احترقت وخرجتْ منها شابة ترتدي فستاناً فضفاضاً، ووجهها خالٍ من الملامح، ولكني عرفتُ هيئتها. كدتُ أنادي على شقيقتي، ولكنَّ وجهها الخالي من الملامح نظرَ إلينا؛ مما أرعبني وجعلني أبتلعُ كلماتي. لم يكن في وجهها تقاسيم وملامح.. ولكننا شعرنا أنها تبتسمُ لنا.. ابتسامة واسعة جداً.. شعرْنا بها تنظر إلينا بلا أعين، لكنَّ نظراتها كانت تخترقُ أرواحنا.

سارتْ نحو اللوحة المقابلة في الجدار؛ لتحترق اللوحة فورَ أن تتلامسا معاً، ثم تدخل فيها سالي وتظلُّ اللوحة تحترق، ثم تخرجُ منها سالي وتذهب إلى لوحة خالية أخرى تسببتْ في احتراقها أيضاً.. وهكذا أحرقتْ بقية اللوحات في الممر، وفي خلال دقائق كانت اللوحاتُ المحترقة تُخمد نفسها، وتظهر برسوم جديدة مطبوعة عليها! لقد كانت تستكمل القصة وتخبرنا بما لم نعرفه..

خلالَ لحظة، أخذت ماريا نفساً عميقاً، وقالت: "إنهم هنا "

ونظرتْ خلفها، فرأينا وكأنَّ هنالك موجةً عاتية تقترب منها، يمكننا أن نرى من خلالها أوين مارشال يقف مستنداً إلى الجدار، وطاقة مهوّلة من الأرواح المساندة له تندفع نحونا. نطقتْ ماريا بكلماتها

ولوّحت بيدها، وظهرَ حاجز لامع زجاجي بيننا وبين تلك الأرواح، منعتْها من التقدم أكثر.

صرخَ اوين مارشال بأعتى ما لديه من قوة، وقال: "لا سبيل للهرب مني... كلهم في السطح أتباعي، وفي الممات أتباعي أيضاً "

زادتْ قوة الأرواح التي تحاولُ ابتلاعنا، وأحسسنا جميعاً بضعف ماريا أمام مواجهتها وبسقوطها القريب، لكننا راقبنا بتعجُّب إحدى اللوحات التي تقع خلف حاجز ماريا الزجاجي، في المنطقة مابين الأرواح المظلمة واوين مارشال تشتعل وتخرج منها سالي، لتمشيَ بكل بساطة وسط تلك الأرواح وقوتها العاتية، وتقفُ تحدق باوين مارشال، الذي شاهدنا وجهه خائفاً. وفي لحظة، مالتْ كل اللوحات العملاقة المعلقة في الممر؛ لتسدَّ طريقهُ نحونا، مشكلة جداراً وراء الآخر. ونظرت إلينا سالي بعدها، قبل أن تتغيّر وضعية أقرب لوحة عملاقة إلينا من الجدار، وتنتصبَ كحاجز بيننا وبين الأرواح التي صدَّتها ماريا. لقد حجبتْ تلك اللوحات رؤيتنا لسالي ولمارشال.

ناديتُها: "سالي!". وأنا أمدُّ يدي نحوها، فقط لأفاجأ بأنَّ هنالك خيطاً أحمر قد تمَّ ربطهُ بخنصري الأيمن. نظرتُ إليهِ بتعجّب، وتابعتهُ بعينيَّ يخترق

اللوحة التي تقف حاجزاً أمامي. وقبل أن تُغلق اللوحة، رأيتُ أنه مرتبط بإصبع سالي.

حثّنا فيكتور: "علينا أن نغادر، لقد كسبتْ لنا بعض الوقت، هيا بسرعة!".

بقيتْ ماريا تنظرُ نحو المكان الذي وقفتْ فيه سالي، وأنا أمسكُ يدها أطلبُ منها اللحاق بنا. تبعتْنا وهذه المرة لم تكن تقودُ الطريق. كنا نقف في ممر لا يوجد فيه سوى مخرج واحد، ولوحات تحترق، وأحدُ طرقنا مسدودة. جميعنا علمْنا أينَ هو المخرج. اللحظات التي ركضتُها في ذلك الممر كانت بطيئة جداً، كنتُ أرى كل شيء بكل تفاصيله، بكل شرورهِ. أرى الأحداث التي تُخبرني بها اللوحات على الرغم من أني لا أنظرُ إليها سوى لحظة واحدة فقط، فأستوعب كلّ حكاياها، أستمعُ إلى بكائها، إلى صرخاتها، إلى ضحكاتها. أعيشُ كل شيء في تلكَ اللحظات. أفهمُ كل شيء بفضل نظرات لحظيّة قصيرة..

هبطْنا عبر حفرة إلى الطابق الأسفل. توقفتْ ماريا وقالت: "لقد كنتُ هنا"

كانَ طابقاً يرشحُ من سقفه الماء بغزارة، وكأنَّ غيمة ممطرة تختبىء في شقوق سقفهِ. بعد ثوانٍ من دخولنا إليه، أصبحنا مبتلّين تماماً.

" ما وضعُ الأرواح هنا يا ماريا؟". سألَ فيكتور؛ فقالت له ماريا وهي تُظهر ضيقها من العودة إلى هذا المكان: "لمَ لا ترى بنفسكَ؟"

أزاحَ فيكتور رباطه عينه، وسألتهُ: "ماذا ترى؟".

ردَّ: "لقد أصبحَ الضباب الأحمر محدّداً أكثر.. ليس منتشراً في كل مكان.. يمكنني أن أتبعهُ".

سألت ماريا: "وهل يجبُ علينا أن نتبعهُ؟".

نظرنا إليها بتساؤل، وقال فيكتور: "أليس تتبُّعه هو خيارنا الوحيد الآن؟".

قالت له: "ألا تظنُّ أنهُ يجبُ علينا تجنُّبه، إن كان الضباب الأحمر يقودنا مباشرة إليه؟".

سألتُ: "يقودنا إلى مَن؟"

نطقتْ مارجيت أخيراً: "إلى الشر". رأيتُها تبتلعُ ريقها؛ مما يجعلُ شفتيْها تفقدان الشكل الثابت لهما.

لم يتحدث أحدٌ بعد ما قيل، حتى قلتُ أنا: "كلا، إنه لا يقودنا إلى الشر".

نظروا جميعهم إليَّ، وقلتُ وأنا أرفعُ إصبعي لهم ليروها: "لقد كانت سالي تربط حول خنصرها نفس الرباط، وهذا الخيط يا فيكتور يمتد في نفس الاتجاه الذي يسيرُ فيه الدخان الأحمر أليس كذلك؟،

إنْ عنى هذا شيئاً فهو يعني أنه يقودنا نحو سالي. سالي التي أنقذتنا للتو من مارشال وأرواحه "

قالت ماريا: "عندما حلمتُ بقدومي إلى هنا، كان نفس الخيط مربوطاً حول إصبعي... ويمكنكِ أن تبدئي بالبحث عنه هنا يا لوسيا؛ لأنني عندما استيقظتُ لم أجده في أي مكان". كانت تلك معلومات جديدة لمارجيت التي حدقت في إصبعيْنا بكل صدمة.

علّق فيكتور قائلاً: "نحنُ لا نملك خياراً، إما أن نبقى ضائعين هنا.. أو أن نسعى نحو هدف معين. مثلما تقول لوسيا.. قد تكون روح شقيقتها تريد مساعدتها على الهرب من هنا.. وإلا لما وقفتْ في وجه مارشال. أنتِ من قلتِ يا ماريا أنَّ هنالك مخرجاً من هنا رأيْتهِ في حلمك، كل ما علينا هو إيجاده. وأنا أرى فكرة أن نتبع خيط لوسيا". بقيت ماريا تفكّر قليلاً، ثم وافقت على مضض، وسرنا. كانت مارجيت تسيرُ خلفنا جميعاً، لا يخفى علينا تلفُّتها إلى الخلف بين فينة وأخرى.

حرصتُ على السير إلى جانبها، وقلتُ لها: "سيدة مارجيت.. لم يتسنَّ لي شكركِ حتى الآن "

نظرتْ إليَّ نظرات تساؤل! شرحتُ: "لقد جئتِ إلى الأسفل هنا، مخاطرة بحياتكِ، وبمكانتكِ بين أفراد

عائلتكِ؛ لتحذّريني من نزولهم إلى هنا.. وأنتِ الآن إلى جانبي. أشكركِ كثيراً". كنتُ في الحقيقة أشعرُ بالامتنان لها، ولكنَّ هذا لم يخفِ شكّي في غايتها من هذا كله. تساقطت أقنعة الجميع، بمن فيهم والدي. فماذا تخفي هذه السيدة؟

بقيتْ تنظرُ إليَّ، لم تبتسم، ولم تقل أيَّ شيء.. كانت عيناها خاليتيْنِ من المشاعر التي توقّعتها وهذا أجفلني،. تساءلتُ حتى إن كانت خائفة؟، حتى إنها لم تبدُ مذهولة من كل ما يجري. أومأتْ لي برأسها لتنهيَ المحادثة، وكأنما تقول لي: لا تبالِ. ولكني رأيتُ في عينيها الكثير من الحديث.. ولحسنِ حظي فقد سألتْها ماريا: "لقد تمعّنتِ في اللوحات لوقت طويل. هل ذكّرتكِ بشيء؟"

ردَّت وهي تطرق برأسها إلى الأسفل، وكأنما تتذكر كل لوحة كانت معلقة في ذلك الممر: "أجل. لقد كانت تحكي تاريخ بارادايس شيل،... هروب الناس من الحرب، وقدومهم إلى هذه الأرض الآمنة ذات الخير الوفير. اصطدامهم مع السكان الأصليين على مدى سنين، والذي تسبَّب في إشعال فتيل حرب أهلية بينهم راح ضحيتها الكثيرون، ولم تتوقف إلا عندما صارت هدنة الدماء. كان السكان الأصليون يؤمنون بأنَّ عليهم تقديم قرابين بشرية

لإخماد ظمأ شر الأرض واتّقائه، وثارَ غضبهم عندما كانت الأضحيات دائماً تقدَّم من بين أفرادهم، بينما هنالك مستعمرونَ يسكنون نفس الأرض ويهنؤون بخيرها، ويهنؤون ببعضهم بعضاً دون قلق من تقديم أية أضحيات. لهذا بدؤوا يقتلونهم، ويهجمون عليهم ليطردوهم من الأرض. لكنَّ المستعمرين قاوموا وبشدة، خاصةً أنهم بدؤوا بإنشاء تجارة ناجحة. وفي وسط أوضاع الحرب آنذاك، ما كان لأحد أن يتركَ فرصة للعيش في حياة هانئة، فتمَّ عقد هدنة بين الطرفين، تقتضي بألّا تسفك مزيد من الدماء، واتّفقوا أنَّ من ماتوا في الحرب الأهلية، سيتمُّ تعويضهم بالترتيب، والاقتصاص لهم على مدى سنوات مهما طالت؛ لإخماد الشر وبلواه"

سكتتْ قليلاً ثم تابعت: "كل هذه المعاناة أصلُها جاءَ من ورقة لعينة، سُجلت فيها أسماء العوائل بالترتيب، ويجب على كل عائلة يأتي دورها أن تقدم قرباناً من أفرادها، لحقن الدماء التي سُفكت قديماً، ولإخماد عطش الشر. لم يعارض أحدٌ هذه العادات في بادئ الأمر، وأخبرتني جدَّتي أنَّ الناس كانوا يُقدمون عليها بفخر وبشجاعة، ثم بدؤوا يفقدون إيمانهم بها، ويعترضون على مصائرهم، عندما سادَ القانون أكثر، وبدؤوا بالتنور وباكتساب العلم، وهذا أمر طبيعي. لكنَّ هذا لم يعجب أصحاب العقول

التي أصرت أن تظل جاهلة وفارغة، وتحوَّل الطقس من عملية دينية معظّمة وروحيّة بحتة، إلى مجرد عادات وتقاليد".

اقتبست من وجهات نظر سكان بارادايس شيل قولهم لها: "(يجبُ قتل ولدكِ؛ لأنَّ ابناً لنا مات منذ خمسين عاماً).. إنهُ..مصيرٌ لا يمكن الهرب منه، ليس عندما يلتمّ شمل جميع سكان القرية حولكَ،.. حتى الذينَ هربوا يسعونَ إلى القبض عليهم مهما كلف الثمن. أهلكَ وأصحابكَ وجيرانكَ يقتادونك إلى حتفكَ. بعض الناس يبقون في بارادايس شيل، ينتظرون اللحظة التي سيفقد فيها عدوهم ابنه أخيراً، وسيذوق ألم فقدان الابن. بعضهم يفقدون الأمل، بعضهم لا ملجأ لهم، وآخرون يتم قتلهم ونحرهم بمجرد أن يُظهروا علامات التمرد على العادات والتقاليد.. القانون هو: إمَّا أن تكون معهم، وإمَّا ألَّا تكون حيّاً.. أول من يتبادر إلى ذهنه البحث عن المنطق، يحشرونَ سكيناً في يده، ويرغمونه على ارتكاب جريمة، ليصبحَ فرداً منهم وفيهم، وسقوطُهم سيكونُ سقوطهِ أيضاً... هذه هي العقليات التي تُدير بارادايس شيل".

كان ما قالتهُ مشحون جداً بأشياء لا يمكنني فهمها بسهولة، أو في وقت قصير: "منذ متى ووالدي

معكم؟". سألتُها

"أصبحت اللحظة التي يتشاركون فيها الحقيقة مع أية يافع هي اللحظة التي يرغمونه فيها على أن يصبح قاتلاً، ولكن منذ القدم لم يكن القانون سائداً هكذا. إننا نعلم بهذا الأمر منذ طفولتنا "

"تحمونَ أنفسكم إذاً، وتتركون بقية الناس للقتل وللموت؟". سألَ فيكتور بلهجة حانقة.

" كلا، قضت الحاجة أنه عندما يشتدّ الوضع سوءاً، يجب أن تكون الأضحية من أحد أفراد العوائل العريقة والمؤسسة والأصلية، يمكنكَ أن تقول أنَّ دماءهم لا تستخدم سوى للأوقات الحرجة، ولكنهم عملوا على مدى سنين لجعل الأمر أشبه بعادات وتقاليد، وأفقدوه طعمهُ الروحي لينجوا بأنفسهم، وتلاعبوا بعقول الناس. ففي النهاية هم المتحكّمون بالأعمال وبإدارتها وبرواتب العمال سكان بارادايس شيل،.. تلاعبوا بعقولهم ليجعلوا المشكلة والقانون ينطبقان على العامة فقط، بينما هم هربوا بجلودهم من كل هذه الدائرة، واكتفوا بالإشراف عليها. لقد أقنعوا أنفسهم أنه لا يوجد شر... وأنَّ كل ما يحصل هو عادات وتقاليد لحقن الدماء التي سُفكت من عامة الشعب في الحرب الأهلية".

"الأوغاد". علّقَ

"لقد أخبرنا تيموثي عمّا حصلَ معكِ".

نظرتُ اليهم، وسألتُ: "ماذا حصل؟".

نظرتْ إلينا مارجيت وقالت: "تزوجتُ الرجل الذي أحبّه: ستروم. وبهذا ضمنتُ بما أنه زوجي أنَّ أبي سيتوسط لي، وسيحذف اسم عائلته من تلك القائمة السوداء، وهذا ما فعلهُ فعلاً. رُزقنا بابنيْنِ رائعين. حتى توفيَ والدي، وأصبحتْ رئاسة العائلة بيد أخي، الذي بطريقة ما ظهرَ أنه يحمل نسخة أو الورقة الأصلية التي تحوي اسم زوجي، وتمَّ اختياره للتضحية به، وفقدتهُ لأجل باراديس شيل. موتهُ أثَّر نفسياً على ابني الأكبر ديلان.. مما تسبَّب له بمضاعفات خطيرة على صحته الضعيفة. تمَّ إعلان موته دماغياً، وفي لحظات ضعف أقنعَني الناس أن أقدّمه أضحية في الطقس القادم. لهذا فعلتُ، لقد فقدتُ الاثنين لأجل هذه البلدة".

"يا إلهي، هذا فظيع!.. لم تكن لديَّ أدنى فكرة... أنا آسفة يا سيدة مارجيت". عبّرتُ عن أسفي بوضوح شديد.

"لم يكن هنالكَ سبيل لتعلمي؛ بعد أن قلنا أنهما ماتا في حادث "

"ماذا عن ابنكِ الأصغر؟" سألتْها ماريا

لم تجبْ مارجيت، ثم قالت: "... أتعلمينَ كيف علمتُ أنَّ أخي هو من أظهرَ الورقة التي تحوي اسم زوجي؟". قالت موجّهة الكلام لي في بداية الأمر، ثم التفتتْ إلى ماريا لتُشركها في السؤال.

" كلا "، أجبتُ أنا. كنا مانزالُ نسيرُ بلا توقف، نتبعُ الخيط المربوط في إصبعي، وكذلك الدخان الذي يراه فيكتور.

"هو أخبرني بذلكَ. لقد كان أخي دائماً يقدّس دماء لورينت، وقد جنَّ جنونه عندما تزوجتُ من عائلة ستروم، التي لم تكن ذات دماء نبيلة كما يسمّيها. لم يكن بيده فعل شيء وقتها، فهو لم يكن سيداً للعائلة. خاصةً بعد أن وقفَ والداي في صفّ حبّي. لكن بعد وفاتهما وتحكّمه بكل شيء، فعلَ فعلتهُ. أخبرني أنهُ حاول لسنوات أن يتوسط لزوجي وينقذه، وأنا أؤمنُ أنه فعل ذلك، ولكنه في لحظة ما قرّر أنه سيضحّي بدمائه. ربما على أمل أن أعود لأتزوّج من أحد أفراد عائلة لورينت. لكنني لم أعلم ذلك وقتها. لقد أخبرني بنفسه بذلك منذ عدة أيام". لم نجد ما نقولهُ، لأنه لا يوجد كلمات تعبّر عمّا شعرنا به جميعاً.

أكملتُ: "لقد كان خائفاً من الموت الذي يقترب

منه، بعد أن توفيَ آدامسون وبانكرافت. لقد بدأ يهلوسُ ويهذي، وصارَ عقله يقتله تدريجياً. لابدَّ أنَّ جنونه قد وصلَ الذروة الآن، ولن أستغربَ إن كان ينزل راكضاً الدرجات خلفنا، عندما لم يعد مارشال بعد كل هذا الوقت... على أيّة حال.. بعد موت زوجي جعلتهُ يعدني أنه سيحمي طفليَّ مهما كلّفه الأمر. لكنّي وجدتهُ هو من يقنعني بالتضحية بابني الأكبر بعدما اشتدَّ عليه المرض. بعد أن فكرتُ لمدة طويلة؛ أدركتُ أنني أنا وابني رايان.. لن نكون في أمان أبداً ما دامت بارادايس شيل حية".

توقفتْ ماريا فجأة، ونظرتْ إلى زاوية معينة داخل إحدى الغرف؛ فنظرنا معها إلى ما كانت تنظر إليه. شاهدنا أطيافاً تتشكل، وفاجأتنا وأخافتنا. لكنّها كانت تتشكل في هيئة واحدة ولا تتغير ولا تتحرك، ونسمع حديثاً لأصوات بدأنا نميزها.

استمعنا إلى مارجريت بصوت فتي، تُحادث تيموثي بارنز، وترجوه أن يساعدها في خطّتها، فقد كان صديق زوجها المقرب. سمعناها تخبرهُ الخطة، سوف تمثل أنها أسقطتْ ولدها في النهر الهائج، بعد أن تتأكد أنه ركبَ مع تيموثي في عربة؛ ليهرّبه بها إلى خارج بارادايس شيل. رأينا الأطياف تتشكل في هيئة امرأة حزينة تبكي، ورأينا أطيافاً أخرى

تتشكل حولها، تمدّ يدها نحوها لتواسيها. كلما تقدمتْ خطواتنا أكثر كنا نرى حياة مارجيت، ولا نسمعها منها. كلما فتحنا غرفة من الغرف التي تصادفنا في طريقنا، وجدنا مشهداً تتمُّ إعادة تمثيله من حياة مارجيت أمامنا. لقد خدعت الجميع ولمدة عقد كامل. ظنَّ الجميع أنها فقدتْ ابنها في النهر الهائج، بينما كان قد تمَّ تهريببهُ للعيش بسلام خارج بارادايس شيل. صدَّق الجميع أنهُ مات.. وبهذا أخرجتهُ من دائرة القتل... ولن يكون في خطر أبداً!

قلتُ لها: "ابنكِ الأصغر، مايزالُ حيّاً؟". لم تُجب. كانت وكأنما قد انفصلتْ عن جميع أحاسيسها. وجهُها ثابت الملامح، تحدّق معنا إلى الأحداث التي تكشفها الأطياف أمامنا وتمثّلها.

شاهدنا الأطياف وهي تُظهر لنا حياة مارجيت بين الناس،.. يلصقون بها لقب المرأة التي فقدت كل شيء لأجل بارادايس شيل، يعتبرونها رمزاً للقوة، ويحثّون بعضهم على اتباع خطاها. رافقناها تعيش كذبة لعشر سنوات، تُقابل فيها ولدها مراتٍ قليلة؛ لكي لا يشكَّ أحد إن كان هنالك من يتبعُها في هوية الفتى التي تحتضنه.

تنامُ كل ليلة وهي تتمنى له السلام، متشوقة إلى اليوم الذي ستتأكد فيه أنهُ هو وهي سيكونان بأمان

إلى الأبد.. وسيستطيعان إحاطة بعضهما بمشاعر الأمان. عاشت عشر سنوات في منزلها منزل عائلة ستروم، تمكثُ قليلاً وتتنقّل كثيراً في شتى أصقاع الأرض. تقابلُ ولدها كلما استطاعت، قبل أن تنتقل مؤخراً إلى منزلها لورينت.. لتعودَ إلى أصلها.

تحدثت مارجيت أخيراً: "وهنا بدأت الخطوة الأخيرة من خطتي".

نظرنا إليها باستغراب!.. ثم تابعنا السير نحو غرفة أخرى، وقد أصبحنا مبتلّين تماماً.. لندخل إليها ونرى جزئية الذاكرة التي سوف تعاود الأطياف تمثيلها لنا. لكني وجدتُ شقيقتي سالي تقف أمامنا! لم تكن سالي التي بلا ملامح، كانت سالي.. بشرية.. حيّة!... كدتُ أهرع إليها لولا أنّها التفتت نحوي وصرخت بحدّة، وسرعان ما رأيتُ أرواحاً أخرى تندفعُ نحوها وتقبضُ عليها. صرختُ بهم أن يتركوها، وكدتُ أندفع نحوها لولا أنَّ فيكتور أمسكني، وذكّرني أن هذه ذكريات وليست حقيقة.

لم يهدّئ هذا من روعي، وأنا أرى اللحظة التي تُخطف فيها توءمي أمامي. اللحظة التي سيتمّ فيها اقتيادها للموت. ركضتُ إلى الغرفة التالية؛ فوجدتُها قد أصبحت مكمّمة مربوطة داخل تابوت وقد تمَّ تخديرها، والأطياف من حولها يتناقش أصحابها

بخصوص طقوس الليلة بكل بساطة وبلا اكتراث. غادروا وتركوها مع تابوتين آخرين. ركضتُ نحو تابوت سالي، أدركُ أنَّ هذه ذكريات، لكنَّ رغبتي في إنقاذها فاقت كل شيء.. حينما وصلتُ إلى ذلك التابوت اختفى دون أثر.

ركضتُ نحو الغرفة التالية، يتبعُني الثلاثة. ترددتُ في فتح باب الغرفة التالية، فيُفترض الآن أن تأتي لحظة قتل سالي... ولم أفتحه،.. جاءت ماريا ووضعتْ يدها على كتفي، ورأيتُ في وجهها العطف والألم، وفتحتْ الباب المتهالك لي، احتضنتْني ونحن نرى ما جرى لسالي.

وجدتُ تابوت سالي مفتوحاً، بينما يقفُ قربهُ جسدُ شخص يرتدي عباءة تغطي وجهه،.. يقطّع أوصال سالي في إحدى يديها، ويحقنُ اليد الأخرى بكيس دماء. يبقى واقفاً لفترة، بينما التوابيت لا حراسة عليها. تموتُ سالي من فقدان الدم، وهي تُصدر أصوات اختناق مريعة.. بينما يمتلئ جسدُها بدم آخر يبدأ برفضهِ تماماً. فمُها المكمَّم يمنعها من الصراخ.. بينما يقفُ ذلك الكيان بكل برود وثبات. دون أيَّة رجفة عين..أو تردد. يهربُ ذلك الكيان عندما يسمعُ جلبة تقترب، ويعلمُ أنَّ وقت بدء الطقس قد حان، وأنَّ هنالكَ من سيغرز

سكّيناً في قلب سالي قريباً،.. وفي لحظة استدارتهِ للمغادرة،.. رأينا جميعاً وجهه.

لم أصدّق ما رأيتهُ لوهلة! التفتُّ إلى مارجريت، وقلتُ لها بصوت مهتز: ".. أنتِ؟".

ردَّت: "كانت ستموتُ على أية حال". شكّلتْ بيدها حلقة عدم اكتراث مصطعنة، ولكنَّ هذا لم يخفِ قلقها أبداً.

" كان يمكنكِ مساعدتها على الهرب؟؟!!". صحتُ بها

"لمَ؟ هل هرَّبَ أحدُ زوجي؟ هل منعَ أحدهم أضحية ولدي، وأخبرني أن أدفنهُ دفناً لائقاً؟".

قال فيكتور بغضب: "أنتِ الآن تتحدثين مثل هؤلاء الذين عاديْتِهم طوال حياتكِ".

"لم أعادِ أحداً طوال حياتي.. عاديتُهم فقط عندما قرّروا جعلي عدوة لهم".

تقدمتْ نحو الغرفة التالية بكل جمود، وهي تقول: "ولو كنتُ سمحتُ لها ولبقيّة الأضحيات بالهرب، كم تتوقعونَ أنهم سيبقون على قيد الحياة؟ وهم مخدّرون وفي كهف مظلم، وبالكاد يدركون ما حصلَ لهم؟ سيقبضُ عليهم أهل بارادايس شيل بكل سهولة، وسيعيدونَ وضعهم في تلك التوابيت دون

رحمة. لن يختلف أيّ شيء عمّا رأيتموه.هذه هي الحقيقة".

فتحتْ الباب وقالت: "الفرق أنني جعلتُ موت سالي ذا معنى.. حرصتُ من خلالهِ على أن يندم كل شخص من سكان هذه البلدة الحقيرة. لقد أيقظتُ نيراناً ظنّوا أنها خامدة لسنين.. لقد نسوا أنَّ الحطب مايزالُ موجوداً! والآن جميعهم سيندمون، وسينتهي هذا الطقس الأحمق إلى الأبد. ومن سينجو.. يمكنه أخيراً السير نحو المستقبل.. دون أن يقلق بشأن ماضي أحمق يطاردهُ لا ذنبَ له فيه!".

قالت ماريا: "ما فعلتِهِ يمكن أن يتسبَّب في موتكِ أنتِ أيضاً!".

" لا أبالي طالما سيكتبُ موتي الحياة لولدي. إنهُ يستحقها، إنه بريء من كل الجنون الذي يحصلُ هنا".

"مثلما لوسيا بريئة منه أيضاً". قالت ماريا وهي تشير نحوي. كنتُ أفكر في سالي البريئة أيضاً.

نظرتْ إليَّ بتعاطف، ظهرَ رغمَ جمود ملامحها، وقالت بصدق: "أنا آسفة للغاية". بقيتُ أبكي وأنا أنظرُ إليها، فقد كان يُفترض بها أن تقتلني أنا بدلاً من أختي سالي.. وقد كانت ستفعلُها على أية حال، سواء أكانَ ذلك جسد سالي أم لوسيا. هبطتُّ

على قدميَّ أبكي بصمت. لم يكن هنالك ما يمكن قولهُ.. لقد كنّا جميعاً في دائرة غريبة سوداء، لا يوجد منها مخرج أبداً، سألتُ: "ماذا الآن؟".

نظرَ ثلاثتهم إليَّ،.. سألتُ من جديد: ".. ماذا الآن؟ الشر القديم قد تمَّ إطلاق سراحه، وهو الآن سيقتل أهالي بارادايس شيل، أو سيدفعهم إلى مغادرة المكان، وسيلوّث هذه الأرض إلى الأبد، ما الحل؟".

"أن تبقي على قيد الحياة، ألّا تقعي في أيديهم قط! إن تمكنوا من القيام بالطقوس بجسدكِ وبدمائكِ النقية، ربما سيتمكنون من ردع الشر. وقتها سيكون موت سالي قد ذهبَ سدىً، وستستمر حلقة القتل المعلقة بتكرار نفسها دون توقف: مزيد من العذاب، مزيد من الألم،.. مزيد من الدموع... تولّد جميعُها مزيداً من الأحقاد،.. سنظل إلى الأبد معلقين بهذه العادات والتقاليد،.. كل ما عليكِ فعلهُ يا لوسيا، هو أن تبقي على قيد الحياة... أن تسمحي لتيار الحياة أن يأخذ المجرى الذي كان يفترض به أن يجري فيه منذ زمن بعيد... اتركينا نقوم بالتصفية".

كان سماع كل ذلك قاتلاً لروحي،.. كانت تتحدث عن مستقبل الناس وإنقاذهم، والقيام بالفعل

الصحيح،... لكن كيفَ كان يمكنني أن أبقى قابعة مكاني، قلتُ: "ولكن... كل الذين سيموتون، كل الذين سيتأذّون، فقط لأنني سأبقى حية. ماذا عن بيتر؟".

ظهرت الدموع في عيني مارجيت، وهي تقول: "لندعُ من أجل سلامته".

بكيتُ أكثر، قالت مارجيت: "بمجرد أن يموت إلكساندر،.. بمجرد أن يأخذ الشر روحهُ، سوف نفقد القدرة على التحكم به. وسيفعل بنا ما يشاء... أنا لا أقول أننا سننجو، قد نكون أول الموتى ولكن، ابقيْ بعيدة عن الطقس، لا تصبحي أضحية".

"ماذا إن اختاروا أضحية أخرى؟ ماذا إن قرَّر ألكساندر التضحية بأبنائه لينقذ نفسه؟ هل فكرتِ فعلاً فيما تفعلين؟". سأل فيكتور بانفعال. فاشتعلتْ الفكرة في رأسي أنا أيضاً.

قالت مارجيت: "سوف يبتلعهم الشر الذي بداخلهم، قبل أن يفعلوا شيئاً كهذا".

شهقتْ ماريا متفاجئة! وأخذتْ نفساً عميقاً بغتةً، جعلنا كلنا نلتفت إليها بقلق. قالت بعد أن التقطتْ أنفاسها".. أوين مارشال".

وفهمْنا من كلامها أنهُ قريب!، سألتُها: "ألم تتخلص منهُ سالي؟؟".

قالت ماريا وهي تحثّنا على الحركة: "ليس كما يبدو، علينا المغادرة".

ساعدتْني على النهوض وأسرعنا جميعاً، قالت مارجيت وهي تتوقف: "سوف أعمل على تأخيره، وكسب الوقت لكم،.. عليكم النجاة مهما كلّف الثمن".

نظرتْ إليها ماريا، وقالت تهاجمُها: "بحسب ما سمعتُ من قصتكِ، فأنتِ لا تملكين أية قوى يمكننا استخدامها في هذا الظرف الآن. أليس كذلك يا سيدتي النبيلة الحمقاء؟.. لم لا تتوقفينَ عن التصرف بأفكاركِ بلا منطقية قليلاً، وتدعي الخبراء يتصرفون؟؟".

قالت ذلك وهي تسحبُها خلفها، واقتادتْ مارجيت دون مقاومة منها. رحنا نهبط، وسرعان ما أحسسنا بضغط الأرواح الحليفة لأوين مارشال وهي تقترب. إننا نسمعُ صرخاتها الغاضبة، والعواء الذي تعويه. لم يعد أوين في هذه المرحلة يمشي. كان يطفو في الهواء، وقد كان مطرقاً برأسه نحوالأرض وهو ينزف من كل جانب. كانت الأرواح هي التي تحرك جسده، وهو بدا فاقداً لوعيه، يبحث عنا في كل زاوية وفي

كل غرفة.

كنّا ننتظر أن يُولينا ظهره؛ حتى نتقدم خلف بعضنا دون أن يلمحنا. لحسن حظّنا أنَّ صوت قطرات الماء التي ترشح من السقف أخفى أصوات تحركات أقدامنا، فلم ينتبه إلينا. وكذلك تمتمتْ ماريا بشيء جعلنا مخفيّين عن أنظار الأرواح، وكأننا لسنا هنا.

كنَّا نتبعُ الخيط الذي ربطتهُ سالي إلى خنصري،.. بأسرع سرعة ممكنة.

وفي لحظة ظننتُ أننا بعيدون عنه، كان فيها خلفنا تماماً يوشكُ على رؤيتنا. كان يقفُ في آخرالممر ولم يتحرك، وكان علينا أن نجتاز ذلك الممر من جهة أخرى، ولكنه قد يتمكن من رؤيتنا، لذا توجَّب علينا العبور واحداً تلو الآخر فقط.

عبرتُ وكادَ أن يراني ولكني نجوتُ، وفي اللحظة التي فتحتُ فيها عينيَّ وجدتهُ أمامَ وجهي، وماريا تركض نحوي تمدُّ يدها المضيئة، يتبعُها فيكتور.

تعالت الصرخات بينما تسحبُني الأرواح إلى داخلها، وينهض أوين مارشال المغطى بالدماء من سباته ليلتقطني بين يديه بكل قوة. أحسستُ أنها نهايتي، وكنتُ متأكدة من ذلك، وقد حدث كل شيء بسرعة. لكن في لمح البصر سقطتُّ أرضاً، ولم أصل إلى أوين مارشال، فقد بدأ يصرخ

ويضرب الهواء من حوله، والأرواح من حوله مهتاجة وتحارب شيئاً ما.

سحبتْني أيادٍ مخفية كثيرة بعيداً، وألقتني عند ماريا وفيكتور ومارجيت، وبقينا ننظرُ بعجب إلى ذلك المنظر أمامنا:

أرواح كثيرة تهجمُ على أوين مارشال، وتحرصُ على إبعاده عني. تردعهُ عن التقدم نحوي.

حثّنا فيكتور على استغلال الفرصة، وكنّا نركض أسرع مبتعدين هذه المرة، بينما مارجيت تلمحُ من بين الأرواح روحَ زوجها وولدها اللذيْن ضحَّت بهما، تبكي وتتبعُنا، تؤكدُ لهما أنها هنا لتأخذَ حقّهما وثأرهما..

هبطنا أكثر حتى وصلنا إلى فتحة في الأرض.. هاوية سحيقة!

كان الخيط الأحمر المربوط إلى خنصري يشيرُ إلى هناك.. يشيرُ إلى أن سالي في بطن تلك الهاوية..

نظرنا إلى بعضنا بتردد،.. وجميعنا علمنا أنّه لا مجال للتراجع.. الطريق الوحيد للنجاة هو.. الغرق أكثر..

نزلَ فيكتور أولاً، ثم أشارَ لي أن ألحقهُ، تبعتْنا مارجيت، وكانت ماريا الأخيرة؛ لتتصدى لأيّ هجوم

مباغت من أرواح اوين مارشال خلفنا.

كانت الدرجات غريبة.. مجرد أخشاب تمَّ تثبيتُها في الجدران، بينها مساحات شاسعة. وكانت الهوّة سحيقة، لا يمكننا رؤية شيء سوى خطوتنا التالية، لقد كان هذا أرعبَ شيء فعلتهُ في حياتي! كنَّا نتمسكُ بالجدران الحجرية الرطبة، وننزلُ على أخشاب قصيرة نحو الأسفل المظلم، نتبعُ خيطاً سحرياً أحمرَ مربوطاً إلى خنصري.

استمرّينا في النزول حتى وصلنا إلى مياه. حملَ فيكتور المشعل الذي يضيء طريقنا فوق رأسه وهمَّ بالسباحة،.. فقد كانت المياة سوداء في باطن الكهف الأسود، وخيط خنصري يقودني إلى بقعة ما مجهولة في الظلام، في اتّجاهٍ لم نميّز إن كانَ شرقاً أو غرباً أو أيَّ شيء.. فقط نحن الآن نطفو على سطح مياه سوداء قاتمة.. رائحة الرطوبة تخنقُ أنوفنا. نسبحُ ببطء والرعب يتسرب من أجسادنا.. فنحنُ لا نبصرُ شيئاً في هذا الظلام السحيق.. لا في الماء، ولا في حدود جدران هذه البحيرة السوداء.

فجأةً بدأنا نبصرُ أجساداً ملفوفة بباطنيات عفنة، مربوطة من قدميها تتدلى من السقف. لا ندري من أين أتى أصحابها!، كلما تقدّمنا في السباحة أكثر

ازدادَ عددهم. نحنُ لا نبصر السقف الذي يتدلّون منه، ولا نبصرُ طول الحبل. كل ما يمكننا رؤيته هو أجسادهم المتدلية بأحجامهم المختلفة، إنهم مكفَّنونَ.. أموات.. يتدلّون فوقنا، ونحن نسبح في هذه المياة الراكدة السوداء.

لم ينطق أحدُنا بأيّة كلمة من شدة رعبنا.. كلما طال بقاؤنا بينَ تلك الجثث المتدلية والمياه.. كان هلعُنا يزداد. بدأنا نسبح بسرعة أكبر. كانت السباحة بيد واحدة على فيكتور صعبة، فقد كان يحمل مشعلاً في يده ويخشى من انطفائهِ. سقطتْ جثة من الأعلى، وسببتْ تناثر المياه وانطفاء المشعل، وملأتْ صرخاتنا الأرجاء ونحن نسمع أصوات ارتطام تلك الجثث بالمياه أكثر وأكثر. أحياناً على مقربة منّا أو مبعدة عنّا.. نتوهم أنَّ الجثة التالية التي ستسقط ستحطّ فوق رؤوسنا تماماً.

سقطت الجثث بكثرة إلى درجة أنها ملأت المكان حولنا، وطفتْ على سطح المياه، وأصبحت تزاحمنا على الهواء، وكأنها تريد دفننا تحت سطح الماء لنموتَ مختنقين. ودونَ أن أبصرَ شيئاً، حاولتُ أن أزيحها عن رأسي وأن أخرجهُ لأتنفس. ولكن كانت الجثث كثيرة جداً وثقيلة، لم أستطع أن أبعدها. وفي الظلام لا يمكنني أن أرى إلى أين يمكنني السباحة

لكي أنجو.

كلّ ما تشبّثتُ به في لحظة الذعر التي آمنتُ أنها ستكون آخر لحظاتي في هذه الحياة، هو الحبل المربوط بسالي، والذي سحبتهُ في محاولة مني كي أتشبّثَ بها، وأسحبَ نفسي إلى الأعلى.

وبعد لحظات اندفعَ الهواء إلى رئتيَّ، ماأزالُ لا أرى شيئاً، ولكنَّ أحدهم كانَ يصفعُني، ويقول لي: "تنفّسي، تنفّسي!!".

ولولا هذا الأمر بالتنفس لما كنتُ فعلت، فأنا فتاة عمياء في هذا الظلام، مايزالُ عقلها يؤمن أنها تغرق تحت أطنان من الجثث التي تسقط من السماء. ملأتُ رئتيَّ بالهواء بقوة، وأنا أتحسسُ بيديَّ يديّ ماريا التي ميزتُ صوتها والتي تأمرني بالتنفس. لم تمسكْ يديَّ، بل وضعتْ أصابعها وكفّيها على جانبي رأسي، وتمتمت ببعض كلمات، وفجأة أصبحتُ أستطيعُ رؤية وجهها أمامي.

سألتُ بهلع: "ماذا جرى؟".

قالت: "إنني أستخدمُ قواي؛ لجعلكِ ترين في الظلام، أنتِ بخير".

كنتُ بالفعل أرى الآن. أرى أننا فوقَ قطعة يابسة صغيرة، وأنَّ حولنا مياه قد امتلأ سطحها بالجثث

المكفّنة..

سألتُ: "أين مارجيت وفيكتور؟".

ركضتْ ماريا من عندي، ووضعت يدها في الماء وهي تتمتم، وسرعان ما اندفعَ ضوء كالحبل تحت سطح المياه نحو نقطة معينة، ثم بدأ يعودُ إلينا، ليبدو وكأنَّ حبلاً مضيئاً امتدَّ من يدها نحو جسد فيكتور ليسحبه نحونا، ويخرجهُ من المياه لنلتقطهُ وهو يكافح لالتقاطِ أنفاسه، فرُحنا نهدّئهُ، وفعلتْ له ماريا نفس الشيء الذي فعلتهُ لي، بأن وضعتْ يديها على جانبي رأسه، وبهذا ساعدته أن يرى في الظلام،.. قبّلتهُ أمامي قبلة قوية على الرغم من أنه كان يكافح لاستنشاق الهواء لحظتها. ثم بسرعة أسرعت نحو المياه، وغطّست يدها فيها أيضاً، تباشر البحث عن مارجيت، ولكن طال انتظارُنا، حتى إنَّ فيكتور قد استطاعَ تدارك نفسه والجلوس.

قالت: "لا أجدُها... لا أجدُ مارجيت". بحثتُ حولي على أمل أن أجدها أنا بقدرتي الحاليّة على الرؤية في الظلام، ولكن لا يوجد شيء.. بحرُ الجثث العائمة يمتدُّ إلى النهاية. استدارتْ ماريا ونظرتْ إلينا وقالت:

"لم أجدْها". وبكلماتها تلكَ، كان علينا أن نعلم أننا فقدناها.

المنام الخامس

وجهُ أمي يراقبني من بعيد، ويحثّني على الاقتراب منهُ، ولكنَّ تلك الخيوط الحمراء، وذلك الدخان يحجبُ كل شيء يمكنني رؤيته. أتذكّر شكل الورق والحبر المطبوع عليه، عندما كانت أمي تكتبُ تلك الرسائل لتخبرَني بأنّها ماتزالُ معي. كانت هي وطني، هي الأرض التي فقدتُها في الطفولة. لا أعرفُ في العالم وطناً سوى أمي.

انقطعت رسائلها منذ وقت طويل، ولكنَّ روحها هنا تناديني الآن، تطلبُ مني الاقتراب أكثر. أسيرُ نحوها، وأراقبُ أشكال المباني المحيطة بي. أنا أعرفُ هذا المكان الشاحب. إنه ينتمي إلى الطفولة، إلى ذكرياتي الضبابية القديمة التي تكاد تُمحى. إنه وطني الذي هربتُ منه منذ وقت طويل.

ما أراهُ هنا اليوم مختلف. الصدوع تملأ الجدران المتسخة الباهتة، النوافذ محطمة.. وذلك الدخان الأحمر يتسرب من خلالها، ويُشعلُ النيران في البيوت. حتى الثلج ناصع البياض، كان يهبطُ على الأرض ممتزجاً بالبخار الأحمر فيتغيّر لونه. لم يكن قادراً على إخماد نيران البيوت.

الصرخات تتعالى، ولا أحدَ يُجيب: "أنقذْنا يا

إلهنا، أبعدوا هذا الظلام عن أعيننا".

منعني الرعبُ من الاقتراب، ولكنَّ أمي أشارت بيدها كي أقترب. أخبرَني وجهها بأن أكونَ مطمئنّاً، لأنها لن تسمح لأيّ مكروه بأن يصيبني. قبضتُ على يدها، فأشتعلت النيران بقوة أكبر. وملأت الصدوع الأرض.

أحاطت أمي وجهي بكفّيها، وقالت: "إننا معاً من جديد، في هذا المكان، منزلنا.. أرضنا، ولن يمنعنا أحدٌ هنا".

أحاطنا الضباب الأحمر، أصبح كثيفاً بينما كان يشكّل حولي وأمي حلقات مغلقة، تحولت فجأة إلى إعصار حجبَ كل شيء نراه، ولم يبقَ سوى أصوات الصراخ.

لوسيا بانكرافت

"يالها من قطعة يابسة عجيبة بين هذه الجثث جميعاً "! كان ذلك تعليق فيكتور الساخر على قطعة اليابسة الصغيرة التي جمعتنا ماريا فوقها من المياه. بدأنا نفقدُ قوانا جميعاً. تمكّن الإرهاق منّا، وسيطرت الأفكار الغريبة والمتداخلة على عقولنا، بحيث أصبحنا نعيش في بُعدين متوازيين.. الواقع، والأفكار التي كُشفت أمامنا فجأة.

"لحسنِ حظّنا أنّها كانت قريبة.. وإلا لكنّا غرقنا". علقتْ ماريا.

"شكراً لكِ يا ماريا". قلتُ لماريا، ولم أكن متأكدة من قوة صوتي، وإن كانت كلماتي استطاعتْ الوصول إلى أذنها أم لا. كنتُ أستسلم لإرهاقي ولحزني معاً.

ردَّتْ عليَّ بهدوء مماثل: "لا تبالي... لقد ظننتُ نفسي ميتة بدوري... لا أدري كيف ظهرَ في عقلي هذا السحر؟ وكيف استخدمتهُ حتى. لقد حالفنا الحظ جميعاً ليس إلا". فكرتُ فجأةً فيما كنتُ سأفعله لو كنتُ وحدي. ماذا لو خضتُّ هذا وحدي؟

"سحركِ الجديد هذا... إنهُ مذهل" قال فيكتور.

"أظنُّ أنها قوة أسلافي الموجودة في دمائي

جودة الكتب حرامية

وحسب. أنا لا أعلّمهُ وأختارهُ بنفسي... إنه فقط يظهر من تلقاء نفسه".

أصدرَ فيكتور صوتاً غريباً كأنهُ يفكر، ثم قال: "غريزيّاً ربما".

"هذا لا يساعدنا كثيراً". قالت ماريا بلكنتِها المتشائمة دوماً.

- "على الأقلّ نحنُ أحياء بفضله "

- "ألا يمكنني مثلاً أن أجدَ في جسدي سحراً يضيء المكان بأكمله؟.. سحراً ليجعلنا نطيرُ ونخرج من هذه الحفرة الحمقاء، التي أغرقنا أنفسنا فيها؟".

"ما كلّ هذه الجثث على أية حال؟... ومَن علّقها هنا؟" سألتُ.

- "كم مرة سأخبركِ أنكِ إن ظللتِ تسألين عن الفاعل؛ فستُصابين بالصداع يا عزيزتي. ما وراء الطبيعة! ما وراااء الطبيعة! ألا تفهمين".

- "اهدئي يا ماريا.. ليستْ غلطتُها أنكِ لا تعرفين استخدام سحرك الغامض".

زفرتْ، وأخذتْ تدور وتلقي بنظرها إلى الأفق وهي تقول: "أعلمُ.. أعلم...".

ما كنتُ لألوم ماريا على انفعالها

كنّا جميعاً مرهقين.. جائعين.. وعطشين..

فقالَ فيكتور: "نحن في العالم الفاصل بين الأموات والأحياء..."

- "وكيفَ تعلم أمراً كهذا؟".

"لا تنسَي أنني أحققّ في الخوارق.. لقد قرأتُ كتاباً أو كتابين.. استمعتُ إلى تجربة أو اثنتين من أشخاص شارفوا على الموت، ثم عادوا بأعجوبة إلى الحياة".

استرسلَ أكثر في شرحه: "المياه هيَ ما تربط كل شيء في حياتنا ببعضه.. وهي أيضاً تربط العالميْن معاً،... ما دمتِ فوقها فأنتِ حيّة.. إن غرقتِ في المياه السوداء تموتين... ولكن في معظم الحالات.. كانوا يقولون إنَّ هنالك ضوءاً في آخر النفق".

- "كما ترى هذا ليس بنفق،.. إنه بحرٌ لعين!". وضربت ماريا المياه القريبة منها بقدميْها بإحباط.

سألتُ: "هل هذه الجثث تعودُ إلى الذين تمّت التضحية بهم؟".

"أقربُ احتمال: أجل "قالَ فيكتور.

"علينا السباحة نحو يابسة أخرى" قالت ماريا

"أترينَ واحدة قريبة؟" سألَ فيكتور

- "هنالكَ واحدة في المقدمة، لنذهبْ "

ترددتُ قبل أن أضع قدميَّ في تلك المياه السوداء، التي أصبحت مليئة بالجثث الآن،.. قال فيكتور وهو يمسكُ يدي: "إنهم ميّتون،.. سأزيحهم عن الطريق، وابقيا قريبتين من بعضكما".

ففعلنا ذلك، تقدَّمَنا هو أولاً يُزيح الجثث، ثم تبعناهُ. نرى في الظلام بفضل سحر ماريا، وتمنيتُ لو أنني لا أرى هذا المشهد المرعب، أو أختبر السباحة بين الجثث!

وصلنا إلى اليابسة الأخرى بعد سباحة مطولة، وظننتُ أننا لن نصل قط. صعدتُ إليها بأسرع ما لديَّ وأنا أرتجف،.. لم يكن الآخران أفضلَ حالاً مني، كانت الفكرة نفسها تحتاجُ إلى عقل قوي أكثر من جسد قوي.

قالت ماريا أنَّ علينا أن نتابع، سرتْ رعشة في جسدي وأنا أسمع تلك الكلمات، ولكن أعلم أنّها محقة،.. نزلنا معاً من اليابسة ونحو اليابسة التالية بنفس الطريقة.

نبدأ هذه المرة بسماع أصوات صرخات، ونحن في وسط المياه نسبح. صحتُ بسرعة: "ماذا.. ماذا

يجري؟".

لم يُجيباني؛ فأعدتُ سؤالي: "ماذا يجري؟ مَن يصرخ؟؟؟".

- "لا ندري.. ولكن ليست إحدى الجثث".

استمرّينا نسبح حتى ميّزتُ تلك الصرخات، وقلتُ: "تلك صرخات مارجيت!!".

فيكتور: هل هي حيّة؟؟، أينَ هي؟؟!!".

صاحت ماريا: "تابعا السباحة!! نحو صوتها".

كان صراخها يكشفُ عن الضيق والاستنجاد، الخوف والهلع. مع اقترابنا أكثر وأكثر كان يعلو، وبدأنا نشعر بها تضعف وكأنها ستتوقف عن المقاومة قريباً،.. ظللتُ أسأل: "ماذا يحصل؟ ماذا يحصل؟؟".

قالت ماريا: "حافظي على هدوئكِ.. لا تتحدثي بصوت عالٍ وأنتِ بين الأموات".

كنتُ قد بدأتُ أهلع، وبالكاد أستطيع مواصلة السباحة، تدفعني ماريا وهي تقول: "تحلّي بالشجاعة.. أنتِ معي... لقد وصلنا.. "

لكني كنتُ بالكاد أستطيع ذلك،.. لم أعد أطيقُ السباحة. أريدُ فقط أن أصرخ وأبكي، وأن أسمحَ لنفسي بالغرق،.. وأنا أسمعُ صرخات مارجيت التي

جودة الكتب حرامية

تضعف، وأنا لا أدري ما يحصل معها حتى؟ وما الرعب الذي تتعرض له؟.

تذكرتُ لحظتها وأنا أبحثُ في ذاكرتي عن شخص يمكنني الاستنجاد به، الخيط الأحمر المربوط حول خنصري، والذي هو مربوط أيضاً بسالي. أمسكتهُ وشددتهُ وأنا أدعو من كل قلبي سالي: "سالي أرجوكِ، أنهِ كل هذا، وأنقذيني من هذا الجحيم!".

و في لمح البصر، شعرتُ بنفسي أرتفع من المياه، ويتم سحبي بقوة نحو مكان آخر. لم أبصر شيئاً، وكل ما أحسستُ به أنني أصبحتُ أقفُ على يابسة، وصوت صراخ مارجيت قريب منّي جداً..

ناديتُ: "ماريا؟؟ فيكتور؟؟".

لم أتلقَّ جواباً منهما، ولا أدري في أيّ اتّجاه هما.. أمامي بحرٌ مليء بالجثث والأموات، وأنا أقفُ بعيداً على يابسة هي بداية لكهف، يخرج منه صراخ مارجيت وبكاؤها..

ناديتُها: "مارجيت؟؟؟ مارجيت أين أنتِ؟".

وتقدمتُ قليلاً ألقي نظرة نحو الكهف، وجدتُ أنه مليء بأعمدة خشبية تقف متفرقة عن بعضها... ووجدتُ مارجيت مربوطة إلى عامود، وهناك حبال بيضاء تُحيطها وكأنها حبال عنكبوت كثيفة،

دوحة الكتب حصرية

ومارجيت في داخلها تحاولُ الفرار والخروج منها. ولكنَّ الحبال البيضاء كانت تتمدد مع حركات مارجيت وتحريكها ليديها، ولا تنفصل أبداً.. كلّ ما أراه هو جسد مارجيت يرسم أشكالاً مرعبة من خلف شباك العنكبوت التي تحيطُ بهِ، وأسمعُ صراخها من خلفه.

تقدمتُ نحوها أحاولُ فصل شباك العنكبوت لفتحها لها، فأول فكرة خطرت لي هو أنّه عليَّ مساعدتها في الحصول على مزيد من الهواء، ولكنَّ الشباك لم تنفصل عن بعضها مهما حاولتُ خدشها بأظافري، كانت تنزلق وحسب.

حاولتُ أن أمسكَ يديها اللتيْنِ كانت تلوّح بهما في الهواء، وأؤكد لها أنني هنا. هدأ صراخُها قليلاً وبكاؤها، وقالت: "لوسيا، لوسيا هذا أنتِ؟".

- "أجلْ أنا هنا يا مارجيت.. أنا هنا".

- " أينَ أنا.. لا أستطيع الخروج!".

- "من وضعكِ هنا؟"

- ".. لقد كنتُ في المياه، وظننتني سأغرقُ حينما بدأتْ تلك الجثث بالسقوط. ولكن هنالكَ من سحبني، ثم وجدتُ نفسي محتجزة هنا، ما هو هذا؟ ما الذي أنا بداخله؟"

- "لا أدري.. أنتِ مربوطة إلى ما يشبهُ الجذع الخشبي، تحيطكِ خيوط كشباك العنكبوت. لم أستطعْ إزاحتها ولا أدري ماذا أفعل!!.. نحتاجُ ماريا وفيكتور!".

- "أنا لا أرى شيئاً!.. إنَّ الظلام دامس".

- ".. أجل أعلمُ،.. أعلمُ... لقد فعلتْ ماريا سحراً يمكّنني من الرؤية في الظلام... لهذا فقط".

- "ماذا ترينَ أيضاً؟" قالت بصوت متعب جداً

لم أنتبهْ إلى ضرورة البحث حولي، فعلتُ ذلك الآن، حقاً ربما كان يوجد شيء ما يُمكنني استخدامه لقطع تلك الحبال.. ولكن من خلال النظر حولي فقط؛ استوعبتُ حجم الرعب الذي كنتُ أقف في وسطه! لم تكن مارجيت هي الوحيدة الملتصقة بتلك الأخشاب، كانت هناك أجساد أخرى ملتصقة بالأخشاب الواقفة، بعضُها يتحرك بضعف، بعضُها قد حاول الانشقاق عن الخشب وماتَ وتجمّد في وضعية تجعل بعض الخيوط منفصلة، بينما جسدهُ ساقط إلى أسفل والخيوط تغطّيه. شعرتُ أنَّ تلك الأجساد كلها حية.. لم تعطني إيحاءً بأنها ميتة.. شيءٌ ما كان يخبرني أنّها حية. سمعتُ صوت نداء بعيد قادم من البحيرة السوداء.. التفتُّ هناك على أمل أن أجد ماريا وفيكتور عند اليابسة. ذهبتُ إلى

اليابسة وناديت: "ماريا" ثم:

"فيكتور". لم أسمع أيَّ جواب.. ولم أرَ أيّة حركة يمكنها أن تدلّني على موقعهما ومكانهما.

التقطتُّ أنفاسي، ثم قررتُ أن أركز على إنقاذ مارجيت؛ علّها تساعدني في البحث عنهما.. وفورَ أن التفتتُّ نحو مارجيت، رأيتُ كل من كانوا محتجزين في الخيوط العنكبوتية قد بدؤوا بالتحرك، وهم معلقون في تلك الأخشاب. والشيء الوحيد الفاصل بيني وبينهم، هو تلك الخيوط العنكبوتية الشديدة، التي لم أستطع فصلها عن جسد مارجيت.

أوقفَ ذلك المنظر قلبي، وأنا أراهم يحرّكون أطرافهم من خلف تلك الخيوط، ويشكلون بذلك أشكالاً مخيفة لكائنات تحاولُ أن تتمرد من سجنها. آثرتُ التراجع، لكنَّ قدمي غطست في المياه، لم أملك أدنى فكرة عن مكان يمكنني اللجوء إليه،.. كنتُ أسمع منهم صرخات متأوّهة، مليئة بالألم والعذاب. بدأتْ بعض الأجساد التي تغطّيها خيوط عنكبوت أقلّ تنسلخ من مكانها وتسقط أرضاً، تباشر بالزحف نحوي. لم أعلم أينَ يمكنني أن أختبئ. لم يكن بإمكاني العودة إلى المياه. أسرعتُ نحو مارجيت التي كانت قد خففتْ من صراخها،

ولكنها لم توقف حركتها. بقيتُ مختبئة خلفها، وقلتُ لها بهمس: "هنالكَ أشياء غريبة هنا "!

"ماذا تعنين بأشياء غريبة؟". سألتني من خلف شباك العنكبوت.

أجبتُ: "لا أدري، أشخاص محتجزون مثلكِ. لكن.. لكن أظنُّ أنهم أموات".

" لوسيا، عليكِ أن تهربي".

قلتُ بيأس: "لا يوجد مكان أذهبُ إليه، ولا أحد أذهبُ معه،... لا ماريا ولا فيكتور. وأنتِ محتجزة هنا".

"عليكِ أن تذهبي وحدكِ.. عليكِ أن تعيشي يا لوسيا "

"لا.. لا يمكنني". انتبهتُ إلى أنَّ تلك المخلوقات الجثث المتآكلة التي انسلختْ عن العمود الخشبي قد انتبهتْ إلى صوتي، وسارعت تأتي نحوي؛ فامتنعتُ عن الكلام. ولكنَّ مارجيت التي لا ترى ما تفعل، ظلّتْ تناديني ظانّة أنَّ شيئاً ما قد حصل، فالتصقَ بها الكائن بينما أنا أتراجع بهدوء وخوف عارميْن، لا أدري ماذا سيفعلُ بها؟.. علمتْ مارجيت بسبب أنفاسهِ وأصوات صراخه الغريب وهو يئنّ، أنه كائن ما، والتزمت الصمت. ولكن

من أنفاسها كان يمكنني أن أعلمَ كم كانت متوترة وخائفة.. بينما مازلتُ أتراجعُ، اصطدمتُ بجدار الكهف، وكانت بعض الكائنات قد شارفت على الانسلاخ أيضاً. تركَ الكائن مارجيت، وذهبَ ناحية اليابسة وسحبَ جثة، وأخذ يأكلها!.

لم يكن لديَّ مكان أتوجَّهُ إليه، لا يمكنني العودة إلى المياه الآن.

قالت مارجيت بصوت هامس، بعدما عدتُ إليها وأحسَّت بي: "لوسيا.. اتبعي سالي. ابتعدي من هنا.. اذهبي الى سالي "

تذكرتُ فجأة الخيط المربوط بإصبعي، والذي من شدّة خوفي وهلعي نسيتُ أمره، وكان بالفعل يقودني إلى داخل الكهف أكثر. متجاوزةً جميع تلك الكائنات إلى أعماقه المظلمة. تشجعتُ وتبعته. أغوصُ في ذلك الكهف بأسرع ما أمكنني، وأحاولُ أن ألتزم الهدوء والحذر. وصلتُ إلى آخر الكهف، ووجدتُ تابوتاً تجلس فيه سالي بسكون. الخيط الأحمر أصبح أقصر فأقصر. تذكرتُ أنَّ هذا الحبل بقصره قد قطعَ إصبع ماريا.. توترتُ خوفاً من أن يحصل نفس الشيء معي،.. وصلتُ قربَ سالي، وأمسكتُها ورحتُ أهزّها. كانَ ذلك جسد سالي، وكانت بملامحها،.. كان يمكنني أن أرى آثار

الطعن على جسدها، وتسيل منه دماء قد جفّت. حرّكتُ جسدها لعلها تُجيبني. لكنّي شعرتُ بأنَّ الخيط الأحمر يربطُنا، فبحثتُ عن يدها التي رُبطَ فيها الخيط الأحمر أيضاً، وأحطتُّها بكلتا يديَّ، وأغمضتُ عينيَّ وناديتُ: "سالي".

عندما فتحتُهما من جديد، كنتُ في مكان آخر، لم أعد مبللة في ذلك الكهف الرطب والمظلم. أصبحتُ أقفُ في غابة يغطيّها بياض الثلج، أشجارها سوداء. تقف سالي على ضفة تطلُّ على نهر من الدماء، المكان الذي حلمتُ به قبلاً. تقفُ هناك، تعطيني ظهرها.

قالت: "أخيراً جئتِ لنكتمل"

"أين نحنُ يا سالي؟".

"في أمان "

نظرتُ حولي، كانت ملابسي وشعري قد أصبحوا جافّين. كانت الغابة ممتدة إلى أبعاد لا متناهية. قلتُ لها: "علينا العودة لإنقاذ مارجيت".

"لقد نالتْ ما تستحقه". ردَّت ببرود.

"أعلمُ. لكن.. الموضوع أكثر تعقيداً مما تظنين. لايوجد مسوّغ لديها لقتلكِ، ولكن... جميع من عرفناهم في حياتنا كانوا قتلة يا سالي. لقد.. كنّا

نعيش وسطَ كذبة".

"أعلمُ". ردَّت ببساطة.

أكملتُ: "حتى والدنا.لذا.... أنا أيضاً لا يمكنني أن أفهم ما يجري... فجأة أنتِ أصبحتِ ميتة مكاني.. وأنا يجبُ عليَّ أن أبقى حية ليستيقظ الشر... لكن... إنهم هنالكَ في الأعلى قد يقتلون أيَّ شخص آخر بدلاً مني... بقائي على قيد الحياة، وتعريض كل مَن أعرفهم للخطر لا يفيد أحداً.. أنا.. أنا لاأفهمُ لمَ أنا حيّة؟ ولمَ يجب عليَّ أن أبقى حيّة؟ بينما أنتِ متِّ مكاني؟".

"في تلك الليلة، أخبرني أبي أنه سوف يضحّي بكِ في الطقوس "نظرتُ إليها بكل صدمة! لم أعلم عمَّا تتحدث، وهذا ظهرَ في وجهي.

"كان غاضباً منكِ لعصيانكِ أوامره، وأنتِ كنتِ متمردة دائماً. أخبرني أنَّ الاختيار قد وقعَ على عائلة بانكرافت، وأنه ينوي أن يضحّي بكِ قبل أن تتمادي في أخطائكِ".

"ماذا تقولين؟"

"عندما أخبرني.. لم يكن يستشيرني... أو يُهيّئُني لفقدانكِ. لقد كان فقط يخبرني... ربما لكي لا أعصيه أبداً. فعلى عكسكِ أنتِ يا لوسيا.. لقد كنتُ

أعلم بشأن تلك الطقوس منذ مدة طويلة".

سألتُها ببلاهة: "تعلمينَ بشأن الطقوس التي يقتلون فيها الأبرياء؟"

أجابتني: "لقد كنتُ المفضّلة لديه..تبعتهُ مرة عندما ذهبَ إلى إحدى الطقوس.. من السهل جداً أن تنخرطي معهم عندما ترتدينَ نفس ردائهم الذي يخفيكِ عن الأنظار، تصبحينَ جزءاً منهم.. الفرق أنَّ أيديهم ملطخة بدماء بعضهم.. على عكس يديكِ".

سمعتُ صوتها من الخلف يقول: "تعالي إليّ". ثم دفعَني أحدهم بلطف نحوها، فنزلتْ قدميَّ في الجدول الدموي.. وسرتُ نحوها. نظرتُ إلى يدها وتأملتُها طويلاً وهي ماتزالُ تعطيني ظهرها،.. ثم تابعتْ: "على أيّة حال.. علمتُ أنها لم تعد سوى مسألة أيام لتختفي من حياتنا... لذلك لم أضيّع لحظة واحدة... ذهبتُ إلى بيتر.. وحاولتُ إغواءَه،.. لم أمانع أن يُخطئ ويظنّني أنتِ.. وما كنتُ لأمانع أن أستمرَّ في خداعهِ لفترة طويلة بعد أن تموتي، فيظن أنكِ ماتزالينَ حية... لم أمانع،.. كل ما أردتهُ هو بيتر... ولكنه ميَّزني..،كنتُ أظنُّ أنهم قد أخذوكِ وانتهى أمركِ، ولكنكِ ظهرتِ وكشفتِ ما فعلتهُ... وبقية القصة أنتِ ربما تعرفينها... غادرتِ أنتِ البلدة دون أن تعلمي أحداً سوى

إزميرالدا،.. وبالكاد لاحظنا أنا ووالدي إختفاءك، ففي النهاية كنّا جميعاً لا نتحدث معاً،... وسرعانَ ما تمَّ اختطافي من قبل سكان البلدة ظنّاً منهم أنني أنتِ... كمَّموا فمي وخدَّروني... حقنتني مارجيت بدماء حيوان ما.. ثم طعنوني حتى الموت... وها أنا هنا... وقد نلتُ ما أستحق. ربما هذا ما تفكرين به. لكن أريدكِ أن تعلمي.. أنني كنتُ أنتظركِ في المكان الذي تجلسين فيه دوماً عندما تكونين غاضبة.. لكي أعتذر منكِ". في تلك اللحظة رأيتُ سالي من الخلف تحتضنُ نفسها، وتسقط نحو الأرض وهي ترتجف، تبكي. لم أعلمْ ما جرى لها.

عندما وصلتُ إليها، أسرعتُ أحتضنُها من ظهرها.

"لا سالي... لا أحد يستحقّ ذلك... لا أحد يستحق القتل... أبداً".

"لقد متُّ.. مراراً وتكراراً... مراراً وتكراراً... لقد أخرسوني لفترة طويلة". قالت بينما كانت تنتحب.

"لا أعلمُ ما أفعل... كيف يمكنني إيقاف كل هذا". شاركتُها ألمي.

قالت وهي تراقبُ العدم، وعيناها غارقتانِ في الدموع: "لقد فعلتُ منذ مدة طويلة.. باراديايس شيل،.. لقد انتهى أمرهم جميعهم".

"ماذا حصلَ لهم؟". عمَّ الهدوء فجأة بعد سؤالي هذا. فالتفتتْ إليَّ ببطء، وهذه المرة كان وجهها يضمُّ ملامحها.

قالت والدموع تنسابُ من عينيها: "آسفة يا أختي". واحتضنتْني في عناقٍ طويلٍ، لم تفلتني ولم أفلتْها... كم احتجْنا إلى بعضنا لحظتها.. مهما صارَ بيننا.. فقد كانت هي أختي التوءم.. نصفي الآخر. ارتفعَ الجدول المائي خلفنا.. وأحاطنا بأذرع ممتدة منه، ليبتلعَنا إلى داخله. قبلَ أن يحجبَ رؤيتي ونظري، كنتُ ألمحُ من يتقدم نحونا، لم أرَ وجهه قط.

ماريا كارسون

استمرّيتُ في السباحة أنا وفيكتور، نحاولُ أن نتبع الاتجاه الذي تمَّ سحب لوسيا إليه.

"ألا تملكينَ سحراً يمكنهُ أن يوصلنا إلى وجهتنا بطريقة أسرع؟"

"الأمر ليس وكأنني أملكُ كتيّب إرشادات وتعليمات يا فيكتور"

كان فيكتور يزيحُ الجثث عن طريق سباحتنا، حتى سمعنا صوت نداء لوسيا باسميْنا،.. نظرنا حولنا حيث لا توجد أية معالم يمكننا أن نستفيد منها، نحنُ في كهف مظلم نسبح في مياه سوداء تطفو الجثث على سطحها في كل الاتجاهات.. كل ما استطعنا فعلهُ هو تحديد مصدر صوتها. أسرعنا في السباحة إلى هناك. لم تنادِنا لوسيا مجدداً. واستخدمتُ أنا سحراً كان مثل ضوء من النجوم يسيرُ في اتّجاه مكان لوسيا، بعد أن استطعتُ أن أخمّن مكان وجودها. سبحْنا بجدّ وكادت قوانا تخور، لكننا أخيراً وصلنا إلى ضفة اليابسة التي سمعنا منها صوت لوسيا.

بيدَ أنَّ لوسيا لم تكن من تنتظرنا هناك، بل كائنات عجيبة عادت من الموت، أجساد لم تعد تمتُّ إلى

الهيئة البشرية بصلة، تزحف على قوائمها الأربعة، تشتمُ الأرض، تبحثُ عن مصدر للصوت أو للطعام. أصابتني القشعريرة لمجرد النظر إليها!. لم نتمكن أنا وفيكتور من الصعود إلى تلك اليابسة.. لم نكن أنا أو فيكتور قد واجهنا أمراً مثل هذا من قبل، لكنني علمتُ في داخلي أنَّ دماء أجدادي تحدّثني، أنَّ الحلّ يكمنُ في الجثث التي تملأ المياه. طلبتُ من فيكتور أن يناولني سكّينهُ المحمولة، وعندما فعلَ، أخبرته بأننا سنبتعد مباشرة بعد أن أفعلَ ما أودُّ أن أفعله. باشرتُ بتقطيعِ القماش الذي كان يغطي إحدى الجثث، لتظهر أجزاء من جسد الجثّة. لم أملك القوة لأمزّق القماش عن وجهها، ولكنْ فقط عن الأيادي والأقدام والأجساد. ظللتُ أمزّقُ الأقمشة التي تحيط بعددٍ من الجثث، حتى لاحظنا أنَّ تلك الكائنات بدأت تغوصُ في المياه السوداء. انتهزنا الفرصة وأسرعنا نتسلق اليابسة مكانها، بينما هي تنزلُ إلى المياه السوداء بأعداد كبيرة. كلّ ما نراه أنّها تذهب إلى تلك الجثث المكشوفة، وتسحبُها إلى ظلمة المياه دون جلبة أو ضجة، فلا تطفو تلك الجثث من جديد مرة أخرى.

حوّلنا تركيزنا لما كان يجري على اليابسة تلك. فنحنُ لم نجد لوسيا، كل ما وجدناه هو بعض الكائنات الباقية التي تحاول الانسلاخ من أعمدة

خشبية قديمة، وبعض الأجساد التي تحاول أن تتحرر من حجزها. ولكنَّ الخيوط حولها أقوى وأسمك،.. وأخيراً كان هنالكَ جسد لا يتحرك أبداً،.. وكانت الخيوط عليه تبدو جديدة..

همستُ من بين لُهاثي: "مارجيت!".

وأسرعتُ قبل فيكتور في محاولة تخليص الجسد الذي آمنتُ وعلمت بطريقة ما أنهُ يعود إلى مارجريت. لم تفلح محاولاتنا؛ فقد كانت الخيوط سميكة حتى بالنسبة لسكين فيكتور، ثم استيقظتْ قواي السحرية المكنونة في داخلي، ودلتني على ما يتوجب عليَّ فعله.

توجهتُ إلى أحد الأعمدة الخشبية التي كانت فارغة من أيّ جسد معلق، وطلبتُ من فيكتور مساعدتي في سلخ لحاء الشجر، وصنع أعواد طويلة منه. لم يفهم ما كنتُ أفعله ولكنهُ نفّذه دون تأخير، وفورَ أن ناولني عود الخشب الأول، طلبتُ منه أن يستمر في صنع الأعواد، وتوجهتُ نحو مارجيت وهمستُ لها: "سنخرجكِ!".

بدا وكأنها استيقظتْ من غفوة وهي تنادي بأسمائنا بتعب واضح في صوتها، بدأتُ بسحب الخيوط الثقيلة والسميكة، وبإدخال عود الخشب ما بينها وكأنني أحيكُ لباساً من الصوف. أتركُ مسافة ثم

أعيدُ إدخال قطعة اللحاء عبر الخيوط بسحبها. استمرَّ فيكتور يناولني الأعواد، وكررتُ ذلك في كل الجهات التي تحيط بمارجيت، حتى بدأت قوة الخيوط تخفّ تلقائياً أمام أعيننا، ثمَّ تهاوت وسقطت وقد أصبحت مهترئة، وكأنها لم تكن جديدة تماماً منذ دقائق.

التقطَ فيكتور جسدها قبل أن تتهاوى نحو الأرض،عاينتُها لأتأكد أنها لم تكن مصابة، بقلق. كانت متعبة جداً، ساعدناها على الوقوف، وسألتُ فيكتور: "هل يمكن لعينكَ أن ترى أيَّ شيء من الضباب الأحمر؟".

- "كلا.. المكان مظلم بشدة، سحركِ فقط هو ما يسمح لنا بالرؤية،.. الآن.. كل الألوان أصبحت واحداً".

- "لوسيا كانت هنا.. لوسيا كانت هنا". قالت مارجيت ذلك وسط التقاطها لأنفاسها.

- "نعلم،.. لكننا لا نعلم أينَ ذهبت الآن". قلتُ ذلك وأنا أضعُ يدي على جانبيّ رأسها؛ لأستخدمَ عليها السحر الذي يسمح لها بالرؤية في الظلام.

- "لقد قالت أنَّ هنالك كائنات غريبة، وهربت منها".

نظرتُ إلى الخلف نحو الكائنات التي كانت قد انتهتْ فعلاً من التخلص من كل جثة كشفتُ لها جزءاً منها، لم يعد الوقت يُسعفنا،.. قلتُ: "..لا نملكُ سوى التوغل أكثر في هذا الكهف".

وهذا بالفعل ما فعلناه..

استمرينا نهبط حتى وصلنا إلى ما نظنّه بؤرة الكهف، كانت غرفة واسعة مرسومٌ فيها نقوش غريبة.

تتوسّطها طاولة عليها تابوت مغلق، اقتربنا منهُ، وفتحهُ فيكتور فوجدنا في داخله لوسيا نائمة إلى جانب جثة سالي، شهقنا جميعاً برعب، وحاولنا إخراجها. ولكنَّ قوة فظيعة أبعدتنا نحن الثلاثة، وأسقطتنا أرضاً.

نهضنا واستعدْنا توازننا، وحاولنا أن نقترب. ولكننا شعرنا بأنَّ هنالك طاقة حية تمنعنا من الاقتراب من لوسيا. أنيرتْ بعض المشاعل التي كانت موجودة على الجدران والتي لم نلاحظها مسبقاً، ولكنها كانت معلقة بالمقلوب. نظرنا حولنا بارتباك، ومن دون حديث وفقط من نظرات أعيننا الهلعة والتي لم تكن تفهم شيئاً، استطعنا استشعار الشر! الكيان المظلم الذي عاد إلى الحياة، والذي أصبح أقوى.

قلتُ وكأنني أحدّث نفسي، ولكنني كنتُ أشرح لمارجيت وفيكتور: "سالي.. عندما رأيتُها كانت من دون معالم وتقاسيم الوجه، كانت تفقد الحواس الخمس الأساسية.. لم تكن سوى جسد يتحرك،... لوسيا.. لوسيا سوف تكون الروح.."

صاحت مارجيت: "أتعنينَ أنَّ الشر.. اكتملَ؟ استحوذَ على جسد كامل بموت لوسيا؟ وليس فقط بتدنيس طقوس الشر؟،.. أتقولين الآن أنه حقاً استيقظ؟.. وأنه سينتقم من بارادايس شيل بمَن فيها؟".

تقززتُ من كلامها، ولكني أجبتُ: "..لقد استحوذَ على لوسيا بطريقته،... قتلُها في الطقس الجديد كان سيعني إسكات جوعه.... أجل... الآن... إنه حي أكثر من أي وقت مضى".

قال فيكتور وهو يتقدم نحو التابوت: "علينا أن نخرجها،.. ماريا أيمكنكِ أن تفعلي شيئاً؟".

نظرتُ بعزم وبتصميم إلى الهالة التي كانت متشكلة حول التابوت. وعلمتُ في قرارة نفسي أنه يمكنني بالفعل أن أفعل شيئاً، كانت تلك رسائل أجدادي تسري عبر ذهني.. رفعتُ كلتا يديَّ نحو التابوت والهالة التي تطفو حوله. وقبل أن أستطيع أن أنطقَ بأي شيء وأن أوجّهَ أيّة طاقة أملكها

نحوه،.. سمعتُ صوت إطلاق نار عالياً جداً،... نظرتُ نحو المصدر ببطء لسبب ما،.. كان هنالك قطعة ناقصة في عقلي، التفتتُّ نحو مارجيت التي كانت تقف في الخلف تمسك مسدساً، والتي سرعان ما هرعَ فيكتور نحوها، وأطاح بها أرضاً.

لقد كانت تُصوّبُ المسدس نحوي،.. نظرتُ إلى بطني التي أصبحت مضرجة بالدماء.. أو ربما كانت الإصابة في صدري،.. لا أدري.. كل ما رأيتهُ هو دماء تبلل ملابسي وتتدفق.. وسرعان ما خارت قوى قدميَّ وهبطتُّ أرضاً.

وجاءني فيكتور بعد أن سلبَ من مارجيت سلاحها، ويبدو أنهُ قد ضربها به وأفقدها وعيها، ليأخذني في حضنه، ويُسندني وتتسخ ملابسه بدمائي..

كنتُ أرى شفتيهِ تتحركان وتناديان باسمي.. ولكنني لم أكن أسمعهُ،.. رأيتُ عينيهِ تحمرّان وتذرفانِ دموعاً، غير مصدّقتين لما يجري أمامهما!.

لطالما كنتُ أستطيع قراءة كل ما يفكر به هذا الرجل، فقط من عينيهِ.. من عين واحدة حتى،.. لم أحتجْ إلى أيّ سحر لفعل ذلك..

كان خائفاً، مرعوباً، يتملكهُ الذعر والصدمة!..

أنا مصابة، أنزفُ بغزارة،.. كيفَ سينقذني؟..

كيف سيحملني من باطن الأرض وإلى عنان السماء سعياً لإنقاذ حياتي؟.. كيف سيملكُ فرصة لكي يضمن حياتي... بينما نحن هنا... في قبر يحتوينا نحن الاثنان، في أعمق بقعة في الأرض؟

ترامى إلى مسامعي: "استخدمي سحركِ.. استخدمي سحركِ أرجوك". أجل.. سحري... الذي توارثتهُ من سلالة نادرة ومنقرضة من السحرة. سحري الذي يسري في دمائي..الذي كان موجوداً منذ لحظة ولادتي.. الذي أرغمني على عيش حياة كئيبة.. حياة بلا طعم،.. سحري الذي يؤكد لي أنَّ لي مصيراً عظيماً في مكان ما يجب أن أبحث عنه، وأن أحقّقه،.. سحري الذي منعني من تذوق ألوان الحياة، ومن سماع أغانيها.. ومن رؤية أطياف ألوانها.

لم أرَ سوى السواد.. ولم أسمع سوى النحيب والكراهية... ولم أذق بسببه سوى الألم.

سحري الذي يفترضُ به أن يجعلني مميزة.. أرغمني أن أعيش حياة ناقصة: "سحري الذي كرهتهُ، منذ أن عرفتكَ فيكتور."

- "أيمكنكِ علاج جرحكِ؟ أرجوكِ ماريا افعلي شيئاً، أنا... أنا".لم يستطع أن ينطقَ بها.. لم يستطع أن يخبرني أنه لا يملك حيلة للخروج بنا

من هنا... ابتسمتُ له... لم أحتج إلى الكلام... لقد فهمَ من نظراتي أنني لا ألومهُ.. ولا أطلبُ منه شيئاً... بل كل ما أطلبه منه هو الاستسلام لما يجري... وهو أمر جعلهُ ينتحب كالطفل... احتضنْتهُ بأقوى ما لديَّ.

سمحتُ لكل مشاعري التي كتمتُها لسنوات طويلة، أن تنساب عبر جسدي لتصلَ إليه..

- "أحبّكَ.. أحبّكَ جداً".

- "أحبّكِ إلى الأبد".

- "فيكتور.... لكَ الخيار..."

- "خيار"؟

"لا يوجد سبيلٌ لإنقاذي... سأموتُ... وأنتَ لك الخيار". لم يفهم شيئاً من كلماتي... ولم أملك المزيد من القوة لأشرح... لذا فضلتُ أن تكون آخر كلماتي... "أحبّكَ.. أيها القرصان"، وشعرتُ بوعيي ينطفئ، بينما أستخدمُ سحري للمرة الأخيرة.

فيكتور

ضممتُ ماريا إلى حضني ودموعي تبلّلها، لم أصدق ما كان يجري لنا، لم تكن هنالكَ أية أفكار تغزو عقلي، فقط الذعر يعتريني. لا أعلمُ ماذا أفعل؟ أردتُ أن أنظر إلى وجهها للمرة الأخيرة، ولكن حينما أبعدتُ جسدها عني لأفعل ذلك لم أستطع. كانت وكأنما قد تحجّرت مكانها. حاولتُ أن أحملها دون أن أستسلم، وأفعل أي شيء لإنقاذ حياتها، لكنها لم تتزحزح. كان إحساسُ أنّها حجر غريباً جداً.. ثم نظرتُ حولي بصدمة، كان كل شيء حولنا قد توقف: الهالة الدائرية التي تدور حول جثّتي سالي ولوسيا، مارجيت التي كانت تحاول النهوض قد تحجرت مكانها.. الهواء قد توقفَ. كل شيء قد توقف.

شعرتُ بنسمة هواء قادمة من خلفي، وجدتُ باباً مفتوحاً قليلاً تدخل الرياح عبرهُ. لم أعلم من أينَ ظهر ذلك الباب؟، وتذكرتُ كلمات ماريا الأخيرة: "الخيار لكَ". تساءلتُ عمّا تعنيه؟ ولكن إن كانت قد استخدمت قواها لإيقاف الوقت بطريقة ما. ربما يمكنني إنقاذها؟

ما هو الخيار الذي يجب عليَّ اتّخاذه؟ ماذا كانت تعنيهِ بتلك الكلمات؟ ولمَ يوجد باب في جدار هذا

الكهف اللعين؟بقيتُ أبكي.. ولم أكن أريد مغادرة ماريا وتركها. أردتُ الموت إلى جانبها، لكني نهضتُ وفتحتُ ذلك الباب الذي وجدتهُ يقود إلى الغابة مباشرة!حاولتُ أن أعود وأحمل ماريا، لكنها لم تتزحزح، وقد كاد يجنّ جنوني لهذا الأمر.. أهذا يعني أنَّ عليَّ أن أترك جسد المرأة التي أحبّها هنا، وأن أنجو بنفسي؟

أيعقلُ أنَّ هذه ستكون نهاية قصة حبّنا؟ ولكن بما أنَّ هذا مخرج إلى الخارج، ربما أستطيع جلب المساعدة لها، ثم التعامل مع هذا السحر.توجهتُ نحو ذلك الباب وفتحتهُ.. عبرتُ عبره.. كان كل شيء ثابتاً. كانت غابة بيضاء هي التي خرجتُ إليها.. غابة بيضاء فيها جداول مائية من الدماء.. غابة بيضاء لا تعبرها نسمة هواء.. ثابتة لا تتغير كالماضي. ولكن بعد أن سرتُ حتى خرجتُ من هذه الغابة.. بدأتُ أعرف أين أنا. لقد كنتُ في بارادايس شيل. بنسخة بيضاء منها.. تغطيها الثلوج المضرجة بالدماء.

بدأت البيوت تظهرُ لي.. ومعالم البلدة.. وكذلك جثث سكانها الساقطة في كل زاوية ومكان. كانت الصورةُ تبدو وكأنَّ وباءً اجتاحَ البلدة وقتل كل من كان فيها. دخلتُ بيوتاً لأجد السكان موتى

متجمدين.. وآخرون في زوايا يُحتضرون. لم أجد أثراً لأيّ شخص حيّ يمكنه أن يراني.. ناديتُ وصرختُ طلباً للمساعدة في هذه البلدة الباردة المتجمدة.. ولم يجبْني أحد.

لا أعلمُ إلى أين أذهب!، لا أرى سوى البياض والدم الدَّبق. خلعتُ رباط عيني، فوجدتُ الضباب الأحمر هو سماء البلدة، وهو ما يمطرُ عليها الدماء بقطرات ثقيلة. فهمتُ أنه قد سيطر على هذه البلدة تماماً.. لقد أصبح كغمامة فوقها. سمعتُ صوت أنينٍ قادمٍ من نافذة إحدى البيوت.

أسرعتُ لألقي نظرة؛ فوجدتُ رجلاً يئن والدماء تغطيه،.. يجلسُ مكانه ويبكي فحسب.. ثم بدأتُ أسمع الكثير من أصوات الأنين والبكاء تندلع من كل زوايا البلدة.. متزامنة مع بدء هطول أمطار الدماء الحمراء التي تطبع لونها على الجليد الأبيض الذي قد غطى كل شيء. لقد رأيتُ أغرب مشهد في حياتي!.كان الناس يعيشون حياتهم بشكل عادي، حتى بدأت الدماء بالهطول عليهم. سرعان ما وقع بعضهم أرضاً يصرخون ويتألمون، وآخرون يؤدّون واجبات حياتهم العادية مغطّينَ بالدماء.. الحزنُ والكآبة تنبعثُ منهم.. وقليلون منهم لم يتأثروا بشيء.

هنالكَ من يزحفُ على الأرض مغطى بالدماء، يحتضر ويوشكُ على الموت. لكن لا أحدَ يعيره اهتماماً.. هنالك من يشتري الخبز وهو في تلك الحالة المزرية من الحزن والتبلد. فهمتُ أنني لم أكن في بارادايس شيل الحقيقية.. لقد كنتُ في العالم الروحي لبارادايس شيل. لقد كنتُ في عالم الهالات لأولئك الناس.

لقد كان الشر يلطّخ أرواح الجميع.. يغرقها بالدماء ويلوثها.

لم أحتجْ أن أخمّن أنَّ هؤلاء في حياتهم الطبيعية الآن يعانون الأمراض النفسية والآلام الجسدية والعلل. لقد أصبحوا سموماً في حياة بعضهم بعضاً، أسقاماً وشروراً على بعضهم بعضاً.

لابدَّ أنَّ الحياة الآن في بارادايس شيل مرعبة.. سوداء.. مظلمة.. بسبب غيمة الشر التي تهطلُ عليهم دماءً ملوثة.لم تكن تلك الدماء تُصيبني.. كنتُ لا أتأثر بها.. على عكس كل شيء آخر. لمَ أنا هنا؟ هل أنا هنا لإنقاذ كل هذا؟ أم لأرى الحالة التي قادتْ إليها رغبتي في منع طقوس التضحية وإنقاذ لوسيا؟ لقد كانَ كل أولئك الناس في بارادايس شيل محقّين.. كانت طقوسهم حقيقية وصحيحة.. عندما لم يؤدوها بشكل صحيح، الكل دفعوا الثمن.

ما هو الصواب وما هو الخطأ؟ أكان عليَّ أن أستمر في تركهم يقتلون بعضهم بعضاً، والأبرياء منهم كذلك؛ لكي أمنعَ موت الجميع وانتشار الشر الذي يقضي على النفوس بأمراض الاكتئاب والسواد؟ أم أنَّ ما يحصل هو ناتج عن الفعل الصحيح، وهو وجوب كسر دائرة الظلام وجعل الجميع يدفعون الثمن في مغادرة هذه الأرض الملعونة إلى الأبد؟

أيعني هذا أنَّ كل هذا الموت معلَّقٌ في عُنقيْنا؟ أنا وماريا؟

هل رغبةُ لوسيا في الحياة لم تكن حقاً من حقوقها؟ هل موت كل هؤلاء البشر بريئينَ كانوا أم مذنبينَ هو خطؤهم؟؟ إنْ أنقذتُها واستمرَّ كل هذا ورأتهُ،.. هل ستنوي الاستمرار في العيش؟ تساؤلاتي لا نهاية لها، وصوتٌ في رأسي لا يتوقف عن الصراخ.

سقطتُّ على ركبتيَّ وسط الشارع بين الموتى، وبين مَن مايزالونَ يصارعون للتشبث بحياتهم في معركة خاسرة.

بقيتُ فترة في عالم بارادايس شيل هذا، التي لاحظتُ أنَّ الكثيرين فيها قد تغيروا إلى الأبد. لم تكن تلك بارادايس شيل الحالية.. بل كانت البلدة بعد مرور عدة سنوات على الزمن الذي عشتهُ أنا

فيها. عندما عدتُ إلى مكتبي.. وجدتُ أنه أصبح مسكناً لعائلة تعاني من الأمراض النفسية، بسبب انتشار الشر غير المرئي وهالته فوق البلدة.

التواريخ المعلقة في أوراقهم البالية تشيرُ إلى مرور عدة سنوات. لم أفهم كيف مرت هذه السنين ونحنُ في الأسفل. لم يعد هنالكَ وجود للعوائل المؤسسة.. وهنالكَ نُصب عملاق كُتبتْ عليه كثير من الأسماء. لا أعلمُ كيف توفّيَ أصحابها، وكيف حصل ذلك؟.. ولكن كان معظم من عرفتُ أسماءهم يوماً على النّصب... مكتوبٌ أنهم ضحاياً انهيار كهف.

إذاً فلقد انهارَ الكهف عليهم، قبل أن يقوموا بتأدية طقس جديد. لهذا دُفنَ الأمر للأبد. وجدتُ اسم تيموثي بارنز بينهم. والآن ماذا يمكنني أن أفعل؟ وأنا لستُ سوى مجرد طيف على الطرف المظلم من الحياة، لاأملكُ حيلةً لفعل شيء للأحياء أو للأموات؟

أمحكومٌ عليَّ أن أعيشَ بقية أيامي أراقب البشر يسقطون واحداً تلو الآخر؟ أيعقلُ أنَّ كل ما يمكنني فعله هو مراقبة توسع غيمة الشر التي ستُغرق بارادايس شيل، ثم ستطفو وتتوسع إلى البلدة التالية. كل ما يمكنني فعلهُ هو مراقبة دائرة جشعها

تتسع دون قدرة مني على إيقافها؟

قررتُ أن أتوقف عن المسير وعن المقاومة.. سوف أتركُ كل شيء؛ فلم يعد هنالكَ ما يستحق أن أقاتلَ أو أعيش لأجله.

كانت بارادايس شيل غارقة في الدماء.

لقد كنّا سنغرق ونهلك لا محالة. لمَ فتحت لي ماريا ذلك الباب؟ لقد قالت إنَّ لي الخيار؟.. ولكن في هذه الحالة بلا جسد.. فأنا لا أستطيع أن أكون جزءاً من أنفاس الأحياء.. ولا يمكنني أن أستريح كالأموات. ما هو الخيار الذي يمكنني أن أختارهُ الآن؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟

إن كان ذلك الكهف قد انهارَ.. وأنا الآن في المستقبل. ألا يعني هذا أنّه انهارَ على جسدي أيضاً في الماضي؟ ألا يعني هذا أنني أنا أيضاً ميتٌ؟ وأنني لا أملكُ سوى أجلٍ محدود كي أختارَ خياراً غامضاً ناشدتني حبيبتي أن أختارهُ قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة؟ استسلمتُ لبكائي في بقعة لاأدري أينَ تكون من بارادايس شيل؟.. ربما في مقبرة.

جاء صوتٌ كسرَ وحشة سكون الألم المحيط بي: "سيدي... أظنُّ أنك تستطيع مساعدتي"..

ثم كرر".. سيدي... هل أنتَ بخير.. "

".. سيد فيكتور.. "ناداني أخيراً.

في بادئ الأمر لم أستوعبْ أنَّ تلك الكلمات موجهة إليّ، فأنا لم أكن سوى مجرد طيف.. لا يراهُ أو يشعر به أحد، وبلا تأثير..

لقد كنتُ وحيداً!. عندما رفعتُ نظري نحو الشخص الذي وجّه كلماته لي.. وجدتُ شاباً يقف أمامي.. يبدو في بداية ثلاثيناتهِ. ذكّرني وجههُ بشخص ما.. لكن لم يحضرني اسمهُ.

لقد كان ينظرُ إلى كياني وروحي مباشرة.. لقد كان يخاطبُ هيئتي الروحية.. كان يخاطبني أنا الذي لا أملكُ جسداً في عالم ما بعد الحياة. ركعَ على ركبتيهِ أمامي.. كرَّر كلماته لي بوجههِ المتسامح: "أظنُّ أنه يمكنكَ مساعدتي "

وكأنني نسيتُ النطق. بحثتُ طويلاً في بحر كلماتي لأسألهُ: "كيف تراني؟".

أجابَ: "لقد رأيتكَ وأنت تخرج من باب الكهف... رأيتكَ تمشي في شوارع بارادايس شيل التي على شفا الهاوية... رأيتكَ تأتي وتبكي بين القبور، تتمنى أن يحتضنكَ أحدها لترتاح.. ولهذا جئتُ إليك".

سألتهُ بجزع: "أكنتَ تراقبني؟ من تكون؟"

"لم أكن أراقبكَ باختياري.. لقد ظهرتَ في أحلامي.. هكذا كنتُ أراك".

عقدتُ حاجبيَّ وراقبتُ وجهه الغريب بالنسبة لي: "أحلامكَ؟". كنتُ ماأزالُ غير مستوعب لكل هذا. مددتُ يدي نحوه؛ فاخترقتْ يدي جسده.. لم يكن لي جسدٌ فيزيائي.. على عكسهِ. سألتهُ بكل استغراب وعدم فهم: "..أنتَ حيّ!".

"لم أعد أشعرُ أني حيٌّ منذ مدة طويلة.. على الرغم من أنَّ قلبي مايزالُ ينبض".

"ولكن كيفَ؟"

قال: "كلُّ ما أعرفهُ أنَّ علي أن أجيب النداء... نداء يناديني منذ سنين طويلة.. منذ أن خرجتُ من هذه البلدة". كان ينظر إلى سماء بارادايس شيل، إلى الغمامة الحمراء العملاقة التي تُغرقها ببطء: "كل ما كنتُ أذكره من هذا المكان هو سماؤهُ الصافية.. والآن حتى هذا لم يعد موجوداً... هلّا ساعدْتني في إيجاد الباب الذي عبرتَ منه من الكهف إلى هنا؟".

"..لماذا؟". قلتُ

" لأنكَ الوحيد الذي يمكنه ذلك.. أنتَ الوحيد الذي يعرف مكانه".

"..وماذا ستفعلُ عندما تذهب إلى هناك؟".

نظرَ بعاطفة اجتاحتهُ إليّ... وقال بكل ألم ورضاً بتقبّل المصير: ".. أريدُ أن أرى والدتي للمرة الأخيرة،.. المرأة التي ضحَّت بكل شيء لأجلي.. والتي ضحَّت بكل شخص لأجلي... أريدُ أن أحتضنها... ثم.. أريد أن تعود السماء كما كانت".

تذكرتُ لحظتها، وتمكنتُ من ربط ملامحه في ذاكرتي. وفهمتُ ما كانت تعنيهِ ماريا بالخيار الذي وضعتهُ أمامي.

هل سنغرقُ تحت المطر.. أم سنسبحُ عكس التيار؟

رايان ستروم

مقبرة باراديس شيل تحتضنُ اثنيْنِ من أحبِّ الأفراد إلى قلبي، قد لا أذكرُ الكثير عنهما، فقد ابتلعهما التراب دون أن يتسنّى لي نسج كثير من الذكريات معهما.. والدي الذي أخبرتنا والدتي أنهُ توفيَ في حادث.. وأخي الذي توفيَ بسبب المرض..لطالما آمنتُ أنني سألحقُ بهما عاجلاً.. ولا أدري لمَ مازالُ حيّاً إلى الآن.. ربما السبب هو ابتعادي عن تربة باراديس شيل.. ولأنَّ كل تربة أخرى تكرهني، ولا تريد أن تحتوي جسدي فوقها.

لطالما علمتُ أنَّ المكان الوحيد الذي سيبتلعني ميتاً هو هذه الأرض.. مثلما ابتلعتني حياً.

أنا الوحيدُ الباقي لأميّ، وبسبب هذه الحقيقة.. حُرمتُ من حنانها واحتوائها لي سنوات عديدة. لم أحظَ بها سوى لأيام من كل عام.. كانت تخشى أن تعلم بأمري الأرض الملعونة.. فتعودَ لتطالب أن تسقي أراضيها بدمائي. بينما هي تطلبُ مني المغادرة مع العم تيموثي بارنز.. أخبرتْني أنها ستلحقُ بي.. ستأتي لزيارتي قريباً.. صدّقتها وقبّلتها قبلة تتوق إلى لقاء قريب.. لم أكن أعلمُ أنَّ لقاءنا التالي سيكون بعد سنتين.. لقاءً قصيراً سريعاً امتدَّ لعدة أيام،.. غادرتني بعدها والدتي

لسنوات.. ثم عادت لزيارتي.. أصبحت العائلة البعيدة التي أوصتْ أفرادها بتنشئتي هيَ عائلتي.. ولكني لم أشعر بالانتماء إليها، على الرغم من أنَّ دفءَ أفرادها دائماً يذيبُ الثلوج التي أبنيها حول نفسي.. سرعانَ ما أبلغتهم أنني سوف أستقلُّ بذاتي.. أوهمتُهم أنَّ هنالك أحلاماً أريدُ أن أطاردها.. لكن الحقيقة أنني كنتُ أريد أن أغوص في كوابيسي أكثر وأكثر..

كوابيسي ظهرت فيها بيوت فيكتورية التصميم بسطوح بيضاء.. وبأنهار دامية،.. انتابني إحساسٌ عارم أنَّ هنالك أمراً شريراً يحصل في هذا المكان الذي كنتُ أجهلُ هويته. لم أعلم أنها بارادايس شيل،.. فلقد كنتُ أحلمُ بأماكن لم أزرْها من قبل،.. كنتُ أتجوّل في داخل بيوت السكان بكل أريحية أحياناً.. لكني لم أستطع الحديث معهم أبداً..

كنت موجوداً وحياً بين الناس في صحوتي ومنامي.. ولكني كنتُ دوماً وحيداً.

كان كل الناس الذينَ أراهم من دون ملامح،.. فقط أوجهٌ وأجساد،.. لاحقتهم وتابعتُ حياتهم،.. رأيتُ طقوس التضحية التي جعلت هؤلاء الذين من دون وجوه تصبحُ لديهم ملامح أخيراً،.. ولكنهم لم يبقوا كثيراً في تلك الأرض وهم يجوبونها كأرواح،..

كانوا دائماً يسيرون نحو النهر الدامي ويغرقون فيه.. لقد شاهدتُ الكثيرين منهم يفعلون ذلك.. يصبحون جزءاً من الدماء التي تسري عبر هذه البلدة.

لم أعرف أنَّ هذه البلدة التي رأيتها في منامي لسنين طويلة.. لم تكن سوى بلدتي الأم.. بارادايس شيل.. سوى عندما عادت أمي إلى هنا.. وبدأتْ تظهر في أحلامي بدورها..

في بادئ الأمر، ومنذ سنوات حلمي الطويلة، لم أكنْ أصدق أبداً أنَّ ما أحلمهُ حقيقة وواقع... كنتُ أخبر والدتي بما أراه... كان هذا يوتّرها ويُخيفها،.. ولم أردْ لعلاقتنا أن تكون العلاقة التي أثقلُ فيها قلبَ من أشتاقُ إليها كلما رأتني.. لذا في إحدى المرات، عندما سألتني إن كنتُ ماأزالُ أرى نفس الأحلام أم لا؟.. أخبرتُها أنها توقفت. لكنها لم تتوقف أبداً... تختفي في فترات.. ثم تعود قوية من جديد،.. لا تتكرر أبداً،.. قد تتكرر الثلوج.. والدماء.. لكن كان هنالك دوماً شيء مختلف..

بدأتُ أحلمُ بأمي.. وظننتُ أنها ليست سوى أحلام... ولم أستطع أن أفسّر أنها حقيقة، إلا بعد أن مضت سنين طويلة انقطعتْ فيها عن التواصل معي..

لقد رأيتُ ما فعلتْ.. لقد أرتْني الفتاةُ ذات الشفتين الداميتين ما فعلتْ والدتي بها. لقد أرتني إيّاها وهي تبدل دماءها بدماء حيوان.. رأيتُ ما جرى إثر ما فعلت.. رأيتُ الجنون الذي أصابَ الجميع،.. رأيت وفاة آدامسون.. بانكرافت.. شجاعة ماريا.. جهود فيكتور.. رأيتُهم يحاولون إنقاذ لوسيا بالنزول إلى القلعة المقلوبة.. رأيتُ أمي معهم تنقذها بدورها... ورأيتُ أمي تصوب المسدس على ماريا، تمنعُها من إنقاذ لوسيا ليختفي الشرّ.. لقد أرادت أمي للشر أن يستيقظ.. وأن يقضي على كل روح تسكن في هذه الأرض، التي لطالما لقّبتها بالملعونة..

تنفستُ بعمق وأنا أسيرُ خلف فيكتور في الغابات،.. أتنشَّقُ رائحة الغابات الضبابية التي حلمتُ بها لسنوات أخيراً، حلمتُ بكل ما جرى لأمي، وحتى اللحظة التي أوقفتْ فيها ماريا الزمن، وخرجَ فيكتور من ذلك الباب إلى هذه الحياة البيضاء. حلمتُ أيضاً بما حصلَ لبارادايس شيل ولأهلها في تلك الأثناء.

عندما دخلَ أوين مارشال في صراع أبدي مع الأرواح المؤيدة له والمعارضة والكارهة له،.. تمكنوا من عبور البحر الأسود، والنزول إلى أعمق

نقطة في الكهف. في جميع تلك الأثناء.. كان أهالي بارادايس شيل وخاصةً خالي ألكساندر، قد شارفوا على فقدان عقولهم، كلما طالت مدة غياب أوين مارشال، وكذلك عدم قبضهِ على لوسيا.

تجمَّع هو وأهالي البلدة، دون مبالاة بأن تكون لوسيا هي ضحيتهم التالية.. كل ما كانوا يريدونهُ هو ضحية وإنهاء كل شيء. ضحية من العوائل المؤسسة ذات الدماء الأقوى،.. فانتهى الأمر بمجزرة،.. بين مكذّب ومشكّك، خاصةً بعد أن قفزَ ابنهُ بيتر من بين الجموع متّهماً والده بالجنون، في محاولة أخيرة لينسى الجميع مسألة ملاحقة لوسيا وقتلها،.. أذكرُ كلماته التي سمعتُها في حلمي جيداً: "الشر بينكم". ثم صاح: "قتلُ أحبابكم هو الشر بعينه. يجبُ ألّا تصدقوا تلك الخرافات التي ولَّدَها خيالكم. أنتم من صنعَ ذلك الشر. إيمانكم به، وخوفكم وخشيتكم من غضبه، هو ما أعطاهُ القوة. الشر موجود طالما تؤمنونَ به. طالما أنتم تهابون هذا الظلام؛ سيتمكن من صنع أسوأ مخاوفكم". أخفضَ صوته، وقال أخيراً:

"خوفُ الدماء، هو قوة الشر".

لقد أثّر كلامه في نفوس أولئكَ الذينَ كانوا فعلاً يتألمون من فقدان أحبابهم، وقد مضت على

معاناتهم سنين طويلة. أيقظتْ كلماته فيهم لهيباً ظنَّ أنه انطفأ مثلما ظنّوا هم أنفسهم ذلك. كان خالي ألكساندر يبدو مجنوناً تماماً، بينما بيتر يبدو هادئاً. واعترفَ أنَّه يحبُّ لوسيا ولا يريدُ أن يخسرها. فكرههُ البعض؛ لمحاولتهِ النجاة بنفسه وبحبيبته.

ثم أطلقَ تيموثي بارنز الذي كان يختبئ بينهم النار، وظهرَ له معاونون آخرون بدؤوا بإطلاق النار، وقتلوا ألكساندر وبيتر كليهما، مانعين أيَّ أحد من إجراء أي طقس معين لدمائهما ولدماء غيرهما. وعمَّت الفوضى في كل مكان، وقبل أن يفلحَ أحدٌ في الهرب، ظهرتْ أمامهم سالي واقفة دون ملامح، وأشارت بيدها؛ ليبدأ الكهف وينهار عليهم ويمنعهم من الخروج، وماتوا جميعاً.. كلّ مَن آمن بالطقس.. وكل مَن استيقظ من غفلته بعد سنين طويلة من إيمانه.. جميع من كانوا هناك في الأسفل ماتوا.

لقد كان الشرّ قوياً يومذاك، وماتزالُ قوته تزداد إلى يومنا هذا.. مدمراً حياة الكثيرين هنا في بارادايس شيل.. وتصلُ غمامته ذات الدماء الممطرة إلى أماكنَ أخرى.

رأيتُ كل ما جرى في حلمي.. أصبحَ موضوع انهيار الكهف حديث الناس، وبدؤوا يتساءلون عن سبب وجود كل أولئك الناس في أرض الكهف..

وانهارَ أناسٌ كثيرون لمعرفتهم الآن أنَّ الشر سيسيقظ ولا مجال لإيقافهِ.. بعضهم غادروا وباعوا ملكياتهم، فأصبح المكان كأنه بلدة مهجورة مع بقاء قلة من الناس فيها، جاهلين أو غير مصدقين لما يجري! ينتقلُ الناس إليها الآن ظنّاً منهم أنها بلدة هادئة فارغة من البشر، وعقاراتها متدنية الأسعار. ومنهم من لم يغادر فَرِحاً أخيراً بأنَّ كل شيء انتهى، ويمكنه العيش بأمان دون خوف على عائلته.

قاطعَ فيكتور حبلَ أفكاري، بينما سألني: "كم مضى من الوقت منذ انهيار الكهف؟".

أجبتهُ: "خمسة أعوام تقريباً".

"لقد كنتُ للتو في الأسفل.. مع ماريا..لقد كانت تنزفُ بين يديَّ... هل أستطيعُ إنقاذها بعدَ إخراجها من ذلك الباب؟".

نظرتُ إليه بتعاطف، وأجبتهُ: "كلا "

"هل انتهى كل شيء؟".

"سينتهي قريباً".

حاولَ ترتيبَ كلماته، وبدا هذا واضحاً من خلال عينيهِ اللتيْنِ جابتَا المكان: "ما هوَ الخيار الذي عليَّ اختيارهُ؟، حتى الآن لا أعرفُ عمّا كانت تتحدث ماريا قبل أن تفعّلَ سحرها في إيقاف

الوقت، وإرسالي إلى هنا".

"لم تكن تقصدكَ أنتَ.... لقد كانت تقصدُني أنا".

- أنتَ؟... ولِمَ تقصدكَ أنتَ؟ مَن تكون؟".

"رايان ستروم". قلتُ

"أنتَ ابن مارجيت الذي هرَّبته مدَّعية أنه سقط في النهر؟ أنتَ ابن المرأة التي فعلتْ كل هذا لإبقائهِ حيّاً، ولضمان سلامته؟".

تذكرتُ أمي فجأة. تذكرتُ الغياب، وكذلك الغابة والهروب في الليلة الباردة. امتزجت الذكريات ببعضها، بطريقة تجعلُ الحنين مؤلماً.

"لقد فعلتْهُ لأجلها أيضاً، ولأجل كل من ذرفَ دمعة على حبيب في هذه الأرض".

"أنتَ تعتبرها بطلة". هزَّ رأسهُ، وأشاحَ ببصره عني، وكان هذا إعلانٌ لسخرية مبطنة بحقد ما.

"وأنتَ تعتبرها مَن قتلتْ حبيبتكَ". قلتُ له موضحاً إدراكي لأفكاره.

"لا يمكنكَ أن تكتشفَ حقيقةَ شخصٍ من منظور واحد... متأكد الآن أنَّ هنالك من ستكون في نظرهِ بمثابة البطلة.. آخرونَ سيعتبرونها لا شيء سوى خائنة.. غيرهم لن يعرفها سوى عندما يتذكر أنها

المرأة التي خسرت كل شيء لأجل بارادايس شيل.. أو العمّة الباردة.. أو العمّة الطيبة... والدتي مارجيت ستكون الكثير من الأشياء لكثير من الناس.. قد تكونُ هي... التي بفضلها انتهى كل شيء".

نظرَ فيكتور إلى السماء، وقال: "لا أرى أنَّ هنالك ما انتهى... إنني أرى بداية فقط لمزيد من الفظائع، التي لن يتمكن عقل من تخيّلها "

نظرتُ معه إلى الغيمة الحمراء التي تمطر دماً... إنْ نظرتَ جيداً للشر.. يمكنكَ أن ترى عينهُ الضخمة القاتمة تنظرُ إليكَ أيضاً.. بعد بريقٍ في السماء بفعل البرق.. جزعَ فيكتور أمام منظر العين التي ظهرت فوقه فجأة.. على عكسي أنا، فقد بقيتُ هادئاً.. معتاداً على هذا المنظر الذي لازمَ أحلامي وذهني لسنوات..

قلتُ له: "آسف يا فيكتور، ولكن لا يمكنني إصلاح ما فعلتهُ أمي بحقّك".

" كان يُفترض أن تكون هذه مهمتنا الأخيرة... أن ننتهي من كل شيء، ثم نمشي سوياً إلى الحياة السعيدة معاً".

".. أنا.. آسفُ جداً لأنَّ هذا لم يحصل".

سألني: "لم عدتَ الآن؟".

".. لأنني رأيتكَ في حلمي تخرجُ من الباب الذي يقود إلى بؤرة كل شيء... لم أتمكن من معرفة مكانهِ وسط هذه الغابة الشاسعة... أحتاجكَ أن تقودني إليه.. لهذا جئتُ".

كان يكافحُ دموعه من الانفجار، ولكنها انفلتتْ على وجهه،.. راقبتهُ يمسحُها، وانتظرتهُ ليتمالكَ نفسه. كانَ ينظرُ إلى عين السماء كلما برقَ البرق.. وثم يعيدُ النظر إليَّ ويسألني: ".. ماذا ستختار؟".

- ".. ماذا تظنُّ أنَّهُ عليَّ أن أختار؟"

- ".. لم أعدْ أبالي بشيء.. ولا بأيّ شيء".

كنّا قد أصبحنا عالياً على التلة،.. ظللتُ أنظرُ إلى البلدة التي يغطيها ثلج أبيض دامٍ.. بهطولِ دماء مستمر من غمامة الشر القابعة فوقها.. والتي تنظر إليها نظرات تخترقُ أرواح جميع من يسكنون فيها... وسرعان ما ستوجّهُ نظراتها إلى العالم أجمع..

ثم تبعتُ فيكتور.. وصولاً إلى باب الكهف الذي خرجَ منه إلى هذا العالم.. كلُّ ما رأيتهُ في حلمي هو خروجه من باب، ولم أستطع أن أعرف أين كان؟.

كان البابُ غير مغلق،.. مفتوحاً قليلاً،..

فتحتهُ ببطء لأسمع صريره، وكأنه لم يتحرك من مكانه لسنوات.. صوتُ صرير عالٍ وحاد. دلفتُ إلى داخل الكهف الذي سأكتبُ فيه الفصل الأخير لكل ما تجلَّى في بارادايس شيل.تبعَني فيكتور.. مباشرة نحو ماريا.. تمعَّن النظر في وجهها الجامد طويلاً.. بينما سرتُ نحو والدتي.. أمي التي باعدتْ بيني وبينها الظروف لسنين طويلة.

ركعتُ عندها، وتمعَّنتُ في وجهها، ونظرات التصميم والعزيمة التي لم تفارقهُ. ابتسمتُ رغماً عني، وعيناي تحترقان استعداداً لسكب الدموع.. لم أرَ عينَي أمي بهذه الكمية من الحياة أبداً... عندما كانت تنظرُ إليَّ، لطالما كنتُ أرى الخوف الذي تخبّئه في دواخلها.. الخوف من فقدي.. والألم كلما تذكرتْ ما جرى في الماضي،.. والحقد عندما تدركُ أنها دوماً بعيدة عني؛ خوفاً عليَّ.

كانت أمي دائماً بعيدة جداً عنّي... تخافُ أن تقترب منّي؛ فتقتلني. حدَّقتُ في عينيها طويلاً حتى خيّل إليَّ أنَّ مقلتيها ترتعشان.. ثم امتلأتْ عيناها بالدموع والخوف ينبعُ منهما. احتضنتُها على الرغم من أنَّ جسدها كان متجمداً في مكانه بفعل سحر ماريا،.. وطبعتُ قبلة طويلة بطيئة على جبينها.. نظرتُ إلى عينيْها مجدداً؛ فرأيتهما تذرفانِ

الدموع.. لكن... نظراتها أخبرتني كم كانت تحبّني حبّاً جماً.

رددتُ: ".. أعلمُ... لم أشكَّ يوماً "

ناديتُ على فيكتور، وأنا ماأزالُ أنظرُ إلى أمي: "أيمكنكَ أن تساعدني؟"

علمتُ أنه ينظر إليَّ، ويتساءل فيمَ أحتاجُ مساعدته؟.. نهضتُ من عند أمي، وأخبرته: "في تنفيذ الخيار الذي سمحتْ لكَ ماريا أن تختارهُ".

أومأ لي فيكتور أنهُ سيساعدني بعد لحظة ثقيلة، أغلقَ الباب الذي يقودنا إلى الخارج.... لنُحبسَ هنالك إلى الأبد.أخرجتُ سكيناً وجرحتُ يدي في شراييني، وبعد جهد وامتناع نجحَ فيكتور في قطع شرايين يدي الأخرى. لم تكن سوى لحظات، حتى شكلتْ دمائي بركتيْن عند قدمي... أسندني فيكتور في المشي، حتى أكدتُّ له أنني وصلتُ إلى الموقع الذي أريدُ أن أقفَ فيه.

وقفتُ أمام الروح الهائجة التي تشكل دائرة متجمدة حول تابوت لوسيا وسالي. لطختُ يديَّ بالدماء، ولمستُ تلك الهالة المتجمدة..و سرعانَ ما بدأت تذوب.. وكأنَّ رياحاً خفية تأخذ قطرات دمي وتنشرها في تلك الهالة لتمتلئ بها. سرتُ بخطوات ثقيلة إلى داخل الهالة، ولم يعد يستطيع فيكتور أن

يساعدني.

سرتُ نحو التابوت الذي يحوي جثّتي الشقيقتيْن. رفعتُ رأس كل واحدة منهما، وسقيتُها كثيراً من دمائي. سقطتُّ إلى جانب ذلك التابوت.. وقد غرقت الأرض تحتي بدمائي. لم أكن أعلم أنَّ جسد الإنسان يحوي هذه الكمية الهائلة من الدماء. بدأتُ أفقد قوتي تدريجياً، ولكن كنتُ أشعر بسعادة بالغة، وأنا أرى الهالة التي تشكلت بفعل الشر يرتوي ظمؤها أخيراً.. فتصغر.. وأرى الضباب الأحمر يأتي من مداخل الكهف الخفية جميعاً.. ليدخل إلى داخل التابوت، بينما هنالك صوت صراخ هائج يُسحب معه.

لحظات فقط، وسينتهي كل شيء. سأصبحُ جزءاً من هذه الأرض.. الأرض الوحيدة التي يكون لدمائي فيها معنى.

لا أحتاجُ طقساً.. أنا في بؤرة الشر هنا. أنا آخر من بقيَ من دماء العوائل المؤسسة القادرة على ردع الشر. ولأنَّ نصف دمائي لعائلة ستروم، أحتاجُ لكلّ دمائي لإخماد لهيب هذا الشر الذي قتلَ العشرات، وسيكبر وسيستمر حتى يقتل المئات ثم الآلاف والملايين.

أعلمُ أنَّ أمي ضحت بالكثير لأجلي.. لكني لستُ

تلك الروح التي يمكنها أن تستمر في العيش بينما يسقط الموتى حولي.. أراهم في يقظتي ومنامي.. دون أن أفعل شيئاً. على أمل أن يعرف سكان بارادايس شيل الحب مجدداً.. التآخي... والرحمة. أنا أقدّم دمائي لتتبخَّر غيمة الدماء.. ولتتوقف الأنهار الحمراء.. ولتذوب الثلوج ولتكشَف الألوان.

الشرُّ متجدد، يستمد طاقته من الحياة، يمكنه تحويل كل رغبة إلى وسيلة لتنميته. كما يمكنهُ أن يبني ذاته فوق الخير. هذه الحرب لن تنتهي، ولو كنتُ أرسمُ اليوم لها حدّاً مؤقتاً.

مع انحسار الصرخات المرعبة للظلام الذي سلبَ الأرواح. سمعتُهما تقولان: "شكراً لكَ"

تمت